محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى 2



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

محمود درويش

الأعمال الأولى ٢

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

محمود درويش

الديوان

الأعمال الأولى ٢

محمود درويش

الأعمال الأولى ٢

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

AL-DIWAN
2

(Poems)
By Mahmoud Darwich

First Published in June 2005

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21106 7

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

المحتويات

أحبك أو لا أحبك

١٩٧٢

مزامیر

ـ ١ ـ

أُحبُّكِ، أو لا أُحبُّكِ ـ
أذهبُ، أترك خلفي عناوين قابلةً للضياعْ.
وأنتظر العائدين؛ وهم يعرفون مواعيد موتى ويأتون.
أنتِ التي لا أحبُّك حين أُحبُّك، أسوارُ بابلَ
ضيِّقَةٌ في النهار، وعيناك واسعتان، ووجهك
منتشر في الشعاع.
كأنكِ لم تولدي بعد. لم نفترق بعد. لم تصرعيني.
وفوق سطوح الزوابع كلُّ كلام جميل، وكلُّ
لقاء وداع.
وما بيننا غيرُ هذا اللقاء، وما بيننا غير هذا الوداع.

أُحبُّك، أو لا أُحبُّك ـ

يهربُ مني جبيني، وأشعر أنك لا شيء أو كل شيء.
وأنك قابلة للضياع.

أُريدكِ، أو لا أُريدك ـ
إنَّ خرير الجداول محترقٌ في دمي. ذات يوم أراك،
وأذهب.
وحاولتُ أن أستعيد صداقةَ أشياء غابت ـ نجحت
وحاولت أن أتباهى بعينين تتسعان لكل خريف ـ
نجحت ـ وحاولتُ أن أرسم اسماً يلائم زيتونةً
حول خاصرةٍ ـ فتناسَلَ كوكبْ.

أُريدك حين أقول أنا لا أُريدك ..
وجهي تساقط. نهرٌ بعيدٌ يذوبُ جسمي. وفي السوق
باعوا دمي كالحساء المعلَّب.
أُريدك، حين أقول أُريدك ـ
يا امرأة وَضَعَتْ ساحل البحر الأبيض المتوسط في
حضنها.. وبساتين آسيا على كتفيها.. وكلَّ
السلاسل في قلبها.

أُريدك، أو لا أُريدك ـ
إنَّ خرير الجداول. إنَّ حفيف الصنوبر. إن هدير
البحار. وريشَ البلابل محترقٌ في دمي ـ ذات
يوم أراك، وأذهب.

أُغنّيك، أو لا أُغنّيك ـ
أسكتُ. أصرخُ. لا موعد للصراخ ولا موعد
للسكوت. وأنتِ الصراخ الوحيدُ وأنتِ السكوت
الوحيدْ.

تداخل جلدي بحنجرتي. تحت نافذتي تعبر الريح
لابسةً حَرَساً. والظلامُ بلا موعد. حين ينزل
عن راحتيَّ الجنودْ
سأكتبُ شيئاً ..
وحين سينزل عن قدميَّ الجنود
سأمشي قليلاً ..
وحين سيسقط عن ناظريَّ الجنود
أراك .. أرى قامتي من جديد.

أُغنّيك، أو لا أُغنّيك

أنت الغناء الوحيد، وأنت تُغنّينني لو سكتُّ. وأنت السكوتُ الوحيد.

ـ ٢ ـ

في الأيام الحاضره
أجد نفسي يابساً
كالشجر الطالع من الكتب
والريح مسألة عابره
أُحارب .. أو لا أحارب؟
ليس هذا هو السؤال
المهمّ أن تكون حنجرتي قويَّة.
أعمل .. أو لا أعمل؟.
ليس هذا هو السؤال
المهمّ أن أرتاح ثمانية أيام في الأسبوع
حسب توقيت فلسطين.

أيها الوطن المتكرر في الأغاني والمذابح،
دُلَّني على مصدر الموت
أهو الخنجر .. أم الأكذوبة؟

لكي أذكرَ أن لي سقفاً مفقوداً
ينبغي أن أجلس في العراء.
ولكيلا أنسى نسيم بلادي النقي
ينبغي أن أتنفس السل
ولكي أذكر الغزال السابح في البياض
ينبغي أن أكون معتقلاً بالذكريات.
ولكيلا أنسى أن جبالي عالية
ينبغي أن أُسرِّح العاصفة من جبيني.
ولكي أُحافظ على ملكية سمائي البعيدة
يجب ألّا أملك حتى جلدي.

أيها الوطن المتكرر في المذابح والأغاني
لماذا أُهرِّبك من مطار إلى مطار
كالأفيون..

والحبر الأبيض ..
وجهاز الإرسال؟!
أُريد أن أرسم شكلك.
أيها المبعثر في الملفّات والمفاجآت
أُريد أن أرسم شكلك
أيها المتطايرُ على شظايا القذائف وأجنحة العصافير
أُريد أن أرسم شكلك
فتخطف السماءُ يدي.
أُريد أن أرسم شكلك
أيها المحاصر بين الريح والخنجر
أُريد أن أرسم شكلك
كي أجد شكلي فيك
فأُتَّهم بالتجريد وتزوير الوثائق والصور الشمسية
أيها المحاصر بين الخنجر والريح.

ويا أيها الوطن المتكرر في الأغاني والمذابح
كيف تتحول إلى حلم وتسرق الدهشة
لتتركني حجراً.

لعلَّك أجملُ في صيرورتك حلماً
لعلَّك أجمل!

لم يبق في تاريخ العرب
اسم أستعيره
لأتسلَّل به إلى نوافذك السريَّة.
كل الأسماء السرية محتجزة
في مكاتب التجنيد المكيَّفة الهواء
فهل تقبل اسمي -
اسمي السري الوحيد -
محمود درويش؟
أما اسمي الأصلي
فقد انتزعتْه عن لحمي
سياطُ الشرطة وصنوبرُ الكرمل

أيها الوطن المتكرر في المذابح والأغاني
دُلَّني على مصدر الموت
أهو الخنجر
أم الأكذوبة؟!

ـ ٣ ـ

يومَ كانتْ كلماتي
تربةً ..
كنت صديقاً للسنابلْ.
يومَ كانت كلماتي
غضباً ..
كنت صديقاً للسلاسل
يوم كانت كلماتي
حجراً ..
كنتُ صديقاً للجداول.
يومَ كانت كلماتي
ثورة ..

كنت صديقاً للزلازل
يوم كانت كلماتي
حنظلاً ..
كنتُ صديقَ المتفائل
حين صارت كلماتي
عسلاً ..
غطّى الذباب
شفتيَّ! ..

ـ ٤ ـ

تركت وجهي على منديل أُمّي
وحملت الجبال في ذاكرتي
ورحَلْت ..
كانت المدينة تكسر أبوابها
وتتكاثر فوق سطوح السفن
كما تتكاثر الخضرة في البساتين التي تبتعد..
إنني أتّكىء على الريح
يا أيتها القامة التي لا تنكسر
لماذا أترنّح؟.. وأنت جداري
وتصقلني المسافة
كما يصقل الموتُ الطازج وجوهَ العُشّاق

وكلما ازددتُ اقتراباً من المزامير
ازددتُ نُحولاً ..
يا أيتها الممرات المحتشدة بالفراغ
متى أصل؟ ..
طوبى لمن يلتفُّ بجلده!
طوبى لمن يَتذكَّر اسمه الأصليَّ بلا أخطاء!
طوبى لمن يأكل تفاحة ولا يصبح شجرة.
طوبى لمن يشرب من مياه الأنهار البعيدة
ولا يصبح غيماً!
طوبى للصخرة التي تعشق عبوديتها
ولا تختار حرية الريح!.

ـ ٥ ـ

أكلما وقفتْ غيمة على حائط
تطايرت إليها جبهتي كالنافذة المكسورة
ونسيت أني مرصود بالنسيان
وفقدت هويتي؟
إنني قابل للانفجار
كالبكارة ..

وكيف تتَّسع عيناي لمزيد من وجوه الأنبياء؟
إتبعيني أيتها البحار التي تسأم لونها
لأدلَّك على عصا أخرى.
إنني قابل للأعجوبة

كالشرق ..
أنا حالة تفقد حالتها
حين تكفُّ عن الصراخ
هل تسمّون الرعدَ رعداً والبرقَ برقاً
إذا تحجَّر الصوت، وهاجر اللون؟!
أكلما خرجتُ من جِلدي
ومن شيخوخة المكان
تناسل الظلُّ، وغطّاني ...؟
أكلما أطلقتُ رياحي في الرماد
بحثاً عن جمرة منسيَّة
لا أجد غير وجهي القديم الذي تركته
على منديل أُمي؟
إنني قابلٌ للموت
كالصاعقة ..

ـ ٦ ـ

أشجار بلادي تحترف الخضرة
وأنا أحترف الذكرى.
والصوت الضائع في البرية
ينعطف نحو السماء، ويركع:
أيها الغيم! هل تعود؟

لستُ حزيناً إلى هذا الحدّ
ولكن، لا يحبُّ العصافير
من لا يعرف الشجر.
ولا يعرف المفاجأة
من اعتاد الأكذوبة.

لستُ حزيناً إلى هذا الحد
ولكن، لا يعرف الكذب
من لم يعرف الخوف.

أنا لستُ منكمشاً إلى هذا الحد
ولكن الأشجار هي العاليةَ.
سيداتي، آنساتي، سادتي
أنا أحبُّ العصافير
وأعرف الشجر
أنا أعرف المفاجأة
لأني لم أعرف الأكذوبة.
أنا ساطع كالحقيقة والخنجر
ولهذا أسألكم:
أطلقوا النار على العصافير
لكي أصِفَ الشجر.
أوقفوا النيل
لكي أصف القاهرة.
أوقفوا دجلة أو الفرات أو كليهما

لكي أصف بغداد.
أوقفوا برَدى
لكي أصف دمشق!
وأوقفوني عن الكلام
لكي أصف نفسي ..

- ٧ -

ظلُّ النخيل، وآخرُ الشهداء، والمذياع يرسل صورةً
صوتيةً عن حالة الأحباب يوميّاً، أُحبُّك في
الخريف وفي الشتاءْ.

- لم تبك حيفا. أنت تبكي. نحن لا ننسى تفاصيل
المدينة، كانت امرأةً، وكانت أنبياءْ.

البحرُ! لا. البحرُ لم يدخل منازلنا بهذا الشكل.
خمسُ نوافذٍ غرقتْ، ولكنَّ السطوح تعجُّ
بالعشب المجفَّف والسماءْ -

ودَّعتُ سجّاني. سعيداً كان بالحرب الرخيصة.
آه يا وطن القرنفل والمسدَّس، لم تكن أُمي معي.
وذهبتُ أبحث عنك خلف الوقت والمذياع. شكلك
كان يكسرني .. ويتركني هباءْ.

كان الكلام خطيئةً، والصمت منفى. والفدائيون
أسرى توقهم للموت في واديك. كان الموت تذكرة
الدخول إلى يديك. وكنتَ تحتقر البكاءْ.

والذكرياتُ هويَّة الغرباء أحياناً، ولكنَّ الزمان
يضاجع الذكرى وينجب لاجئين، ويرحل
الماضي، ويتركهم بلا ذكرى. أتذكرنا؟ وماذا
لو تقول: بلى! أتذكر كُلَّ شيء عنك؟ ماذا
لو نقول: بلى!.. وفي الدنيا قضاةٌ يعبدون الأقوياءْ.

من كل نافذةٍ رميتُ الذكريات كقشرة البطيخ،
واستلقيتُ في الشَّفَق المحاذي للصنوبر (تلمع
الأمطار في بلد بعيد. تقطف الفتياتُ خوخاً غامضاً...)

والذكرياتُ تمرُّ مثل البرق في لحمي، وترجعني
إليك.. إليك. إنَّ الموت مثل الذكريات كلاهما
يمشي إليك.. إليك، يا وطناً تأرجح بين كلِّ
خناجر الدنيا وخاصرةِ السماءْ.

ظلّ النخيل، وآخر الشهداء والمذياع يرسل صورةً
صوتيةً عن حالة الأحباب يومياً ـ أُحبك في
الخريف وفي الشتاءْ.

ـ ٨ ـ

حالة الاحتضار الطويلةْ
أرجعتني إلى شارع في ضواحي الطفولةْ
أدخلتني بيوتاً
قلوباً
سنابل
منحتني هويَّه
جعلتني قضيَّه
حالةُ الاحتضار الطويلةْ

* * *

كان يبدو لهم
أنني ميِّت، والجريمةُ مرهونةٌ بالأغاني

فمرُّوا، ولم يلفظوا اسمي.
دفنوا جثتي في الملفّات والانقلابات،
وابتعدوا.
(والبلاد التي كنتُ أحلم فيها ـ سوف
تبقى البلاد التي كنتُ أحلم فيها).

كان عمراً قصيراً
وموتاً طويلا
وأفقتُ قليلا
وكتبتُ اسم أرضي على جُثَّتي
وعلى بندقيَّهْ
قلت: هذا سبيلي
وهذا دليلي
إلى المدن الساحليَّهْ.
وتحركتُ،
لكنهم قتلوني.

* * *

دفنوا جثتي في الملفات والانقلابات،
وابتعدوا.

(والبلاد التي كنتُ أحلم فيها ـ
سوف تبقى البلاد التي كنتُ أحلم فيها).

* * *

أنا في حالة الاحتضار الطويلهْ
سيِّد الحزن.
والدمع من كل عاشقة عربيَّه
وتكاثر حولي المغنّون والخطباء
وعلى جثتي ينبتُ الشعر والزعماء
وكل سماسرة اللغة الوطنيَّه
صفَّقوا
صفَّقوا
صفَّقوا
ولتعشْ
حالة الاحتضار الطويلهْ

* * *

حالةُ الاحتضار الطويلهْ
أرجعتني إلى شارع في ضواحي الطفولهْ
أدخلتني بيوتاً .. قلوباً.. سنابل

جعلتني قضيَّه
منحتني هويَّه
وتراثَ السلاسل.

ـ ٩ ـ

إني أتأهَّب للانفجار
على حافة الحلم
كما تتأهب الآبار اليابسة
للفيضان.

إني أتأهَّب للانطلاق
على حافة الحلم
كما تتأهب الحجارة
في أعماق المناجم الميتة

إني أتحفَّز للموت

على حافة الحلم
كما يتحفز الشهيد للموت
مرةً أُخرى.

إني أتأهَّب للصراخ
على حافة الحقيقة
كما يتأهَّب البركان
للانفجار.

ـ ١٠ ـ

الرحيل انتهى
من يغطّي حبيبي
كيف مرَّ المساء المفاجىء
كيف اختفى
في عيون حبيبي؟
الرحيل انتهى.

أصدقائي يمرون عني.
أصدقائي يموتون فجأة

الرحيل انتهى

في جناح السنونو.
الرحيل ابتدأ
حين فرَّ السجين.

ما عرفتُ الضياع
في صرير السلاسل
كان لحمي مشاع
كسطوح المنازل
لعدوّي، ولكن
ما عرفت الضياع
في صرير السلاسل

أصدقائي يمرُّون عني
أصدقائي يموتون فجأة.

- ١١ -

أداعب الزمن
كأمير يلاطف حصاناً
وألعبُ بالأيام
كما يلعب الأطفال بالخرز الملوَّن.

إني أحتفل اليوم
بمرور يوم على اليوم السابق
وأحتفل غداً
بمرور يومين على الأمس
وأشرب نخب الأمس
ذكرى اليوم القادم

وهكذا .. أُواصل حياتي!

عندما سقطتُ عن ظهر حصاني الجامح
وانكسرت ذراعي
أوجعتني إصبعي التي جرحت
قبل ألف سنة!

وعندما أحييت ذكرى الأربعين لمدينة عكا
أجهشت في البكاء على غرناطة
وعندما التفَّ حبل المشنقة حول عنقي
كرهت أعدائي كثيراً
لأنهم سرقوا ربطة عنقي!

ـ ١٢ ـ

نرسم القدسَ:

إله يتعرَّى فوق خطٍّ داكنِ الخضرة. أشباه عصافير تهاجرْ

وصليب واقف في الشارع الخلفيّ. شيء يشبه البرقوق

والدهشة من خلف القناطرْ

وفضاء واسع يمتدُّ من عورة جنديّ إلى تاريخ شاعر.

نكتبُ القدس:

عاصمة الأمل الكاذب... الثائر الهارب.. الكوكب

الغائبْ. اختلطتْ في أزقَّتها الكلمات الغريبةُ،

وانفصلتْ عن شفاه المغنّين والباعةِ القُبَلُ السابقهْ.

قام فيها جدار جديد لشوق جديد، وطروادةُ

التحقتْ بالسبايا. ولم تَقُل الصخرةُ الناطقهْ
لفظةً تُثبِتُ العكس. طوبى لمن يجهضُ النار في
الصاعقهْ!.

ونغني القدسَ:
يا أطفال بابلْ
يا مواليد السلاسلْ
ستعودن إلى القدس قريباً
وقريباً تكبرون.
وقريباً تحصدون القمح من ذاكرة الماضي
قريباً يصبح الدمع سنابل.
آه، يا أطفال بابل
ستعودون إلى القدس قريباً
وقريباً تكبرون.
وقريباً
وقريباً
وقريباً ....
هلّلويا
هلّلويا!

عائد إلى يافا

هو الآن يرحل عنّا
ويسكن يافا
ويعرفها حجراً .. حجراً
ولا شيء يشبهه
والأغاني
تقلِّدهُ ..
تقلِّد موعده الأخضرا.
هو الآن يعلن صورته ـ
والصنوبر ينمو على مشنقهْ
هو الآن يعلن قصَّته ـ
والحرائقُ تنمو على زنبقهْ

هو الآن يرحل عنّا
ليسكن يافا

ونحن بعيدون عنه،
ويافا حقائبُ منسيَّة في مطارْ
ونحن بعيدون عنه؛
لنا صُوَرٌ في جيوب النساء،
وفي صفحات الجرائدِ،
نعلن قصَّتنا كل يوم
لنكسب خصلة ريح وقبلة نار

ونحن بعيدون عنه،
نهيب به أن يسير إلى حتفه..
نحن نكتب عنه بلاغاً فصيحاً
وشعراً حديثاً
ونمضي.. لنطرح أحزاننا في مقاهي الرصيف
ونحتجُّ: ليس لنا في المدينة دار.
ونحن بعيدون عنه،
نعانق قاتله في الجنازة،

نسرق من جرحه القطن حتى نلمِّعَ
أوسمة الصبر والانتظار

هو الآنَ يخرج منا
كما تخرج الأرض من ليلة ماطِرهْ
وينهمر الدمُ منهُ
وينهمرُ الحبر منّا.
وماذا نقول له؟ ـ تسقطُ الذاكرهْ
على خنجرٍ؟
والمساءُ بعيدٌ عن الناصرهْ!
هو الآن يمضي إليه
قنابل أو .. برتقالهْ
ولا يعرف الحدَّ بين الجريمة حين تصير حقوقاً
وبين العدالهْ
وليس يصدِّق شيئاً
وليس يكذِّبُ شيئاً.
هو الآن يمضي .. ويتركنا
كي نعارض حيناً
ونقبل حيناً.

هو الآن يمضي شهيداً
ويتركنا لاجئينا!

ونام
ولم يلتجىء للخيام
ولم يلتجىء للموانىء
ولم يتكلَّمْ
ولم يتعلَّمْ
وما كان لاجىء
هي الأرض لاجئةٌ في جراحه
وعاد بها.
لا تقولوا: أبانا الذي في السموات
قولو: أخانا الذي أخذ الأرض منّا
وعاد ..
هو الآن يُعدمُ
والآن يسكنُ يافا
ويعرفها حجراً .. حجرا
ولا شيء يشبهه

والأغاني
تقلّده.
تقلّد موعده الأخضرا

لترتفع الآن أذرعةُ اللاجئين
رياحاً .. رياحا.
لتنتشر الآن أسماؤهم
جراحاً .. جراحا.
لتنفجر الآن أجسادهم
صباحاً .. صباحا.
لتكتشف الأرضُ عنوانها
ونكتشف الأرضَ فينا.

عازف الجيتار المتجول

كان رسّاماً،
ولكنَّ الصُّوَر
عادةً،
لا تفتح الأبواب
لا تكسرها ..
لا تردُّ الحوت عن وجه القمر.

(يا صديقي، أيها الجيتار
خذني ..
للشبابيك البعيدهْ)

* * *

شاعراً كان،
ولكنَّ القصيدهْ
يبستْ في الذاكرهْ
عندما شاهد يافا
فوق سطح الباخرهْ.

(يا صديقي، أيها الجيتار
خذني ..
للعيون العسليَّهْ)

* * *

كان جنديّاً،
ولكنَّ شظيّهْ
طحنتْ ركبته اليسرى
فأعطوهُ هديَّهْ:
رتبةً أُخرى
ورجلاً خشبيَّهْ!

(يا صديقي، أيها الجيتار

خذني ..

للبلاد النائمهْ)

* * *

عازف الجيتار يأتي

في الليالي القادمهْ

عندما ينصرف الناسُ إلى جمع تواقيع الجنود

عازف الجيتار يأتي

من مكان لا نراهُ

عندما يحتفلُ الناس بميلاد الشهود

عازف الجيتار يأتي

عارياً، أو بثياب داخليَّهْ.

عازف الجيتار يأتي

وأنا كدت أراه

وأشمُّ الدم في أوتارِهِ

وأنا كدت أراه

سائراً في كل شارعْ

كدت أن أسمعه

صارخاً ملءَ الزوابع
حدِّقوا:
تلك رِجْل خشبيَّهْ
واسمعوا:
تلك موسيقى اللحوم البشريَّهْ.

تقاسيم على الماء

وراء الخريف البعيدْ
ثلاثون عاماً
وصورةُ ريتا
وسنبلة أكملت عمرها
في البريد.
وراء الخريف البعيد

أحبكِ يوماً .. وأرحل
تطير العصافير باسمي
وتُقتلْ.
أُحبك يوماً

وأبكي
لأنك أجمل من وجه أمي
وأجملْ
من الكلمات التي شرَّدتني ...

على الماء وجهك،
ظلُّ المساءُ
يخاصمُ ظلّي
وتمنعني من محاذاة هذا المساء
نوافذُ أهلي.
متى يذبل الورد في الذاكره؟
متى يفرح الغرباء؟
لكي أصف اللحظة العائمة
على الماء ـ
أسطورة أو سماء..

.. وتحت السماء البعيده
نسيتك،
تنمو الزنابق

هناك .. بلا سببٍ
والبنادق
هناك .. بلا غضبٍ
والقصيدةْ
هناك .. بلا شاعر
والسماء البعيده
تحاذي سطوح المنازلْ
وقبّعة الشرطيّ
وتنسى جبيني ...

وتحت المساء الغريبْ
تعذّبنا الأرض،
جسمك يقتبس البرتقال
ويهربُ منّي.
أُحبُّك،
والأفق يأخذ شكل سؤال
أُحبُّك،
والبحر أزرقْ

أُحبُّك،
والعشب أخضرْ
أُحبُّك - زنبقْ
أُحبُّك - خنجر
أُحبك يوماً
وأعرف تاريخ موتي
أُحبُّك يوماً
بدون انتحار
وراء الخريف البعيد
أمشِّط شعرك.
أرسم خصرك ..
في الريح، نجماً .. وعيد..
أُحبُّك يوماً
أُحبُّك قرب الخريف البعيد
تمرُّ العصافير باسمي
طليقةْ
وباسمي - يمر النهار
حديقةْ.

وباسمك أحيا
أُحبُّكِ يوماً،
وأحيا ..
وراء الخريف البعيد.

قتلوك في الوادي

أُهديك ذاكرتي على مرأى من الزمنِ
أُهديك ذاكرتي
ماذا تقول النار في وطني
ماذ تقول النار؟
هل كنتِ عاشقتي
أم كنتِ عاصفةً على أوتار؟
وأنا غريب الدار في وطني
غريب الدار ..

أُهديك ذاكرتي على مرأى من الزمنِ
أُهديك ذاكرتي

ماذا يقولُ البرقُ للسكّينْ
ماذا يقول البرقْ
هل كنت في حطّين
رمزاً لموت الشرقْ
وأنا صلاح الدين
أم عبدُ الصليبيين؟

أُهديك ذاكرتي على مرأى من الزمنِ
أُهديك ذاكرتي
ماذا تقول الشمسُ في وطني
ماذا تقول الشمسُ؟
هل أنت ميّتة بلا كفن
وأنا بدون القدسْ؟

* * *

طلعتْ من الوادي
يُقال تضاءل الوادي وغابْ
وجمالها السرّي لفَّ سنابل القمح الصغيرةَ
حلّ أسئلة التراب.
هل تذكرون الصيف يا أبناء جيلي

يا كلّ أزهار الجليل
وكلّ أيتام الجليل
هل تذكرون الصيف يصعد من أناملها
ويفتح كلَّ بابْ.
قالت بنفسجة لجارتها
عطشتُ،
وكان عبد اللّه يسقيني
فمن أخذ الشباب من الشباب؟
طلعتْ من الوادي
وفي الوادي تموت ..
ونحن نكبر في السلاسلْ
طلعتْ من الوادي مفاجأة
وفي الوادي تموت على مراحل.
ونمرُّ عنها الآن جيلاً بعد جيل
ونبيع زيتون الجليل بلا مقابل
ونبيع أحجار الجليل
ونبيع تاريخ الجليل
ونبيعها.

كي نشتري في صدرها شكلاً
لمقتولٍ يقاتل.

* * *

لم أعترفْ بالحبِّ عن كَثَبِ
فليعترف موتي
وطفولتي ـ طروادة العربِ
تمضي .. ولا تأتي
كلُّ الخناجر فيك،
فارتفعي
يا خضرة الليمون
وتوهجي في الليل
واتسعي
لبكاء مَنْ يأْتون

الريحُ واقفةٌ على خنجرْ
ودماؤنا شَفَقُ
لا تحرقي منديلك الأخضر
الليل يحترقُ

طوبى لمن نامت على خشبةْ
مِلْءَ الردى .. حيَّه
طوبى لسيف يجعل الرقبةْ
أنهار حريَّه!

لم نعترف بالحبِّ عن كثَبِ
فليغضب الغضبُ
نمشي إلى طروادة العربِ
والبعد يقتربُ.

* * *

لا تذكرينا
حين نفلتُ من يديكِ
إلى المنافي الواسعةْ
إنّا تعلَّمنا اللغاتِ الشائعةْ
ومتاعبَ السَّفر الطويل
إلى خطوط الاستواءْ
والنومَ في كل القطارات البطيئة والسريعةْ
والحُبَّ في الميناء ..
والغزَلَ المعدّ لكل أنواع النساء

إنّا تعلَّمنا صداقة كل جرحِ
ومصارع العشاق
والشوق المعلّب
والحساء بدون ملحِ

* * *

ـ يا أيها البلدُ البعيدْ
هل ضاع حبّي في البريد؟
لا قُبلة المطاط تأتينا
ولا صدأ الحديد
كُلُّ البلاد بلادنا
ونصيبُنا منها .. بريدْ!

* * *

لا تذكرينا
حين نفلتُ من يديك
إلى السجون
إنّا تعلّمنا البكاء بلا دموع
وقراءةَ الأسوار والأسلاك والقمر الحزين
حرية ..

وحمامة ..

ورضا يسوع.

وكتابة الأسماء:

عائشة تودِّع زوجها

وتعيشُ عائشةٌ

تعيش روائح الدم والندى والياسمين

* * *

ـ يا أيها الوجه البعيدْ

قتلوك في الوادي،

وما قتلوك في قلبي

أريدكَ أن تعيد

تكوينَ تلقائيَّتي

يا أيّها الوجه البعيد!

* * *

ولتذكرينا ..

حين نبحث عنك تحت المجزرهْ

وليبقَ ساعدُكِ المطلُّ على هدير البحر

والدم في الحدائق

وعلى ولادتنا الجديدة ..
قنطرةْ!
ولتبقَ كلُّ زنابق الكفِّ النديَّةَ
في حديقتها
فإنّا قادمون
مَنْ يشتري للموت تذكرة سوانا
اليومَ .. مَنْ!
نحن اعتصرنا كلَّ غيم خرائط الدنيا
وأشعارَ الحنين إلى الوطنْ
لا ماؤها يروي
ولا أشواقُها تكوي
ولا تبني وطنْ.

ولتذكرينا ..
نحن نذكرك اخضراراً طالعاً من كل دم
طين .. ودم
شمس .. ودم
زهر .. ودم
ليل .. ودم

وسنشتهيك ـ
وأنت طالعة من الوادي
ونازلة إلى الوادي
غزالاً سابحاً في حقل دم
دم
دم
دم ..

* * *

يا قبلةً نامت على سكّينْ
تفَّاحةَ القُبَلِ
من يذكر الطعم الذي يبقى ـ
ولا تبقين ـ
كحديقة الأملِ!
ـ إنّا كبرنا أيها المسكين
قالت ليَ الدنيا
ـ وحبيبتي ؟
* لا يكبر الموتى
ـ وأقماري؟

* سقطتْ مع الدارِ
يا قبلةً نامت على سكّينْ
هل تذكرين فمي؟
إني أُحبُّكِ حين تحترقين
هل تحرقين دمي!
كالزنبق اللاذع
وأُحبُّ موتك حين يأخذني
إلى وطني
كالطائر الجائع
يا قبلةً نامت على سكّينْ ..
البرتقال يضيء غربتنا
البرتقال يضيءْ
والياسمين يثير عزلتنا
والياسمين بريءْ
يا قبلةً نامت على سكّين.
تستيقظين على حدود الغدْ
تستيقظين الآنْ
وتبعثرين الساحل الأسود

كالريح والنسيان
يا قبلةً نامت على سكّينْ

*

كَبُرَ الرحيلْ
كبر اصفرار الورد يا حبي القتيلْ
كبر التسكُّع في ضياء العالم المشغول عنّي
كبر المساء على شوارع كل منفى
كبر المساء على نوافذ كل سجن
وكبرت في كل الجهات
وكبرت في كل الفصول
وأراكِ
تبتعدين .. تبتعدين في الوادي البعيد
وتغادرين شفاهنا
وتغادرين جلودنا
وتغادرين ..
وأنتِ عيد.
وأراكِ
أشجارُ النخيلْ

سقطت.
وماذا قال عبد اللّه؟
ـ في الزمن البخيل
يتكاثر الأطفال والذكرى وأسماء الإله.
وأراكِ
كلُّ يد تصيح هناك آه
كنّا صغاراً
كانت الأشياء جاهزة
وكان الحبُّ لعبهْ.
وأراكِ
وجهي فيك يعرفني
ويعرف كلَّ حبَّهْ
من شاطىء الرمل الكبير
وأنت تبتعدين عني
والموت لُعْبَهْ ..
وأراكِ ..
أحنَتْ غابة الزيتون هامتها
لريحٍ عابرهْ

كل الجذور هنا
هنا
كل
الجذور
الصابرةْ
فلتحترق كل الرياح السود
في عينين معجزتين
يا حبّي الشجاع
لم يبق شيء للبكاء
إلى اللقاء
إلى اللقاء.
كبرت مراسيم الوداع
والموت مرحلة بدأناها
وضاع الموت
ضاع.
في ضجة الميلاد فامتدي
من الوادي إلى سبب الرحيل
جَسَداً على الأوتار يركض
كالغزال المستحيل ..

مـرة أخـرى

مَرَّةً أُخرى
ينام القَتَلَهْ
تحت جلدي
وتصير المشنقهْ
عَلَماً
أو سنبلهْ
في سماء الغابه المحترقهْ

حَذَف الظلُّ يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرهْ

مرةً أُخرى
يمرُّ العسكريّ
تحت جلدي.
مرة أُخرى
يُواري شفتيّ
في تجاعيد النشيد الوطني!

حذف الظلُّ يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرةْ.

مرَّةً أُخرى
يفر الشهداءْ
من أغاني الشعراءْ.
مرةً أخرى
نزلنا عن صليبَيْنا
فلم نعثر على أرض
ولم نبصر سماءْ

حذف الظلُّ يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرةْ

مرَّةً أُخرى
اتّحدنا
أنا والقاتل والموت المعاد
أصبحت حريَّتي عبئاً
على قلبي
وعيناها منافي وبلاد
مرة أخرى
يضيع الماء في الغيم
ونُدعى للجهاد!..

حذف الظلُّ يديها من جبيني
فاختبأنا في الظهيرهْ.

قتلوها في الظهيرهْ
بدلاً مني،
ولم يعتقلوني
مرةً أُخرى
لأنَّ القَتَلَهْ
تحت جلدي..

أغنية إلى الريح الشمالية

قُبَلٌ مجفَّفةٌ على المنديلِ
من دار بعيدهْ
ونوافذ في الريح،
تكتشف المدينة في قصيدهْ.
كان الحديث سُدى عن الماضي
وكسَّرني الرحيلْ
وتقاسمتني زرقةُ البحر البعيد.
وخُضرةُ الأرضِ البعيدهْ
أمّاه! وانتحرت بلا سببٍ
عصافير الجليل.
يا أيها القمر القريب من الطفولة والحدود
لا تسرق الحلم الجميل

من غرفة الطفل الوحيد
ولا تسجّل فوق أحذية الجنود
إسمي وتاريخي -
سألتك أيها القمر الجميل.
هربتْ حقولُ القمح من تاريخها
هرب النخيل
كان الحديث سُدى عن الماضي
وكان الأصدقاء
في مدخل البيت القديم يسجّلون
أسماءَ موتاهم
وينتظرون بوليساً
وطوق الياسمين..

* * *

قُبَلٌ مجفَّفةٌ على المنديل
من دار بعيدهْ.
ونوافذ في الريح تكسر جبهتي
قرب المساء.
كان البريد يعيد ذاكرتي من المنفى

ويعشني الشتاء
غصناً على أشجار موتانا
وكان الأصدقاء
في السجن ..
كانوا يشترون الضوء
والأمل المهرَّب
والسجائر
من كل سجّان وشاعر.
كانوا يبيعون العذاب لأي عصفور مهاجر
ما دام خلف السور حقلٌ من ذرهْ
وسنابل تنمو ..
بلادي خلف نافذة القطار
تفاحة مهجورة،
ويدان يابستان كالدفلى ..
كأسماء الشوارع ..
كالحصار.
بالقيد أحلم،
كي أُفسّر صرختي للعابرينْ

بالقيد أحلم،

كي أرى حريَّتي، وأعدُّ أعمار السنين

بالقيد أحلم،

كيف يدخل وجه يافا في حقيبهْ

بيني وبينك بُرْهَةٌ في زي مشنقةٍ

ولم أُشنق.. فعدت بلا جبين.

بيني وبين البرهة امتدَّت عصور

بالقيد أحلم،

كيف يدخل وجه يافا في حقيبهْ!.

* * *

قُبَلٌ مجفَّفة على المنديل

من دار بعيدهْ.

ونوافذ في الريح، يا ريح الشمالْ

ردّي إلى الأحباب قُبلتهم

ولا تأتي إليَّ!

من يشتري صدر المسيح

ويشتري جلد الغزال

ومعسكرات الاعتقال

ديكورَ أُغنيةِ عن الوطن المفتَّت في يديّ!.
كان الحديث سدى عن الماضي،
وكان الأصدقاء
يضعون تاريخ الولادة بين ألياف الشجر
ودَّعتُهم ..
فنسيت خاصرتي وحنجرتي وميعاد المطر
وتركتُ حول زنودهم قيدي
فصرت بدون زند، واختصمتُ مع الشجر
والأصدقاء هناك ينتظرون بوليساً
وطوق الياسمين
وأنا أحاول أن أكون
ولا أكون.

أغنيـات حب إلى أفريقيا

- ١ -

هل يأذن الحُرّاس لي بالانحناءْ
فوق القبور البيض يا أفريقيا؟
ألقتْ بنا ريح الشمال إليك
واختصر المساء
أسماءنا الأولى ..
وكُنّا عائدين من النهار
بكآبة التنقيب عن تاريخنا الآتي
وكنّا متعبين.
ضاع المغنّي والمحارب والطريق إلى النهار
ـ من أنت؟

* عصفور يجفِّفُ ريشه الدامي
- وكيف دخلتَ؟
* كان الأفق مفتوحاً
وكان الأوكسجين
ملءَ الفضاء
- وما تريد الآن؟
* ريشةَ كبرياء
وأُريد أن أرث الحشائش والغناء
فوق القبور البيض .. يا أفريقيا!

- ٢ -

هل يأذن الحراس لي بالاقتراب
من جُثَّة الأبنوس .. يا أفريقيا
ألقتْ بنا ريحُ الشمال إليك،
واختبأ السحاب
في صدرك العاري،
ولم تُعلن صواعقُنا حدودَ الاغترابْ
والشمسُ بالمجّان مثل الرمل والدم،
والطريق إلى النهار

يمحو ملامحنا، ويتركنا نعيد الانتظار
صَفّاً من الأشجار والموتى ..
نحبُّكِ ..
نشتهي الموت المؤقت
نشتهيه ويشتهينا.
نلتفُّ بالمدن البعيدة والبحار
لنفسّر الأمل المفاجىء
والرجوعَ إلى المرايا
ـ من أنتَ؟
* جنديٌّ يعود من التراب
بهزيمة أُخرى وصورة قائد
ـ ماذا تريد؟
* بيتاً لأمعائي وطفلاً من حديد
وأُريد صكَّ براءتي
وأُريد يا أفريقيا
ـ ماذا تريد؟
* أُريد أن أرث السحاب
من جُثَّة الأبنوس .. يا أفريقيا

ألقت بنا ريح الشمال إليك
يا أفريقيا
ألقتْ بنا ريح الشمال
لنكون عُشّاقاً وقتلى.
وبدون ذاكرة ذكرنا كل شيء عن ملامحنا
ووجهُك فوق خارطة الظلال
مرَّ المغنّي تحت نافذةٍ
وخبّأ صوته في راحتيه
سرّاً يحبُّك، أو علانيةً يمرّ
وينحني كالقوس. يا أفريقيا
وحشيَّتان
عيناك - يا أفريقيا - وحزينتان
عيناك كالحبِّ المفاجىء
كالبراءة حين تُفترعُ البراءة.
مرَّ المغني تحت نافذة
وأعلن يأسه
- من أنت؟
* عاشق

ـ من أين جئت؟

* أنا من سلالات الزنابق والمشانق

والريح تحبل .. ثم تُنجبني

وترميني على كل الجهات

ـ ماذا تريد؟

* أريد ميلاداً جديد

وأريد نافذة جديدهْ

لأحبَّها سرّاً وتقتلني علانيةً

وأرحل عنك .. يا أفريقيا!

المدينة المحتلة

الطفلة احترقتْ أُمُّها
أمامها ..
احترقتْ كالمساءْ.
وعلَّموها: يصير اسمُها -
في السَّنةِ القادمهْ -
سيِّدَة الشهداءْ
وسوف تأتي إليها
إذا وافق الأنبياء!

الطفلةُ احترقتْ أُمها
أمامها ..

احترقت كالمساء.

من يومها،

لا تحبُّ القمر

ولا الدُّمى

كُلَّما

جاء المسا، صرخت كُلُّها:

أنا قتلتُ القمر

لأنه قال لي: .... قال .. قال:

أُمّكِ لا تشبه البرتقال

ولا جذوع الشجر

أُمّكِ في القبر

لا في السماء.

الطفلةُ احترقتْ أُمها

أمامها ..

احترقت كالمساء ..

عابر سبيل

بلادي بعيدهْ
تبخَّر مني ثراها
إلى داخلي ..
لا أراها.
وأنت بعيدهْ
أراك
كومضة ورد مفاجىء
وفي جسدي رغبةٌ في الغناء
لكلِّ الموانىء.
.. وإني أُحبُّكِ
لكنني
لا أُحبُّ الأغاني السريعهْ

ولا القُبَلَ الخاطفهْ
وأنت تحبّينها
كبحّارة يائسين ..

أرى عبر زنبقة المائدهْ
وعبر أناملك الشاردهْ
أرى البرق يخطف وجهي القديم
إلى شرفة ضائعهْ
وأنت تحبّينني -
قلت -
من أجل هذا المساء.

لنرقصْ إذن،
أنا الماء والظلّ
والظل والماء لا يعرفان الخيانهْ
ولا الانكسارْ
ولا يذكران
ولا ينسيان
ولكن .. لماذا؟

لماذا توقفتِ الأسطوانةْ؟
ومن خَدَشَ الأسطوانةْ
لماذا تدور على نفسها:
بلادي بعيدةْ
بلادي
بلادي
بلادي

خطوات في الليل

دائماً،

نسمعُ في الليل خطى مقتربهْ

ويفرُّ البابُ من غرفتنا

دائماً،

كالسُحُب المغتربهْ!

ظلُّكِ الأزرقُ مَن يسحبُهُ

من سريري كُلَّ ليلهْ؟

الخطى تأتي، وعيناك بلاد

وذراعاك حصارٌ حول جسمي

والخطى تأتي

لماذا يهرب الظل الذي يرسمني
يا شهرزاد؟
والخطى تأتي ولا تدخلُ
كوني شجرا
لأرى ظلَّك
كوني قمرا
لأرى ظلك
كوني خنجرا
لأرى ظلك في ظلّيَ
ورداً في رماد! ..

دائماً،
أسمعُ في الليل خُطىً مقتربهْ
وتصيرين منافيَّ
تصيرين سجوني ..
حاولي أن تقتليني
دفعةً واحدة
لا تقتليني
بالخطى المقتربهْ!

سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا

يجيئون،
أبوابُنا البحرُ، فاجأنا مطرٌ. لا إله سوى اللّه. فاجأنا
مطرٌ ورصاصٌ. هنا الأرضُ سَجّادةٌ، والحقائب
غربهْ!
يجيئون،
فلتترجَّلْ كواكبُ تأتي بلا موعد. والظهورُ التي
استندتْ للخناجر مضطرة للسقوط.
وماذا حدث؟
أنت لا تعرف اليوم. لا لون. لا صوت. لا طعم.
لا شكل.. يُولد سرحان، يكبر سرحان،
يشرب خمراً ويسكرُ. يرسمُ قاتله، ويمزّق

صورته. ثم يقتله حين يأخذ شكلاً أخيراً.
ويرتاح سرحان.
سرحان! هل أنتَ قاتل؟
ويكتب سرحان شيئاً على كُمِّ معطفه، ثمَّ تهرب
ذاكرةٌ من ملفِّ الجريمة.. تهرب.. تأخذ
منقار طائر.
وتأكل حبة قمح بمرج بن عامر
وسرحانُ مُتَّهم بالسكوت، وسرحان قاتل

* * *

وما كان حُبّاً
يدان تقولانِ شيئاً، وتنطفئان
قيودٌ تلد
سجون تلد
منافٍ تلد.
ونَلتفُّ باسمكِ،
ما كان حُبّاً
يدان تقولان شيئاً .. وتنطفئان ..
ونعرف، كُنّا شعوباً، وصرنا حجارهْ

ونعرف، كنتِ بلاداً وصرتِ دخان
ونعرف أشياء أكثر
نعرف، لكنَّ كل القيود القديمه
تصير أساور ورد
تصير بكارهْ
في المنافي الجديده.
ونلتفُّ باسمك
ما كان حُبّاً
يدان تقولان شيئاً وتنطفئان.
وسرحان يكذب حين يقول رضعتُ حليبك، سرحان
من نسل تذكرة، وتربّى بمطبخ باخرة لم تلامس
مياهكِ. ما اسمك؟
- نسيت.
وما اسم أبيك؟

- نسيت.
وأُمك
- نسيت.
وهل نمتَ ليلةَ أمس؟

ـ لقد نمتُ دهراً.

حلمت؟

ـ كثيراً.

بماذا؟

ـ بأشياء لم أرها في حياتي

وصاح بهم فجأة:

ـ لماذا أكلتم خضاراً مُهرّبة من حقول أريحا؟

ـ لماذا شربتم زيوتاً مهرَّبة من جراح المسيح؟

وسرحانُ مُتَّهم بالشذوذ عن القاعدهْ.

* * *

رأينا أصابعه تستغيث. وكان يقيس السماء بأغلاله.

زرقةُ البحر يزجرها الشرطيُّ، يعاونه خادم آسيويّ.

بلاد تغيَّر سكانها، والنجوم حصى.

وكان يغنّي: مضى جيلنا وانقضى.

مضى جيلنا وانقضى.

وتناسل فينا الغُزاةُ تكاثر فينا الطغاة. دم كالمياه،

وليس تجفّفه غير سورة عم وقبعةِ الشرطيّ

وخادمهِ الأسيوي. وكان يقيس الزمان بأغلاله.

سألناه: سرحان عمَّ تساءلت؟
قال: اذهبوا. فذهبنا
إلى الأمهات اللواتي تزوَّجن أعداءنا.
وكنَّ ينادين شيئاً شبيهاً بأسمائنا.
فيأتي الصدى حَرَساً.
ينادين قمحاً
فيأتي الصدى حَرَساً.
ينادين عدلاً
فيأتي الصدى حَرَساً.
ينادين يافا
فيأتي الصدى حرساً.
ومن يومها، كفَّتِ الأمهات عن الصلوات، وصرنا
نقيس السماء بأغلالنا
وسرحان يضحك في مطبخ الباخرهْ.
يعانق سائحةً، والطريقُ بعيدٌ عن القدس والناصرهْ
وسرحان مُتَّهم بالضياع وبالعدميَّه

* * *

وكلُّ البلاد بعيدهْ.

شوارعُ أخرى اختفت من مدينته (أخبرتهُ الأغاني
وعزلُته ليلة العيد أن له غرفةً في مكان).
ورائحةُ البنِّ جغرافيا.
وما شرَّدوك.. وما قتلوك.
أبوك احتمى بالنصوص، وجاء اللصوص.
ولستَ شريداً.. ولستَ شهيداً.. وأُمك باعت
ضفائرها للسنابل والأمنيات: وفوق سواعدنا
فارسٌ لا يسلِّم (وشم عميق). وفوق أصابعنا
كرمةٌ لا تهاجر (وشم عميق).
خُطى الشهداء تُبيدُ الغزاة
(نشيد قديم)
ونافذتان على البحر يا وطني تحذفان المنافي.. وأرجع
(حلم قديم - جديد)
شوارع أخرى اختفت من مدينته (أخبرته الأغاني
وعزلتُه ليلة العيد أن له غرفةً في مكان).
ورائحةُ البُنِّ جغرافيا.
ورائحة البنّ يدْ
ورائحة البن صوت ينادي .. ويأخذ..

رائحة البن صوت ومئذنة (ذات يوم تعود).
ورائحة البن ناي تزغرد فيه مياه المزاريب. ينكمش
الماء يوماً ويبقى الصدى.
وسرحان يحمل أرصفةً ونواديْ ومكتبَ حجز التذاكر.
سرحان يعرف أكثر من لغة وفتاة. ويحمل تأشيرة
لدخول المحيط وتأشيرة للخروج. ولكنَّ سرحانَ
قطرةُ دم تفتش عن جبهة نزفتها.. وسرحان
قطرة دم تفتِّش عن جثة نسيتها.. وأين؟
ولست شريداً.. ولست شهيداً.
ورائحة البن جغرافيا.
وسرحان يشرب قهوته ..
ويضيع.

* * *

هنا القدس.
يا امرأة من حليب البلابل، كيف أُعانق ظلّي..
وأبقى؟
خُلقتَ هنا. وتنامُ هناك.
مدينته لا تنام. وأسماؤها لا تدوم. بيوت تغيَّر

سكانها. والنجوم حصى.
وخمسُ نوافذ أخرى، وعشر نوافذ أخرى تغادر
حائط
وتسكن ذاكرة .. والسفينةُ تمضي.
وسرحان يرسم شكلاً ويحذفه: طائرات وربٌّ قديم
ونابالم يحرق وجهاً ونافذة.. ويؤلف دولهْ.
هنا القدس.
يا امرأة من حليب البلابل، كيف أعانق ظلّي..
وأبقى؟
ولا ظلّ للغرباء.
مساءٌ يرافقهم، والمساء بعيد عن الأمهات قريب من
الذكريات. وسرحان لا يقرأ الصحف العربية..
لا يعرف المهرجانات والتوصيات. فكيف إذن
جاءه الحزن .. كيف تقيأ؟
وما القدس والمدن الضائعهْ
سوى ناقة تمتطيها البداوة
إلى السلطة الجائعهْ.
وما القدس والمدن الضائعهْ

سوى منبر للخطابهْ.
ومستودعٍ للكآبهْ.
وما القدس إلّا زجاجة خمر وصندوق تبغ...
... ولكنها وطني.
من الصعب أن تعزلوا
عصير الفواكه عن كريات دمي..
ولكنها وطني
من الصعب أن تجدوا فارقاً واحداً
بين حقل الذرهْ
وبين تجاعيد كفّي
ولكنها وطني ..
لا فوارق بين المساء الذي يسكن الذاكرهْ
وبين المساء الذي يسكن الكرملا
ولكنها وطني
في الحقيقة والدم متَّسع للجميع.
وخط الطباشير لا يكسر المطر المقبلا
هنا القدس..
كيف تعانق حريتي ـ في الأغاني ـ عبوديتي؟

وسرحان يرسم صدراً ويسكنه
وسرحان يبكي بلا ثمن ووسام
ويشرب قهوته .. ويضيع

* * *

يُمَزِّقُ غيماً، ويرسله في اتجاه الرياح. وماذا؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة. لا بُدَّ من تربة صالحه.
أَتذهب صيحاتُنا عبثاً؟
أكلتَ.. شربتَ.. ونمتَ. حلمت كثيراً. أفقتْ
تعلمت تصريف فعل جديد. هل الفعل معنى بآنية
الصوت.. أم حركه؟
وتكتب ض. ظ. ق. ص. ع. وتهرب منها، لأن
هدير المحيطات فيها ولا شيء فيها. ضجيج الفراغ
حروف تميزنا عن سوانا ـ طلعنا عليهم طلوع
المنون ـ فكانوا هباء وكانوا سدىً. سدىً نحن.
هم يحرثون طفولتنا ويصكون أسلحةً من أساطيرَ
أعلامهم لا تغني. وأعلامنا تجهضُ الرعد. نقصفهم بالحروف
السمينة: ض. ظ. ص. ق. ع. ثم نقول انتصرنا. وما
الأرض؟ ما قيمة الأرض؟ أتربة ووحول. نقاتل أو لا نقاتل؟

ليس مهماً سؤالكَ ما دامت الثورةُ العربيةُ محفوظةً في الأناشيد
والعيد والبنك والبرلمان.
وتعرف أن الغزاة عِصِيٌّ بأيدي المماليك. تكتب
ض. ظ. ق. ص. ع.
تمزق غيماً وترسله في اتجاه الرياح. وماذا؟ هنالك
غيم شديد الخصوبة. لا بد من تربة صالحه.
وتمضي السفينة. تبقى غريباً. جراحك مطبعة للبلاغات
والتوصيات. وباسمك تنتصر الأبجديةُ، باسمك
يجلس عيسى إلى مكتب ويوقع صفقة خمر وأقمشة
ويحيي العساكر باسمك. باسمك تُحفظ في خيمة
وتُعلَّب في خيمة. لا هوية إلّا الخيام. إذا
احترقت .. ضاع منك الوطن.
وباسمك تأتي وتذهب. باسمك حِطّينُ تصبح مزرعةً
للحشيش، وثوّارك السابقون سعاةَ بريدٍ. وباسمك
لا شيء. يأتي القضاة، يقولون للطين كن جبلاً
شامخاً فيكون. يقولون للترعة انتفخي أنهراً فتكون
وتكتب ض. ظ. ص. ع. ق.
تُمزِّق غيماً وترسله في اتجاه الرياح. وماذا؟

هنالك غيم شديد الخصوبة. لا بدّ من تربة صالحه
أتذهب صيحاتنا عبثاً؟
وليست خيامك ورد الرياح. وليست مظلات شاطىء.
تَدجَّجْ بأعمدة الخيمة. احترقي يا هويَّتنا ـ صاح لاجىء.
وسرحان يشرب قهوته. للجليل مزايا كثيرة.
ويحلم، يحلم، يحلم .. آه ـ الجليل!

* * *

ومَن كفَّ يوماً عن الاحتراق
أعارَ أصابعه للضماد
وصرَّح للصحفيِّ وللعدسات:
جريحٌ أنا يا رفاق
ونال وساماً.. وعاد.
وسرحانُ،
ما قال جرحيَ قنديلُ زيتٍ وما قال..
صدريَ شبّاكُ بيتٍ وما قال ..
جلديَ سجّادةٌ للوطن.
وما قال شيئاً.
أتذهب صيحاتُنا عبثاً؟

كلَّ يوم نموت، وتحترق الخطوات وتولد عنقاء
ناقصة، ثم نحيا لنُقتل ثانيةً.
يا بلادي، نجيئك أسرى وقتلى.
وسرحان كان أسير الحروب، وكان أسير السلام.
على حائط السَّبْي يقرأ أنباء ثورته خلف ساق مغنِّيةٍ
والحياةُ طبيعيَّة، والخضار مهرَّبة من جباه العبيد
إلى الخطباء. وما الفرق بين الحجارة والشهداء؟
وسرحان كان طعام الحروب، وكان طعام السلام.
على حائط السَّبي تعرض جثَّته للمزاد. وفي المهجر
العربي يقولون: ما الفرق بين الغزاة وبين الطغاة؟
وسرحان كان قتيل الحروب، وكان قتيل السلام.
على حائط السَّبي يصطدم العلم الوطني بأحذية الحرس
الملكي. وحربك حربان. حربك حربان.
سرحان! لا شيء يبقى، ولا شيء يمضي. اغتربتَ..
لجأتَ.. عرفت. ولست شريداً ولست شهيداً
خيامك طارت شراره.
وفي الريح متَّسعٌ
هل قَتَلت؟

ويسكت سرحان. يشرب قهوته ويضيع. ويرسم
خارطة لا حدود لها. ويقيس الحقول بأغلاله
ـ هل قتلت؟
وسرحان لا يتكلم. يرسم صورةَ قاتله من جديد،
يمزِّقها، ثم يقتلها حين تأخذ شكلاً أخيراً..
ـ قتلت؟
ويكتب سرحان شيئاً على كُمٍّ معطفه، ثم تهرب
ذاكرة من ملفِّ الجريمة.. تهرب.. تأخذ منقار
طائر.
وتزرع قطرة دم بمرج بن عامر.

محاولة رقم ٧
١٩٧٣

كأني أحبك

لماذا نحاول هذا السفرْ
وقد جرَّدتني من البحر عيناكِ
واشتعل الرمل فينا ...
لماذا نحاول؟
والكلمات التي لم نقلها
تُشرِّدنا.
وكل البلاد مرايا
وكل المرايا حجرْ
لماذا نحاول هذا السفرْ؟
هنا قتلوكِ
هنا قتلوني.
هنا كنتِ شاهدةَ النهر والملحمهْ

ولا يسأم النهرُ
لا يتكلَّمُ
لا يتألَّمُ
في كلِّ يوم لنا جُثَّةٌ
وفي كُلِّ يوم لهم أوسمهْ
هنا وقف النهر ما بيننا
حارساً
يجعل الضفتينْ
توأمين
بعيدين، كالقُرب، عنّا
قريبين، كالبُعد، منّا
ولا بُدَّ من حارسٍ
آهِ، لا بُدَّ من حارس بيننا.
كأنَّ المياهَ التي تفصل الضفتين
دمُ الجسدينْ
وكنّا هنا ضفتين
وكنّا هنا جسدين
وكلّ البلاد مرايا
وكلّ المرايا حجرْ

لماذا نحاول هذا السفرْ؟

كأنَّ الجبال اختفتْ كُلُّها
وكأنّي أحبّكِ
كان المطارُ الفرنسيُّ مزدحماً
بالبضائع والناسِ.
كُلُّ البضائع شرعيّة
ما عدا جسدي
آه .. يا خلف عينيك.. يا بلدي
كنتُ ملتحماً
بالوراء الذي يتقدّمُ
ضيَّعتُ سيفي الدمشقيَّ مُتّهماً
بالدفاع عن الطينِ
ليس لسيفيَ رأيٌ بأصلِ الخلافةِ
فاتهموني ...
علَّقوني على البُرجِ
وانصرفوا
لترميم قصر الضيافة..
كأنّي أُحبُّكِ حقاً

فأغمدتُ ريحاً بخاصرتي
كنتِ أنت الرياحَ وكنتِ الجناح
وفتشتُ عنك السماء البعيدةْ
وقد كنتُ أستأجر الحُلْمَ
ـ للحلم شكلٌ يُقلِّدها ـ
وكنتُ أُغنّي سدى
لحصان على شجرْ
وفي آخر الأرضِ أرجَعَني البحرُ
كُلّ البلاد مرايا
وكل المرايا حجرْ
لماذا نحاول هذا السفرْ؟

تكونين أقربَ من شفتيّ
وأبعدَ من قُبلة لا تصلْ
كأنّي أحبُك
كان الرحيلُ يطاردني في شوارع جسمكْ
وكان الرحيل يحاصرني في أزقَّة جسمكْ
فأتركُ صمتي على شفتيك
وأترك صوتي على درج المشنقةْ

كأنّي أحبُّكِ
كان الرحيلُ يخبِّئني في جزائر جسمكْ
ـ واسعٌ ضيقُ هذا المدى ـ
والرحيل يخبِّئني في فم الزنبقهْ.
أعيدي صياغةَ وقتي
لأعرف أين أموت سدى
ـ مَرَّ يومٌ بلا شهداءْ ـ
أعيدي صياغة صوتي
فإنَّ المغنّي الذي ترسم الفتياتُ له صورةً
صادروا صوته
ـ مَرَّ يومٌ بلا شعراءْ ـ
وبين الفراغين أمشي إليكِ وفيكِ
وأولدُ من نطفةٍ لا أراها
وألعبُ في جُثَّتي والقمرْ
لماذا نحاول هذا السفرْ؟
وكل البلاد مرايا
وكل المرايا حجرْ
لماذا نحاول هذا السفرْ؟

النزول من الكرمل

ليومٍ يُجَدِّدُ لي موعدي، قلتُ للكرمل: الآن أمضي.
وينتشرُ البحر بين السماء ومدخلِ جرحي
وأذهبُ في أُفُقٍ ينحني فوقنا، ويُصلّي
لنا، أو يُكَسِّرُنا. هذه الأرض تشبهنا
حين نأتي إليها. وتشبهنا حين نذهب عنها.
تركتُ ورائي ملامحها، واسمُها كان يمشي أمامي
يُسمّي ملامحَها وانفجاري. تركتُ سرير الولادهْ
تركتُ ضريحاً مُعدّاً لأيِّ كلام..
تركتُ التي أوجَعَتْهَا ذراعي. تركت التي أوجعتني يداها.
تُفتِّشُ عن عاشقٍ بعد خمس دقائق من هجرتي.

ليومٍ يُجَدِّدُ لي موعدي، قلتُ للكرمل: الآن أمضي.
تمرُّ الرصاصةُ فوق جبيني، وتجمعني مثلما تجمع القبلةُ
الشفتينْ
وتولدُ رمّانةٌ في الصخور التي دجّنتْني، وتجعلني عاشقين
بعيداً .. بعيداً.
وينتشر البحر بين السماء ومدخل جرحي

تخيَّلتُ أنكَ مُتَّكئي
وسئمتُ العلاقة بين المسامير والخشبَهْ
وحين ترجَّلتُ عن قمَّة الرمح والجرح أمسكتُ شيئاً
فَكَانَ حذاءَ الحرسْ
يكمِّلني هابطاً هابطاً ..

منذ ذاك النهار المبكِّر أبحث عن موطئ القدمين
وأتبعُ نهراً، ولا أتبع الموجَ
هل أستردُّ زفيري!.

يُقاسمُني عسكريٌّ جراحي
ويحرسها كي ينال وساماً
ويمنعني من مواصلة الموتِ، يأخذ نصف جراحي

ويترُكُ نصفاً لأمن الأمـمْ.

يهزُّ أصابع كفّي

فتسقط ذكرى،

رصاصٌ قديم،

صنوبرةٌ،

ثمر فاسدٌ،

تهمةٌ،

أسئلهْ

يُفتّشُ كفّيَ ثانيةً، فيصادر حيفا التي هرّبتْ سُنْبلهْ

ويا أيّها الكرملُ،

الآنَ تقرع أجراس كل الكنائسْ

وتعلن أنّ مماتي المؤقّت لا ينتهي دائماً، أو ينتهي مَرَّةً.

أيها الكرمل، الآن تأتي إليك العصافيرُ من ورق

كنتَ لا فرق بين الحصى والعصافيرِ،

والآن بَعْثُ المسيح يُؤجّل ثانيةً

أيها الكرمل، الآن تبدأ عطلةُ كل المدارس

وتُنشدني الآن فيروز

والآن نأخذ أنبوبةً من حبوبٍ تُسيل الدموع،

فنبكي على جبل طائرٍ
أيها الكرمل، الآن يجعلني ضابط آخرٌ عرضة للخلود!

بَعُدنا عن الشجرِ. البحرُ فاصلةٌ بيننا
وها نحن بين الطهارة والإثم شيئان يلتحمان وينفصلان
كأنَّ الأحبَّة دائرةٌ من طباشيرَ
قابلةٌ للفناء وقابلة للبقاء.
وها نحن نحمل ميلادنا مثلما تحمل المرأَةُ العاقرُ الحُلُما
وها أنتَ مئذنة الله حيناً
وقُبَّعة لجنود المظلّات حيناً
وها أنتَ يا كرملي كلَّما
جرَّدتني الحروبُ من الأرض أعطيتَني حُلُما.
وها أنا أعلن أنّ الزمان تغيَّرَ:
كانت صنوبرةٌ تجعل الله أقربْ
وكانت صنوبرة تجعل الجرح كوكبْ
وكانت صنوبرة تُنجب الأنبياءْ
وتجعلني خادماً فيهمْ
أيها الكرمل المتشعِّب في كل جسمي
لماذا تحمّلني كل هذي المسافاتِ

والبحرُ فاصلةٌ بيننا؟

أوقَفَتْني فتاةٌ معبَّأة بالدوالي
وكانت تغنّي على طُرُق الشامِ:
يا ليت دالية واحدة
لم تسافر معي.. فأعود إليها
قبّلتني فتاةٌ لأني لفظت اسم كرملها في مُكَبِّر صوت،
فجاءت إلى فندقي لتقول «أحبُّك»، والتجأتْ
لاسمه في ذراعي.
ـ وماذا يقول الجبلْ؟
* بكى قصبٌ في الغدير
وكان الغدير مرايا
فلم ينطق الجبلُ
ـ وهل رحلوا؟
* تصبَّبَتِ الريحُ من جبهتي
فمسحتُ الرياحَ كما تمسحين العرقْ...
تذكّرتُ أني نهضت صباحاً
وكانت شهادةُ ميلاد أمّيَ قابلة للنقاش
وكانت أناشيد أهلي العربْ

تُرَتِّبُ أمتعة اللاجئين،
وتبني جسور العبور،
وصارت فلسطين أقربْ،
فاختلف اللاجئون على موسم القمح والبرتقال.

أوقفتني فتاةٌ معبَّأةٌ بالدوالي
وكانت تغنّي على طُرُق الشامِ:
يا ليت دالية واحدة
لم تسافر معي.. فأعود إليها
وسافرتُ ـ
يا أيها الكرملُ، البحرُ، والعشبُ، والنارُ
يا صخرة الفرح العائمةْ
وصمَّمتُ جلدي قميصاً لأخفيَ آثار طعنتك النادمةْ
فأنكرَني العسكريُّ
وكنتُ على باب أمي هناك أنادي دمشقْ
فتسمع نبض دمي في حفيف صنوبركَ المبتعدْ
وتغسلني دجلةُ الخير حين أموت من الوجد شوقاً إلى
أرض بابل
وها أنذا الآن

حين دخلتُ إلى الجامع الأمويِّ تساءل أهل دمشق:
مَنِ العاشقُ المغتربْ؟
وكانت مياه الفرات ونافورة النيل تحذف آثار زنزانتي
عن ضلوعي
وحين وقفتُ على النيل يوماً، وشاطىء دجلة يوماً
تساءل كل الذين رأوا دهشتي
مَن السائحُ المغتربْ؟!

تركتُ الحبيبة ـ لم أنسها ـ في غروب الشجرْ
تطرِّز من زَبَد البحر منديلها وضمادي
توهَّمتُ أنَّ السموات أبعدُ من يدها عن جبيني
وأوهمتُها أن قلبي يصلْ
وأنّ يدي تنتقلْ
إلى جُثّة ضائعهْ
تركتُ الحبيبة ـ لم أنسها ـ عند سفح الجبل
تعيرُ العصافيرَ ألوانها
وكانت يداها ينابيعَ من كلِّ لونٍ وما اشتُقَّ منه
ولكنني كنتُ أشعر أن الينابيع كانت معرَّضة للجفاف
وأَنَّ فمي ينتقل

إلى لُغَة ثانية
تركتُ الحبيبة لم أنسها
تركت الحبيبة
تركت ...

أحبُّ البلاد التي سأحبْ
أحب النساء اللواتي أحبْ
ولكن غصناً من السرو في الكرمل الملتهبْ
يُعادل كل خصور النساء
وكلَّ العواصم

أحبُّ البحار التي سأحبُّ
أحبُّ الحقول التي سأحبُّ
ولكنَّ قطرةَ ماءٍ على ريشِ قُبَّرةٍ في حجارة حيفا
تعادل كل البحار
وتغسلني من ذنوبي التي سوف أرتكبُ

أدْخِلُوني إلى الجنَّة الضائعة
سأطلق صرخةَ ناظم حكمت:
آه ... يا وطني! ...

الخروج من ساحل المتوسط

- ١ -

سيلٌ من الأشجار في صدري
أتيتُ ... أتيتُ
سيروا في شوارع ساعدي تَصِلوا.

وغزّةُ لا تصلّي حين تشتعلُ الجراح على مآذنها،
وينتقل الصباح إلى موانئها، ويكتمل الردى فيها.

أتيتُ ... أتيتُ
قلبي صالحٌ للشربِ
سيروا في شوارع ساعدي تَصِلوا

وغزّةُ لا تبيع البرتقال لأنه دمُها المعلَّبُ
كنتُ أهرب من أزقّتها،
وأكتبُ باسمها موْتي على جميزة،
فتصيرُ سيِّدةً وتحمل بي فتىً حراً.
فسبحان التي أسْرَتْ بأوردتي إلى يدها!

أتيتُ ... أتيتُ
غزَّةُ لا تصلّي.
لم أجد أحداً على جرحي سوى فمها الصغير.
وساحلُ المتوسط اخترق الأبد..

ـ ٢ ـ

لا توقفوني عن نزيفي!
ساعةُ الميلاد قَلّدَتِ الزَّمانَ، وحاوَلَتْني
كنتُ صعباً ـ حاولتني
كنتُ شعباً ـ حاولتني مرة أخرى..
أرى صفّاً من الشهداء يندفعون نحوي، ثم يختبئون في صدري ويحترقون.

ما فَتَكَ الزمانُ بهم، فليس لجثّتي حدٌّ. ولكني
أحسُّ كأن كلَّ معارك العرب انتهتْ في جثتي،

وأَودُّ لو تتمزق الأيام في لحمي ويهجرني الزمان،
فيهدأ الشهداءُ في صدري ويتفقون.
ما ضاق المكانُ بهم، فليس لجثتي حدّ، ولكنّ
الخلافة حصَّنَتْ سور المدينة بالهزيمة، والهزيمةُ
جدَّدتْ عمر الخلافة.
لا توقفوني عن نزيفي
ساعةُ الميلاد قلّدت الزمان وحاولتني
كنتُ صعباً ـ حاولتني مرة أخرى
أرى صفّاً من الشهداء يندفعون نحوي
لا أحدْ!

ـ ٣ ـ

وتقاسمتْني هذه الأممُ القريبةُ والبعيدةُ.
كلٌّ قاضٍ كان جزّاراً
تدرَّج في النبوءة والخطيئةِ
واختلفنا حين صار الكل في جزءٍ،
وصار الجرحُ وردتَنا جميعاً
وابتعدنا ...
إذهبْ إلى الموت الجميلِ ـ
ذهبتُ.

وحدي كنتُ
قلتم: نحن ننتظر الجنازة بالأكاليل الكبيرة والطبولِ،
ونلتقي في القدسِ ...
ليتَ القدس أبعدُ من توابيتي لأتَّهم الشهودَ
وما عليك! ذهبت للموت الجميل
ومدينةُ البترول تحجز مقعداً في جنة الرحمن ـ قلتم لي
وطوبى للمُموّل والمؤذّن... والشهيد!

ـ ٤ ـ

تَعِبَ الرثاءُ من الضحايا
والضحايا جَمَّدتْ أحزانها
أوّاه! مَنْ يرثي المراثي؟
لستُ أدري أيُّ قافية تحنّطني، فأصبح صورة في معرض
الكتب القريب.
ولستُ أدري أيُّ إحصائيَّة ستضمُّني ...
يا أيها الشعراء ... لا تتكاثروا!
ليست جراحي دفتراً.
يا أيها الزعماء ... لا تتكاثروا!
ليست عظامي منبراً.

فدعوا دمي ـ حبرَ التفاهم بين أشياء الطبيعة والإله
ودعوا دمي ـ لغة التخاطب بين أسوار المدينة والغزاة.
دمي بريدُ الأنبياء.

ـ ٥ ـ

وأعود من تلقاء نفسي ...
ليت شُبّاكي بعيد كي أرى أمي
وليت القيد أقرب كي أحسَّ النبض في زندي
وليت البحر أبعد كي أخاف من الصحاري
آه، ليت الشيء عكس الشيء كي تتآكل الأشياء في
نفسي، وتأخذَ صيغة الفرح الحقيقيّ.
ابتعدنا واقتربنا وابتعدنا
يا أهالي الكهف قوموا واصلبوني من جديد
إنني آتٍ من الموت الذي يأتي غداً
آتٍ من الشجر البعيدِ
وذاهبٌ في حاضري ـ غدِكم.
أنا قشَّرتُ موجَ البحر زنبقةً لغزّة..

ـ ٦ ـ

سيلٌ من الأشجارِ يخرج من ضلوع الصخر ـ يصقلني

الفناءُ
وجدولٌ يمتد من صدري عمودياً ـ وتنحدر السماءُ
رأيتُ رأي القلب ـ ذوَّبني الضياءُ
فصرت صوتاً، والحصى صار الصدى
وتنفَّس القبرُ القديمُ ...
تحرَّك الحجرُ.. استردَّ دبيبَهُ منكم
أنا الأحياء والمدن القديمةُ
حاولوا أن تخلعوا أسماءكم تجدوا يديّ.
وحاولوا أن تنزعوا أثوابكم تجدوا دمي،
أو حاولوا أن تحرقوا هذي الخرائطَ تبصروا جسدي ـ
أنا الأحياء والوطن الذي كتبوهُ في تاريخكم ..
من جثتي بدأ الغزاةُ، الأنبياءُ، اللاجئون ـ
والآن يختتمون سيرتهم لأبدأ من جديد.

ـ ٧ ـ

تتحرَّك الأحجارُ.
هذا ساعدي متمايل كالرعب
ليس الربُّ من سكّان هذا القفرِ
هذا ساعدي.

تتحرَّكُ الأَحجارُ،
ما سرقوا عصا موسى.
وإنَّ البحر أبعدُ من يدي عنكم
إذن، تتحرَّك الأُحجارُ
إن طلعوا وإن ركعوا، وإن مرّوا وإن فرّوا ـ

أنا الحجرُ
أنا الحجرُ الذي مسَّتْهُ زَلزلةٌ
رأيتُ الأنبياء يؤجِّرون صليبهم
واسْتَأْجَرَتْني آيةُ الكرسيِّ دهراً، ثم صرت بطاقةً للتهنئات
تغيَّر الشهداءُ والدنيا
وهذا ساعدي.
تتحرك الأحجارُ
فالتقّوا على أسطورةٍ
لن تفهموني دون معجزةٍ
لأن لغاتِكم مفهومَةٌ.
إن الوضوح جريمَةٌ.
وغموض موتاكم هو الحقُّ ـ الحقيقةُ.
آه، لا تتحرك الأحجار إلّا حين لا يتحرك الأحياء

فالتفّوا على أسطورتي!

- ٨ -

لن تفهموني
تخرج العذراءُ من ضلعي
تكون مشيئتي
وأصابُ بالأمطار والبرق الذي أدمنتهُ
لن تفهموني
ناهضاً من قبركم
والأرضُ للشهداءِ -
أنهيتُ المغامرة الأخيرة وابتدأتُ:
هنا الخروج. هنا الدخولُ
هنا الذهاب. هنا الإِيابُ
ولا مكان هنا
أنا الزمن الذي لن تفهموني خارج الزمن الذي ألقى
بكم في الكهفِ -
هذي ساعتي:
ينشقُّ قبرٌ ثم أنهض صارخاً:
لا تُوقفوني عن نزيفي

لحظةُ الميلاد تسكُنني من الأزلِ، استريحوا في جراحي ـ
ها هو الوطن الذي يتجَدَّدُ،
الوطن الذي يتمجَّدُ،
اقتربوا من الأشجار وابتدئوا معي!

ـ ٩ ـ

في غزّةَ اختلفَ الزمان مع المكانِ
وباعةُ الأسماك باعوا فرصةَ الأمل الوحيد ليغسلوا
قدميّ
أين المجدلية؟
ذابتْ أصابعها مع الصابون
وانهمرت كتاباتٍ كتاباتٍ
وكان الجندُ ينتصرون ينتصرون
كانوا يقرأون صَلاتها
ويفتّشون أظافرَ القدمين والكفين عن فَرحٍ فدائيّ،
وكانوا يُلحقون حياتها
بدموع هاجَرَ. كانت الصحراء جالسةً على جلدي.
وأولُ دمعة في الأرض كانت دمعةً عربية.
هل تذكرون دموع هاجر ـ أوَّلِ امرأةٍ بكتْ في

هجرة لا تنتهي؟
يا هاجَرُ، احتفلي بهجرتي الجديدة من ضلوع القبر
حتى الكون أنهضُ
يسكنُ الشهداءُ أضلاعي الطليقةَ
ثم أمتشق القبورَ وساحلَ المتوسطِ
احتفلي بهجرتيَ الجديدهْ.

النهر غريب وأنت حبيبي

الغريبُ النهرُ ـ قالتْ
واستعدَّتْ للغناءْ
لم نحاول لغة الحبِّ، ولم نذهب إلى النهر سدى
وأتاني الليلُ من منديلها
لم يأتِ ليلٌ مثل هذا الليل من قبل فَقَدَّمْتُ دمي للأنبياءْ
ليموتوا بدلاً منا..
ونبقى ساعة فوق رصيف الغرباءْ
واستعدَّتْ للغناءْ.

وحدَنا في لحظة العُشّاقِ
أزهار على الماءِ

وأقدام على الماءِ
إلى أين سنذهبْ؟
للغزال الريحُ والرمحُ. أنا السكّين والجرحُ.
إلى أين سنذهب؟
ها هي الحريَّةُ الحسناءُ في شريانيَ المقطوع،
عيناكِ وبلدانٌ على النافذة الصغرى
ويا عصفورة النار، إلى أين سنذهبْ؟
للغزال الريحُ والرمحُ،
وللشاعر يأتي زَمَنٌ أعلى من الماء، وأدنى من حبال
الشَّنْقِ.
يا عصفورة المنفى! إلى أين سنذهبْ؟
لم أودّعك. فقد ودَّعتُ سطح الكرة الأرضيَّةِ الآنَ..
معي أنت لقاء دائمٌ بين وداع ووداع.
ها أنا أشهدُ أن الحب مثل الموتِ
يأتي حين لا ننتظر الحبَّ،
فلا تنتظريني ...

الغريبُ النهرُ ـ قالتْ
واستعدَّتْ للسّفَرْ.

الجهاتُ الستُّ لا تعرف عن «جانا»
سوى أنَّ المطرْ
لم يُبَلِّلْها.
ولا تعرف عنها
غيرَ أني قد تغيَّرتُ تغيَّرتُ
تَصَبَّبْتُ بروقاً وشجرْ
وأسرتُ السندبادْ.
والغريبُ النهرُ ـ قالت
ها هو الشيء الذي نَسْكُتُ
قد صار بلادْ
ها هِي الأرض التي نسكُنُ
قد صارت سفر.
والغريبُ النهرُ ـ قالت
واستعدَّت للسفر.

وحدَنا لا ندخل الليلَ
لماذا يتمنّى جسمُكِ الشّعر
وزهرَ اللوتس الأبعدَ من قبري
لماذا تحلمين

بمزيدٍ من عيون الشهداءِ؟
اقتربي مني يزيدوا واحداً
«خبزي كفاف البرهة الأولى» ..
وأمضي نحو وقتي وصليب الآخرين.
وحدَنا لا ندخل الليل سدى،
يا أيها الجسم الذي يختصرُ الأرض،
ويا أيتها الأرض التي تأخذ شكل الجَسَد الروحي
كوني لأكونْ.
حاولي أن ترسميني قمراً
ينحدرِ الليلُ إلى الغابات خيلاً
حاولي أن ترسميني حجراً
تمضي المسافاتُ إلى بيتي خيْلاً
فلماذا تحلمين
بمزيدٍ من وجوه الشهداءِ،
ابتعدي عنّي يصيروا أمَّة في واحد...
هل تحرقين الريح في خاصرتي؟
أم تمتشقين الشمس؟
أم تنتحرينْ؟

عَلّمتني هذه الدنيا لُغَاتٍ وبلاداً غير ما ترسمه عيناكِ.
لا أفهم شيئاً منكِ. لا أفهمُني «جانا»
فلا تنتظريني!..

الغريبُ النهرُ ـ قالتْ
واستعدَّتْ للبكاءْ.
لم تكن أجملَ من خادمة المقهى
ولا أقربَ من أمّي
ولكنَّ المساءْ
كان قِطّاً بين كفَّيها
وكان الأُفقُ الواسعُ يأتي من زجاج النافذهْ
لاجئاً في ظلّ عينيها
وكان الغرباءْ
يملأون الظلّ
لن أمضي إلى النهر سدى.
إذهبي في الحلم يا جانا!
بكتْ جانا
وكان الوقتُ يرميني على ساعة ماءْ
إذهبي في الوقت يا جانا!

بكت جانا
وكان الحُلْمُ ذرّاتِ هواءْ.
إذهبي في الفَرَح الأولِ يا جانا!
بكت جانا
وكان الجرحُ وردَ الشهداءْ.

آه، جانا
لم تكوني مُدُني
أو وطني
أو زمني
كي أوقف النهر الذي يجرفني
فلماذا تدخلين الآن جسمي
لتصيري النهرَ أو سيِّدةَ النهرِ
لماذا تخرجين الآن من جسمي
ومن أجلك جدَّدتُ الإقامةْ
فوق هذي الأرض .. جدَّدت الإقامةْ
إذهبي في الحُلْم يا جانا!
بكتْ جانا
وصار النهرُ زنّاراً على خاصرتي
واختفى شكلُ السماءْ...

تأمّلات في لوحة غائبة

كأني على موعد دائم معها
ها هي الأرض تُكمل دورتها
ها هو الوقتُ يُثمر تفاحةً
نلتقي؟
لم أجد غيرها امرأةً ذاهبهْ
لم أجد غيرها خنجراً قادماً.
كأنَّ خطاها مفاجأةُ الموتِ
تأتي مفاجِئةً
وكأني على موعدٍ دائم معها
تأخَّرتِ ..
أسرعتِ ..

إنّ فراغكِ ممتلىءٌ قمراً
أحبُّك، أم أتنفَّسُ؟
أنتَظِرُ الشّفتين، أم الصاعقهْ؟
لجسمكِ صوتٌ يذكِّرني بالولادةِ
حين أموتُ
(ومن عادتي أن أموت كثيراً)
تأخرتِ.
أسرعتِ.
كالصاعقهْ!

... وأكتبُ عنك بلاداً
ويحتلّها الآخرون
وأرسمُ فيك جواداً
ويسرقه الآخرون
وأكتبُ
أرسمُ ..
كانت ذراعاك فاتحةَ الحزن والزهر
كنتُ أعودُ إلى الأرضِ
كنتُ

أصاهر في كفِّك الحجرا
وكان فراغُكِ ممتلئاً قمراً

كأني على موعد دائم معها
ها هي الأرض تكمل دورتها
ها هو الوقت يُثمر تفاحةً.
وللوقت كفٌّ تداعبني
مرةً،
وتقتلني
مرةً،
أيها الوقت كن يدها كي أراك
أيها
الوقت
كن
يدها
كي أراها ..

بين حلمي وبين اسمه
كان موتي بطيئاً

باسمها أتراجَعُ عن حلمها. ووصلتُ أخيراً إلى
الحُلْم. كان الخريفُ قريباً من العشب. ضاع
اسمُها بيننا .. فالتقينا.
لم أسجِّل تفاصيل هذا اللقاء السريعِ، أحاول شرحَ
القصيدةِ كي أفهم الآن ذاك اللقاء السريع.
هي الشيءُ أو ضدُّهُ، وانفجارات روحي
هي الماءُ والنار، كنا على البحر نمشي.
هي الفرقُ بيني ... وبيني.
وأنا حاملُ الإسم أو شاعر الحُلْم. كان اللقاء سريعاً.
أنا الفرقُ بين الأصابع والكفّ. كان الربيع
قصيراً. أنا الفرقُ بين الغصون وبين الشجرْ.

كنتُ أحْلمها، واسمُها يتضاءلُ. كانت تُسمّى
خلايا دمي. كنتُ أحْلمها
والتقينا أخيراً.
أحاول شرح القصيدة كي أفهم الآن ماذا حدث..

ـ يحمل الحُلْم سيفاً ويقتل شاعرَهُ حين يبلغهُ ـ
هكذا أخبرتني المدينةُ حين غفوتُ على ركبتيها
لم أكن حاضراً
لم أكن غائباً
كنتُ بين الحضور وبين الغيابْ
حَجَراً .. أو سحابهْ

ـ تشبهين الكآبةَ
قلت لها باختصار شديد
تشبهين الكآبهْ
ولكنَّ صدرك صار مظاهرة العائدين من الموت..
ما كنتُ جنديَّ هذا المكان
وثوريَّ هذا الزمان
لأحمل لافتةً، أو عصا، في الشوارعِ.

كان لقائي قصيراً
وكان وداعي سريعاً.
وكانت تصيرُ إلى امرأةٍ عاطفيهْ
فالتحمتُ بها
وحلمتُ بها
وصارت تفاصيلها وَرَقاً في الخريفِ
فلَملمَها عسكريُّ المرور
ورتَّبها في ملفّ الحكومهْ
وفي المتحف الوطني
ـ تشبهين المدينَةَ حين أكون غريباً
قلت لها باختصار شديد
تشبهين المدينهْ.
هل رآك الجنود على حافَّة الأرض
هل هربوا منكِ
أم رجموكِ بقنبلة يدويهْ؟

قالتِ المرأة العاطفيَّة:
كلُّ شيء يلامس جسمي
يَتَحوَّلُ

أو يتشكَّلُ
حتى الحجارة تغدو عصافير.
قلت لها باكياً:
ولماذا أنا
أتشرَّدُ
أو أتبدَّدُ
بين الرياح وبين الشعوب؟
فأجابت:
في الخريف تعود العصافير من حالة البحرِ
ـ هذا هو الوقتُ
ـ لا وقت
وابتدأتْ أغنيهْ:
في الخريف تعود العصافير من حالة البحر
هذا هو الوقتُ، لا وقتَ للوقتِ
هذا هو الوقتُ
ـ ماذا تكون البقيَّهْ؟
ـ شبه دائرة أنتَ تُكملها
ـ أذهبُ الآن؟

ـ لا تذهب الآن. إنَّ الرياح على خطأ دائماً.
والمدينة أقربْ
ـ المدينةُ أقربُ!! أنتِ المدينةُ
ـ لستُ مدينهْ
أنا امرأةٌ عاطفيهْ
هكذا قلتَ قبل قليلْ
واكتشفتَ الدليل
وأنت البقيَّهْ
ـ آه، كنتُ الضحيَّهْ
فكيف أكون الدليل؟
وكنتُ أعانقها. كنت أسألها نازفاً:
أأنتِ بعيدهْ؟
ـ على بُعْدِ حُلْم من الآن
والحُلْمُ يحمل سيفاً. ويقتل شاعره حين يبلغهُ
ـ كيف أكمل أغنيتي
والتفاصيل ضاعت. وضاع الدليل؟
ـ انتهتْ صورتي
فابتدئ من ضياعك.

أموتُ ـ أحبُّكِ
إن ثلاثة أشياء لا تنتهي:
أنتِ، والحبُّ، والموتُ
قبَّلتُ خنجركِ الحلوَ
ثم احتميتُ بكفَّيكِ

أنْ تقتليني
وأن توقفيني عن الموتِ
هذا هو الحب.
إني أحبكِ حين أموت

وحين أحبُّكِ
أشعر أني أموتُ
فكوني امرأةْ
وكوني مدينهْ!
ولكن، لماذا سقطتِ، لماذا احترقتِ
بلا سَبَبٍ؟
ولماذا ترهّلت في خيمة بدويَّهْ؟
ـ لأنكَ كنتَ تمارس موتاً بدون شهيَّهْ
وأضافت، كأنَّ القَدَرْ

يتكسَّرُ في صوتها:
هل رأيتَ المدينة تذهبُ
أم كنتَ أنت الذي يتدحرج من شرفة اللَّهِ
قافلةً من سبايا؟
هل رأيتَ المدينةَ تهربُ
أم كنتَ أنتَ الذي يحتمي بالزوايا!

المدينةُ لا تسقطُ، الناس تسقط!.
ورويداً.. رويداً تفتَّت وجهُ المدينهْ
لم نحوّل حصاها إلى لُغَةٍ
لم نُسَيِّجْ شوارعها
لم ندافع عن الباب
لم ينضج الموتُ فينا.

كانت الذكرياتُ مقرّاً لحكّام ثورتها السابقة
ومرَّ ثلاثون عاماً
وألف خريف
وخمس حروب
وجئتُ المدينة منهزماً من جديد
كان سور المدينة يُشبهني

وقلتُ لها:
سأحاول حُبّكِ ..
لا أذكر الآن شكلَ المدينةِ
لا أذكرُ اسمي
ينادونني حَسَبَ الطقس والأمْزجهْ
لقد سقط اسمي بين تفاصيل تلك المدينةِ
لمْلمَه عسكريٌّ المرور
ورتَّبه في ملفّ الحكومهْ
ـ تشبهين الهويَّةَ حين أكون غريباً
تشبهين الهويَّة.
ـ ليس قلبي قرنفلةً
ليس جسمي حقلاً
ـ ما تكونين؟
هل أنت أحلى النساء وأحلى المدنْ
ـ للذي يتناسل فوق السفنْ
وأضافت:
بين شوك الجبال وبين أماسي الهزائم
كان مخاضي عسيراً.

ـ وهل عذَّبوكِ لأجلي؟

ـ عذَّبوكَ لأجلي

ـ هل عرفتِ الندم؟

ـ النساء ـ المدن

قادراتٌ على الحبِّ، هل أنتَ قادر؟

ـ أحاول حبَّك

لكنّ كل السلاسل

تلتفُّ حول ذراعيَّ حين أحاول ...

هل تخونينني؟

ـ حين تأتي إليَّ

ـ هل تموتين قبلي؟

سألتكِ: مُوتي!

ـ أيجديكَ مَوْتي؟

ـ أصيرُ طليقاً

لأن نوافذ حُبّي عبوديَّةٌ

والمقابر ليست تثير اهتمام أَحَدْ

وحين تموتين

أكمل موتي.

بين حُلْمي وبين اسمِهِ
كان موتي بطيئاً بطيئاً.

أموت ـ أحبُّكِ
إنَّ ثلاثة أشياء لا تنتهي
أنتِ، والحبُّ، والموتُ
أن تقتليني
وأن توقفيني عن الموتِ.
هذا هو الحبّ
.... وانتهتْ رحلتي فابتدأتُ
وهذا هو الوقتُ: ألاّ يكون لشكلكِ وقتُ.
لم تكوني مدينهْ
الشوارعُ كانت قُبَلْ
وكان الحوار نزيفاً
وكان الجبلْ
عسكرياً. وكان الصنوبر خنجرْ
ولا امرأةً كنتِ
كانت ذراعاكِ نهرين من جُثَثٍ وسنابلْ
وكان جبينُكِ بيدرْ

وعيناك نار القبائلْ
وكنتُ أنا من مواليد عام الخروج
ونسل السلاسلْ.

يحملُ الحلمُ سيفاً، ويقتل شاعرَهُ حين يبلغُهُ ـ
هكذا أخبرتني المدينةُ حين غفوتُ على ركبتيها
لم أكن غائباً
لم أكن حاضراً
كنتُ مختفياً بالقصيدهْ،
إذا انفجرت من دمائي قصيدهْ
تصير المدينةُ ورداً،
كنتُ أمتشق الحُلْمَ من ضلعها
وأحارب نفسي
كنتُ أعلن يأسي
على صدرها، فتصير امرأهْ
كنتُ أعلن حبي
على صدرها، فتصير مدينهْ
كنتُ أعلن أنَّ رحيلي قريب
وأنَّ الرياح وأنَّ الشعوب

تتعاطى جراحي حبوباً لمنع الحروب.
بين حلمي وبين اسمه
كان موتي بطيئاً
باسمها أتراجع عن حُلْمها. ووصلتُ
وكان الخريف قريباً من العشبِ.
ضاع اسمها بيننا.. فالتقينا.
لم أسجّل تفاصيل هذا اللقاء السريع
أحاول شرح القصيدهْ
لأغلق دائرة الجرح والزنبقهْ
وأفتح جسر العلاقة بين الولادة والمشنقهْ
أحاول شرح القصيدهْ
لأفهمَ ذاك اللقاءَ السريع
أحاول
أحاول .. أحاول!

طوبى لشيء لم يصل!

هذا هو العُرس الذي لا ينتهي
في ساحةٍ لا تنتهي
في ليلةٍ لا تنتهي
هذا هو العُرْسُ الفلسطينيُّ
لا يصل الحبيبُ إلى الحبيبْ
إلّا شهيداً أو شريدا

دَمُهم أمامي ..
يسكن اليوم المجاورَ ـ
صار جسمي وردةً في موتهمْ ..
وذبلتُ في اليوم الذي سَبَقَ الرصاصةَ

وازدهرتُ غداةَ أكملتِ الرصاصةُ جُثَّتي
وجمعتُ صوتي كُلَّهُ لأكون أهدأ من دمٍ
غطّى دمي ...

دَمُهم أمامي
يسكن المدنَ التي اقتربتْ
كأنَّ جراحهم سفنُ الرجوعِ
ووحدهم لا يرجعون ...
دَمُهم أمامي ..
لا أراهُ
كأنه وطني
أمامي ... لا أراهُ
كأنه طُرُقاتُ يافا ـ
لا أراهُ
كأنه قرميدُ حيفا ـ
لا أراهُ
كأنَّ كُلَّ نوافذ الوطن اختفتْ في اللحمِ
وحدَهمُ يرون
وحاسَّةُ الدم أينعتْ فيهم

وقادتهم إلى عشرين عاماً ضائعاً
والآن، تأخذ شكلَها الآتي
حبيبتُهم ..
وتُرجعهم إلى شريانها.

دَمهُم أمامي ..
لا أراهُ
كأنَّ كل شوارع الوطن اختفتْ في اللحمِ
وحدَهمُ يرون
لأنهمْ يتحررون الآن من جلد الهزيمةِ
والمرايا
ها همُ يتطايرون على سطوحهم القديمةِ
كالسنونو والشظايا
ها همُ يتحررون ...

طوبى لشيء غامضٍ
طوبى لشيء لم يصل
فكّوا طلاسمه ومزَّقهُمْ
فأرَّخْتُ البداية من خطاهم
(ها هي الأشجار تزهرُ

في قيودي)
وانتميت إلى رؤاهم
(ها هي الميناء تظهرُ
في حدودي)
والحلم أصدق دائماً. لا فرق بين الحلمِ
والوطن المرابط خلفَهُ ...
الحلم أصدق دائماً. لا فرق بين الحلمِ
والجسد المخبَّأ في شظيَّهْ
والحلم أكثرُ واقعيَّهْ

السفحُ أكبر من سواعدهمْ
ولكنْ ..
حاولوا أن يصعدوا
والبحر أبعد من مراحلهم
ولكن ..
حاولوا أن يعبروا
والنجمُ أقرب من منازلهم
ولكن ..
حاولوا أن يفرحوا

والأرضُ أضيقُ من تصورهم
ولكن ...
حاولوا أن يحلموا
طوبى لشيء غامض!
طوبى لشيء لم يصلْ
فكّوا طلاسمه ومزَّقهم
فأرّخْتُ البداية من خطاهم

وانتميت إلى رؤاهم
آه ... يا أشياء! كوني مبهمةْ
لنكون أوضح منك
أفلستِ الحواسّ وأصبحتْ قيداً على أحلامنا
وعلى حدود القدسِ،
أفلست الحواسّ، وحاسّةُ الدم أينعت فيهم
وقادتْهم إلى الوجه البعيد
هربت حبيبتهم إلى أسوارها وغزاتها
فتمردوا
وتوحدوا
في رمشها المسروق من أجفانهم

وتسلّقوا جدران هذا العصرِ
دقوا حائط المنفى
أقاموا من سلاسلهم سلالمْ
ليقبِّلوا أقدامها
فاكتظَّ شعبٌ في أصابعهم خواتمْ

هذا هو العرس الذي لا ينتهي
في ساحة لا تنتهي
هذا هو العُرسُ الفلسطينيُّ
لا يصل الحبيبُ إلى الحبيبْ
إلّا شهيداً .. أو شريدا

ـ من أي عامٍ جاء هذا الحزن؟
ـ من سَنةٍ فلسطينيةٍ لا تنتهي
وتشابهتْ كل الشهور، تشابه الموتى
وما حملوا خرائط أو رسوماً أو أغاني للوطن
حملوا مقابرهم ..
وساروا في مهمتهم
وسرنا في جنازتهم

وكان العالم العربيُّ أضيق من توابيت الرجوع.
أنراك يا وطني
لأن عيونهم رسمتْكَ رؤيا.. لا قضيَّهْ!
أنراك يا وطني
لأن صدورهم مأوى عصافير الجليل وماء وجه المجدليَّهْ!
أنراك يا وطني
لأن أصابع الشهداء تحملنا إلى صفدٍ
صلاةً .. أو هويَّهْ
ماذا تريد الآن منّا
ماذا تريد؟
خذهم بلا أجرٍ
ووزِّعهم على بيّارة جاعت
لعلَّ الخضرة انقرضت هناك..

الشيءُ.. أم هُمْ؟
إن جثة حارسٍ صمّامُ هاوية التردّي -
(هكذا صار الشعار، وهكذا قالوا)
ومرحلةٌ بأكملها أفاقتْ - ذات حلم -
من تدحرجها على بطن الهزيمة، (هكذا ماتوا)

وهذا الشيء .. هذا الشيء بين البحرِ
والمدن اللقيطة ساحلٌ لم يتَّسع إلّا لموتانا،
ومرّوا فيه كالغرباء (ننساهم على مهل)
وهذا الشيء .. هذا الشيء بين البحرِ
والمدن اللقيطة حارسٌ تعبت يداه من الإشارةِ.
لم يصل أحدٌ ومرّوا من يديه الآن
فاتسعتْ يداهُ
كلٌّ شيء ينتهي من أجل هذا العرسِ..
مرحلة بأكملها أفاقت ـ ذات موتِ ـ
من تدحرجها على بطن الهزيمةْ..

الشيءُ .. أم هُمْ؟
يدخلون الآن في ذرات بعضهم،
يصير الشيء أجساداً،
وهم يتناثرون الآن بين البحر والمدن
اللقيطة
ساحلاً
أو برتقالا ـ

كلُّ شيء ينتهي من أجل هذا العرسِ..
مرحلة بأكملها.. زمانٌ ينتهي
هذا هو العرس الفلسطينيّ
لا يصل الحبيب إلى الحبيب
إلّا شهيداً أو شريداً

موتٌ آخر .. وأحبّك

- ١ -

أجدِّدُ يوماً مضى، لأحُبَّكِ يوماً... وأمضي
وما كان حبّاً
لأن ذراعيَّ أقصر من جبلٍ لا أراهْ
وأكمل هذا العناق البدائيَّ، أصعد هذا الإلهَ
الصغير ..
وما كان يوماً
لأن فَراش الحقول البعيدةِ ساعةُ حائطْ
وأكمل هذا الرحيل البدائيَّ، أصعد هذا الإلهَ
الصغير
وما كنتِ سيدة الأرض يوماً

لأن الحروب تلامس خصرك سرب حمامْ
وتنتشرين على موتنا أُفقاً من سلامْ
يسد طريقي إلى شفتيك، فأصعد هذا الإلهَ
الصغير
وما كنتُ ألعب في الرمل لهواً
لأن الرذاذ يكسّرني حين تعلن عيناكِ
أن الدروب إلى شهداء المدينة مقفرةٌ من يديكِ
فأصعد هذا الإله الصغير..
وما كان حبّاً
وما كان يوماً
وما كنتُ
وما كنتِ
إني أجدد يوماً مضى
لأحبكِ يوماً
وأمضي ...

ـ ٢ ـ

سألتُكِ أن ترتديني خريفاً ونهراً
سألتك أن تعبري النهر وحدي

وتنتشري في الحقول معاً.
سألتك ألّا أكون وألّا تكوني
سألتك أن ترتديني
خريفاً
لأذبلَ فيك، وننمو معاً.
سألتك ألا أكون وألا تكوني
سألتك أن ترتديني
نهراً
لأفقد ذاكرتي في الخريف
ونمشي معاً.

وفي كل شيء نكون
يوحّدنا ما يُشتِّتنا
ليس هذا هو الحبُّ
في كل شيء نكون
يجددنا ما يفتّتنا
ليس هذا هو الحبُّ ـ
هذا أنا..
أجيئك منك، فكيف أحبك؟

كيف تكونين دهشة عمري؟
وأعرف:
أن النساء تخون جميع المحبين إلّا المرايا
وأعرف:
أن التراب يخون جميع المحبين إلّا البقايا
أَجيئك منك انتظاراً
وأغرق فيك انتحاراً
أجيئكِ منك انفجاراً
وأسقط فيك شظايا..
وكيف أقول أحبك؟

كيف تحاول خمس حواسّ مقابلة المعجزهْ
وعيناك معجزتان؟
تكونين نائمة حين يخطفني الموجُ
عند نهاية صدرك يبتدئ البحرُ

ينقسم الكون هذا المساء إلى إثنين:
أنتِ ومركبة الأرض.
من أَين أجمع صوت الجهات لأصرخ:
إني أحبك

ـ ٣ ـ

تكونين حريتي بعد موت جديد
أحبّ
أجدِّدُ موتي
أودِّع هذا الزمانَ وأصعد
عيناك نافذتان على حلم لا يجيء
وفي كل حلم أرمِّم حلماً وأحلمُ
قالت مريّا: سأهديكَ غرفة نومي
فقلتُ: سأهديكِ زنزانتي يا مريّا
ـ لماذا أحبّكَ؟
* من أجل طفل يؤجِّل هجرتنا يا مريّا
ـ سأهديكَ خاتم عرسي
* سأهديكِ قيدي وأمسي
ـ لماذا تحاربُ؟
* من أجل يوم بلا أنبياء.
تكونين جندية. تغلقين طريقي. تقولين: ما اسمك؟
أعلن أني أمشط موج البحار بأغنيتي ودمي
كي تكوني مريّا.
ـ إلى أين تذهب؟

* أذهب في أول السطر. لا شيء يكتمل الآن
- هل يلعب الشهداء بأضلاعهم كي تعود مريّا؟
* تعود، وهم لا يعودون
- هل كنتَ فيهم؟
* وعدت لأنيَ نصف شهيد
لأني رأيت مريّا.
- سأهديكَ غرفة نومي
* سأهديكِ زنزانتي يا مريّا.

- ٤ -

غريبان
إن القبائل تحت ثيابي تهاجرُ
والطفل يملأ ثنية ركبتكِ
الآن أعلن أن ثيابك ليست كفن

غريبان
إن الجبال الجبال الجبال...

غريبان
ما بين يومين يولد يوم جديد لنا
وماذا نسميه

قلنا: وطن
غريبان
إن الرمال الرمال الرمال....

غريبان
والأرض تعلن زينتها
ـ أنت زينتُها ـ
والسماء تهاجر تحت يدين

غريبان
إن الشمال الشمال الشمال....
غريبان
شعركِ سقفي، وكفّاك صوتان
أقبِّل صوتاً
وأسمع صوتاً
وحبك سيفي
وعيناك نهران
والآن أشهد أن حضورَك موت
وأنّ غيابك موتان

والآن أمشي على خنجر وأغني
فقد عرف الموت أني
أحبك، أني
أجدد يوماً مضى
لأحبك يوماً
وأمضي ..

ـ ٥ ـ

سمعتُ دمي، فاستمعتُ إليكِ
ولم تَصِلي بعدُ
كان البنفسج لون الرحيل
وكنتُ أميل مع الشمس ـ
يا أيها الممكنُ المستحيل
وكانت ظلال النخيل تغطّي خطانا التي تتكونُ
منذ الصباح وأمسِ.
وكنا نميل مع الشمس،
كنتُ القتيل الذي لا يعود
نسيتُ الجنازة خلف حدود يديكِ
سمعت دمي، فاستمعت إليك ..

إلى أينَ أذهب؟
ليست مفاتيح بيتي معي
ليس بيتي أمامي
وليس الوراء ورائي
وليس الأمام أمامي
إلى أين أذهب؟
إن دمائي تطاردني، والحروب تحاربني، والجهات
تفتشني عن جهاتي
فأذهب في جهة لا تكون
كأنَّ يديك على جبهتي لحظتانِ
أدور أدور
ولا تذهبانِ
أسيرُ أسيرُ
ولا تأتيانِ
كأنّ يديك أبد
آه، من زمن في جسد!

يعرف الموت أني أحبُّكِ
يعرف وقتي

فيحمل صوتي
ويأتيك مثل سعاة البريد
ومثل جباة الضرائبِ
يفتح نافذة لا تطل على شجرٍ
(قد ذهبتُ ولم أعترف)
يعرف الموت أني أحبك ..
يستجوب القبلة النصفَ ..
تستقبلين اعترافي ..
وتبكين زنبقةً ذبلت في الرسالةِ
ثم تنامين وحدكِ وحدكِ وحدكِ
يشهق موت بعيد
ويبقى بعيد

إلى أين أذهب؟
إنَّ الجداول باقية في عروقي
وإنّ السنابل تنضج تحت ثيابي
وإن المنازل مهجورة في تجاعيد كفي
وإن السلاسل تلتفُّ حولي
وليس الأمام أمامي

وليس الوراء ورائي
كأن يديك المكان الوحيد.
كأن يديك بلد
آه من وطن في جسد!

ـ ٦ ـ

وصلتُ إلى الوقت مبتعدا
لم يكن بلدا
كي أقول وصلتُ
وما كان ـ حين وصلتُ ـ سدى
كي أقول تعبتُ
وما كان وقتاً لأمضي إليه..
وصلت إلى الوقت مبتعدا
لم أجد أحدا
غير صورتها في إطار من الماءِ
مثل جبيني الذي ضاع بيني
وبين رؤايَ سدى!

سمعتُ دمي
فاستمعتُ إليك

مشيتُ
لأمشي إليك

وكانت عصافيرُ ملء الهواء
تسير ورائي
وتأكلُني ـ كنتُ سنبلةً ـ
كنت أحمل ضلعاً وأسأل أين بقيّتُهُ
آخرُ الشهداء
يحاول ثانيةً
كيف أحمل نهراً بقبضة كفي
وأحمل سيفي
ولا يسقطان
أنا آخر الشهداء.
أسجّل أنك قديسةٌ في الزمان، وضائعة
في المكان
أُريد بقية ضلعي
أُريد بقية ضلعي
أُريد بقية ضلعي

عودة الأسير

النيلُ ينسى
والعائدون إليكِ منذ الفجر لم يَصِلُوا
هناك حمامتان بعيدتان
ورحلةٌ أخرى
وموتٌ يشتهي الأسرى
وذاكرتي قويَّهْ.
والآن، ألفظُ قبل روحي
كلَّ أرقام النخيل
وكلَّ أسماء الشوارع والأزقَّة سابقاً أوْ لاحقاً
وجميعَ مَنْ ماتوا بداء الحب والبلهارسيا والبندقيَّهْ
ما دَلّني أحدٌ عليكِ

وأنتِ مصرْ
قد عانقتني نَخْلةٌ
فتزوَّجَتْني
شَكَّلَتْني
أنجَبَتْني الحبَّ والوطن المعذَّبَ والهويَّهْ.
ما دلّني أحَدٌ عليكِ
وجدتُ مقبرةً ... فنمتُ
سمعتُ أصواتاً ... فقمتُ
ورأيتُ حرباً.. فاندفعتُ
وما عرفتُ الأبجديَّهْ.
قالوا: اعترفْ
قلتُ: اعترفتْ
يا مصر! لا كِسرى سباكِ ولا الفراعنةُ
اصطفوكِ أميرةً أو سيِّدةْ!
قالوا: اعترفْ
قلت: اعترفتْ
وتوازت الكلماتُ والعضلاتُ
كانوا يقلعون أظافري

ويُقَشِّرون أناملي
ويبعثرون مفاصلي
ويفتِّشون اللحمَ عن أسرار مصرْ..
وتدفّقت مصرُ البعيدةُ من جراحي
فاقتربتْ
ورأيتُ مصر
وعرفتُ مصر.
ما دلّني أحدٌ، خناجرهم تفتّشني فيخرج شكلُ مصر.
يا مصر! لستِ خريطةً
قالوا: اعترفْ
قلت: اعترفتْ
واصلتُ يا مصر اعترافاتي
دمي غطّى وجوه الفاتحينَ
ولم يغطِّ دمي جبينَكِ، واعترفتُ
وحائطُ الإعدام يحملني إليك إليكِ...
أنتِ الآن تقتربين. أنت الآن تعترفينَ
فامتشقي دمي!
والنيلُ ينسى

ليس من عاداته أن يُرجع الغرقى
وآلافُ العرائس مَنْ تقاضى أجرها؟
النيل ينسى
والقرى رفعتْ مآذنها وشكواها
وأخفتْ صدرها في الطينِ ..
والمدنُ ـ الجنودُ الغائبون ـ الاتحادُ الاشتراكيُّ ـ المغنّي
راقصاتُ البطن ـ والسيّاحُ ـ والفقراءُ
سبحان الذي يعطي ويأخذ!
ليس من عادات هذا النيل أن يصغي إلى أحدٍ
كأنَّ النيلَ تمثالٌ من الماء استراح إلى الأبد.

ماذا يقول النيلُ
لو نطقتْ مياه النيلِ؟
يسكت مرّةً أخرى
وينساني ...
لتسكتْ جوقة الإنشاد حول جنازتي!
وخذي عن الجثمان أعلامَ الوطن
يا مصر! تحيا مصر.. تحيا مصر.. تحيا مصرُ
غطّي حفنة من رمل سيناء التي ابتعدتْ عن العينين

والتجأتْ إلى الرئتين

وامتشقي دمي

وخذي عن الجثمان أعلام الوطن

سيناء ليس لها كفن!

والنيلُ ينسى

ماذا يقول النيلُ، لو نطقتْ مياهُ النيلِ؟

يسكت مرةً أخرى

ولا يستقبل الأسرى.

ليسكت ههنا الشعراءُ والخطباءُ

والشّرطيُّ والصحفيُّ

إنَّ جنازتي وصلتْ

وهذي فرصتي يا مصرُ.. أعطيني الأمان

يا مصر! أعطيني الأمان

لأموتَ ثانيةً .. شهيداً لا أسيرْ

السدُّ عالٍ شامخ، وأنا قصير

والمنشآت كبيرةٌ، وأنا صغير

والأغنيات طليقةٌ، وأنا أسير

يا مصر! أعطيني الأمان

إني حرستُك. كانت الأشياء آمرةً وآمنةً وكان المطربُ
الرسميُّ يصنع من نسيج جلودنا وَتَرَ الكمان
ويُطْربُ المتفرجين.
قد زيَّفوا يا مصر حنجرتي
وقامةَ نخلتي
والنيل ينسى
والعائدون إليك منذ الفجر لم يَصِلوا
ولستُ أقول يا مصر الوداع
شَبَّتْ خيول الفاتحين
زرعوا على فمك الكروم، فأينعتْ
قد طاردوكِ ـ وأنتِ مصر
وعذَّبوكِ ـ وأنت مصر
وحاصروكِ ـ وأنت مصر
هل أنت مصر؟
هل أنت .. مصرا!.

الـرمادي

الرماديُّ اعترافٌ. والسماءُ الآنَ ترتدُّ عن الشارع
والبحر، ولا تدخل في شيء، ولا تخرج من
شيء .... ولا تعترفينْ

ساعتي تسقط في الماء الرماديّ. فلم أذهب إلى موعدكِ
الساطعِ. يأتي زَمَنٌ آخرُ إذ تنتحرين.
وأُسمّي حادثاً يحدث في أيّامنا:
قد ذَهَبَ العمر، ولم أذهب مع العمر إلى هذا المساء
وسأبقى في انتظاركْ.
وأُسمّي حادثاً يحدث في أيامهمْ:
عندما أمشي إلى النهر البعيدْ

يقف النهرُ طويلاً في انتظاري.
وأُتابعْ:
عندما أرجع في منتصف الموت، يجفُّ النهرُ في ذاكرتي
يذبلُ ما بين الأصابعْ.
فلماذا تقفينْ؟
ولماذا تقفينْ؟
وتكونين أمامَ الطعنة الأولى. أمام الخطوة الأولى....
ولا تعترفين.
والرماديُّ اعترافٌ. مَنْ رآني قد رأى وجهكِ ورداً
في الرمادْ.
مَنْ رآني أخرَجَ الخنجر من أضلاعه، أو خبَّأ الخنجر
في أضلاعِهِ.
حيث تكونين دمي يمطر، أو يصعد في أيِّ اتجاهِ
كالنباتات البدائيةِ.
كوني حائطي
كي أبلغَ الأفْقَ الرماديَّ
وكي أجرحَ لون المرحلهْ
من رآني ضاع منّي

في ثياب القَتَلَهْ!
الرماديًّ اعترافٌ وشبيابيكٌ. نساءٌ وصعاليكُ
والرماديٌّ هو البحر الذي دَخَّنَ حُلْمي زَبَدا
والرماديٌّ هو الشّعر الذي أجّر جرحي بلدا
الرماديٌّ هو البحرُ
هو الشّعرُ
هو الزهرُ
هو الطيرُ
هو الليلُ
هو الفجرُ
الرماديٌّ هو السائرُ والقادمُ
والحلم الذي قَرَّره الشاعرُ والحاكمُ
منذ اتّحدا!
لستُ أعمى لأرى
لستُ أعمى ... لأرى.
إنّني أعبرُ بين الجُثّتين القمّتيْن
كالنباتات البدائيَّةِ
كوني حائطي كي أعبُرا.

لستُ أعمى.. لأرى.

تزحفُ الصحراء. تلتفُّ على خاصرتي. تمتدُّ تمتدُّ،

وتلتفُّ على صدري، وتشتدُّ وتشتدُّ، ولا أغرق..

لا أغرق.. لا أغرقُ

لا!.

ليس لي خلف جبال الرمل آبارٌ من النفط، ولا صفصافة

مستشرقهْ

كان لي سورةُ «إقرأ» وقرأتْ ...

كان لي بذرةُ قمح في يدٍ محترقهْ

واحترقتْ.

وليَ الآن شتاءٌ من دم يمتصُّه الرملِ، ويُستخرج

مازوتاً. وأُسْتَدْعَى إلى الحرب لكي يصبح سعرُ

النفط أعلى.

قلت: كلاّ!

والرماديُّ اعترافٌ مثل جدران الزنازين التي تكثر بعد

الحرب. لا. لم يبكِ جنديٌّ على تاجٍ. وأُسْتَدْعَى

إلى الحرب لكي يصبح لون التاج أغلى.

لستُ أعمى .. لأرى.

هل تركتِ الباب مفتوحاً؟
تعودين بلا جدوى ..
ينام الحُلُم الكاذبُ في المخفرِ. يُدلي باعترافاتٍ.
يمرُّ الحلُم الهاربُ من قُبَّعة السجّان. يُدلي
باعترافاتٍ على مائدة القرصان؛
يُدلي باعترافاتٍ. يَنامُ الحُلُم الغائبُ تحت المشنقهْ.
هل تركت الباب مفتوحاً؟
لكي أقفز من جلدي إلى أوَّل عصفور رماديّ، وأحتجُّ
على الآفاق:
كلا!
الرماديُّ من البحر إلى البحرِ
وحُرّاسُ المدى عادوا
وعيناكِ أمامي نقطتانْ
والسرابُ الضوءُ في هذا الزمانِ
الواقفِ الزاحفِ ما بين وداعين طويلين
ونحن الآن ما بين الوداعين وداعٌ دائمٌ
أنتِ السرابُ ـ الضوءُ، والضوءُ ـ السرابْ
مَنْ رآنا أخرج الخنجر من أضلاعه، أو خَبَّأ الخنجر

في أضلاعه.
حيث تكونين دمي يمطر أو يصعدُ في أي اتجاه
كالنباتات البدائية
كوني حائطي أو زمني
كي أطأ الأفقَ الرماديَّ
وكي أجرحَ لون المرحلهْ
مَنْ رآنا ضاع منّا
في ثياب القَتَلَهْ
فاذهبي في المرحلهْ
إذهبي
وانفجري بالمرحلهْ!.

طريق دمشق

من الأزرق ابتدأ البحرُ ...
هذا النهارُ يعود من الأبيض السابقِ...
الآنَ جئتُ من الأحمر اللاحقِ...
اغتسلي يا دمشق بلوني
ليُولَدَ في الزمان العربيِّ نهار.

أحاصركم: قاتلاً أو قتيلْ
وأسألكم، شاهداً أو شهيدْ:
متى تفْرجون عن النهر، حتى أعود إلى الماء أزرقَ
أخضر
أحمرَ
أصفرَ أو أي لون يحدِّده النهرُ

إنّي خرجتُ من الصيف والسيفِ
إنّي خرجتُ من المهد واللحدِ
نامت خيولي على شجر الذكرياتِ
ونمتِ على وتر المعجزاتِ
ارتدتني يداكِ نشيداً إذا أنزلوه على جبل، كان سورةَ
«ينتصرون» ...
دمشق، ارتدتني يداك، دمشق! ارتديت يديك،
كأنّ الخريطة صوتٌ يُفرّخ في الصخرِ
نادى ... وحرّكني
ثم نادى ... وفجّرني
ثم نادى .. وقطّرني كالرخام المذاب
ونادى.
كأن الخريطة أُنثى مُقَدسةٌ فجّرتني بكارتُها، فانفجرتُ
دفاعاً عن السرِّ والصخرِ
كوني دمشق
فلا يعبرون!

من البرتقاليّ يبتدئ البرتقالُ
ومن صمتها يبدأ الأمسُ

أو: يولد القبرُ

يا أيها المستحيل ... يسمونك الشامَ!

أفتحُ جرحي لتبتدئَ الشمسُ. ما اسمي؟ دمشق..

وكنت وحيداً.

ومثليَ كان وحيداً هو المستحيل.

أنا ساعة الصفر دقَّتْ.

فشقَّت

خلايا الفراغ على سرج هذا الحصان

المحاصر بين المياه

وبين المياه.

أنا ساعة الصفر

جئت أقول:

أحاصرهم قاتلاً أو قتيل

أعدُّ لهم ما استطعتُ.. وينشقُّ في جثتي قمرُ المرحلهْ

وأمتشق المقصلهْ

أحاصرهم: قاتلاً أو قتيل

وأنسى الخلافة في السفر العربيِّ الطويل

إلى القمح والقدس والمستحيل

يؤرِّخني كاتبان:
العدوُّ
وعورةُ طفل صغير تسمّونهُ
برَدى
وسمَّيته مبتدا
وأخبرته أنني قاتل أو قتيل.

«من الأسود ابتدأ الأحمرُ.. ابتدأ الدم».
هذا أنا. هذه جثتي
أيّ مرحلة تعبر الآن بيني وبيني!
أنا الفرق بينهما
همزة الوصل بينهما
قبلة السيف بينهما
طعنة الورد بينهما
آه، ما أصغر الأرضَ!
ما أكبرَ الجرحَ ..
مُرّوا
لتتَّسع النقطةُ، النطفةُ، الفارقُ،
الشارعُ، الساحلُ، الأرضُ ...

ما أكبرَ الأرضَ!
ما أصغَر الجرحَ
هذا طريق الشام ... وهذا هديل الحمام
وهذا أنا. هذه جثتي.
والتحمنا
فمُرّوا..
خذوها إلى الحرب كي أنهيَ الحرب بيني وبيني
خُذوها... أحرقوها بأعدائها
أنزلوها على جبل غيمةً أو كتاباً
ومُرّوا ...
ليتسع الفرق بيني وبين اتهامي

طريق دمشق
دمشق الطريق
ومفترق الرسل الحائرين أمام الرماديّ
إني أغادر أحجاركم ـ ليس مايو جداراً
أغادر أحجاركم وأسير
وراءَ دمي في طريق دمشق
أحارب نفسي ... وأعداءها.

ويسألني المتعبون، أو المارة الحائرون عن اسمي
فأجهلهُ ..
اسألوا عشبة في طريق دمشق!
وأمشي غريباً.
وتسألني الفتيات الصغيرات عن بلدي
فأقول: أفتش فوق طريق دمشق.
وأمشي غريباً.
ويسألني الحكماء المملون عن زمني
فأشير إلى حجر أخضر في طريق دمشق.
وأمشي غريباً.
ويسألني الخارجون من الدير عن لغتي
فأعدُّ ضلوعي وأخطئ
إنِّي تهجَّيتُ هذي الحروفَ. فكيف أركِّبها؟
دال. ميم. شين. قاف.
فقالوا: عرفنا ـ دمشق!
ابتسمتُ. شكوتُ دمشق إلى الشام:
كيف محوت ألوف الوجوه
وما زال وجهكِ واحدْ!

لماذا انحنيت لدفن الضحايا
وما زال صدركِ صاعدْ!
وأمشي وراء دمي. وأطيع دليلي
وأمشي وراء دمي
هذه مهنتي يا دمشق ..
من الموت تبتدئين. وكنت تنامين في قاع صمتي ولا
تسمعين ..
وأعددتِ لي لغةً من رخام وبرق.
وأمشي إلى برَدى، آه مستغرقاً فيه أو خائفاً منه..
إنَّ المسافة بين الشجاعة والخوفِ
حُلْمٌ
تجسَّد في مشنقهْ
آه، ما أوسع القبلة الضيِّقهْ!
وَأرَّخني كاتبان:
العدوُّ
ونهر يعيش على مَهَلِ.
هذه جثتي، وأنا
أفقٌ ينحني فوقكم

أو حذاء على الباب يسرقه النهر
أقصد:
عورةَ طفل صغير يسمّونه
بَرَدى
وسميته مبتدا
وأخبرته أنني قاتل أو قتيل.

تُقَلِّدني العائدات من النَّدَم الأبيضِ
الذاهباتُ إلى الأخضر الغامضِ
الواقفاتُ على لحظة الياسمين.
دمشق! انتظرناكِ كي تخرجي منك
كي نلتقي مرة خارجَ المعجزات
انتظرناكِ ..
والوقت نام على الوقتِ
والحب جاء، فجئنا إلى الحربِ
نغسل أجنحة الطير بين أصابعك الذهبيَّةِ
يا امرأة لونها الزبد العربيُّ الحزين.
دمشق الندى والدماءِ
دمشق النداء

دمشق الزمان
دمشق العرب!
تُقَلِّدني العائداتُ من النَّدَم الأبيضِ
الذاهباتُ إلى الأخضر الغامضِ
الواقفاتُ على ذبذبات الغضب
ويحملك الجند فوق سواعدهم
يسقطون على قدميك كواكبَ
كوني دمشقَ التي يحلمون بها
فيكون العرب.

قلتُ شيئاً، وأُكمله يومَ موتي وعيدي:
من الأزرق ابتدأ البحرُ
والشام تبدأ مني ـ أموت
ويبدأ في طرق الشام أسبوعُ خَلْقي
وما أبعدَ الشامَ، ما أبعد الشامَ عني!
وسيف المسافة حزَّ خطاياي... حز وريدي
فقرَّبني شاهدان:
العدوُّ وموتي

وصرتُ أرى الشام... ما أقربَ الشامَ مني
وقد قلتُ شيئاً، وأُكملُهُ:
كاهنُ الاعترافات ساومني يا دمشقُ
وقال: دمشق بعيدهْ
فكسَّرْتُ كرسيّهُ، وصنعتُ من الخشب الجبلي صليبي
أراك على بُعْدِ قلبين في جسدٍ واحدٍ
وكنتُ أطلُّ عليك خلال المسامير
كنتِ العقيدهْ
وكنتُ شهيد العقيدهْ.
وكنتِ تنامين داخل جرحي
وفي ساعة الصفر، تمَّ اللقاء
وبين اللقاء وبين الوداع
أودِّعُ موتي... وأرحلُ.
ما أجملَ الشامَ، لولا الشامُ، وفي الشامِ
يبتدئُ الزمن العربيُّ وينطفىء الزمن الهمجيُّ
أنا ساعة الصفر دقتْ
وشقَّتْ
خلايا الفراغ على سطح هذا الحصان الكبير الكبير

الحصان المحاصر بين المياه
وبين المياه
أعِدُّ لهم ما استطعتُ
وينشقُّ في جثتي قمرٌ... ساعةُ الصفر دَقَّتْ،
وفي جثتي حبّة أنبتت للسنابلِ
سبع سنابلَ، في كل سنبلةٍ ألفُ سنبلةٍ...
هذه جثتي.. أفرغوها من القمح ثُمّ خذوها إلى الحربِ
كي أنهي الحرب بيني وبيني
خذوها، أحرقوها بأعدائها
خذوها ليتّسع الفرق بيني وبين اتهامي
وأمشي أمامي
ويولد في الزمن العربي... نهار.

تلك صُورتها
وهذا انتحار العاشِق
١٩٧٥

وأريدُ أن أتقمص الأشجارَ:
قد كذب المساء عليه. أشهدُ أنني غطّيتهُ بالصمتِ
قرب البحرِ
أشهدُ أنني ودَّعتُهُ بين الندى والانتحار.

وأُريدُ أن أتقمَّص الأسوارَ:
قد كذب النخيلُ عليه. أشهد أنه وجد الرصاصةَ.
أنه أخفى الرصاصةَ
أنه قطع المسافة بين مدخل جرحه والانفجار.

وأُريد أن أتقمص الحُرَّاسَ:
قد كذب الزمانُ عليه. أشهد أنه ضد البدايةِ

أنه ضد النهايةِ
كانت الزنزانةُ الأولى صباحاً
كانت الزنزانة الأخرى مساءً
كان بينهما نهارٌ.

وكأنَّه انتحر
السماءُ قريبةٌ من ساقِه
والنحل يمشي في الدم المتقدِّمِ
الأمواجُ تمشي في الصَّدى
وكأنه انتحر
العصافيرُ استراحت في المدى
وكأنه انتحرَ
احتجاجاً
أو وداعاً
أو سدى.

وكأنَّه انتحرَ
الظهيرةُ لا تمرُّ ... ولا يمرُّ
كأنه انتحرَ

السماءُ قريبةٌ من ساقِه
والنحلُ يمشي في الدم المتقدِّمِ
البركانُ يُولَدُ بين حبّات الندى.

والصوتُ أسودُ
كنتُ أعرف أن برقاً ما سيأتي
كي أرى صَوتاً على حجر الظلام.
والصوتُ أسودُ
كنتُ في أوج الزفافْ
الطائرات تمرُّ في عرسي
ـ كتبتُ ـ
حبيبتي فحمٌ
ـ كتبتُ ـ
وكنتُ أعرف أنَّ برقاً ما سيأتي
كي يعود المطربون إلى ملابسهم
وإنَّ الطائرات تمرُّ في يومي
أنا المتكلِّم الغائبْ
الطائراتُ تمرُّ في عرسي
فأختزل الفضاءَ، وأشتهي العذراءَ

إنَّ الطائرات تمرُّ في يومي وفي حُلمي تمرُّ الطائرات
فأشتهي ما يُشْتَهى
وأُحبّ قبل الحبّ.

في زمن الدخان يُضيء تُفّاحُ المدينة
تنزل الرؤيا إلى الجدرانِ
في زمن الدخان يخبّىء السجّانُ صورته..
رأيتُ رأيتُ عصفورين يحتلّان قُبَّعةً
رأيت الذكريات تفرُّ من شُبّاك جارتنا
وتسقط في جيوب الفاتحين..
وأشتهي ما يُشتهى
والطائراتُ تمرّ
والزمن المُكَلّس ينتهي في الانهياراتِ
الأصابعُ ظلٌّ ذاكرة على الجدرانِ
والدمُ نقطةٌ أو بذرةٌ
لا لون لي
لا شكل لي
لا أمس لي
إن الشظايا حاصرتني

فاتَّسعتُ إلى الأمام
وصرتُ أعلى من مدينتنا. أنا الشجر الوحيدُ
أنا الشظايا و... الهدايا

أرتديكِ، وأخلع الأيامَ
لا تاريخ قبل يديكِ
لا تاريخ بعَد يديكِ
سمّوكِ البديل
لأنّ لون الثورة احتلَّ الكآبةَ
والغزاة يمشِّطون يديكِ من آثار ظهري.
أرتديكِ، وأخلعٌ الأيامَ
سمّوكِ البديل
وبدَّلوكِ
كأنَّ أغنيةً تغيِّرُ أو تطهِّرُ أو تدمِّرُ أو تفجِّرُ.
هم يبحثون عن البكارة خندقاً
ويمارسون الغزو ضد الغزو في خلجان جِسمكِ
أرتديكِ .. وأخلع الأيامَ
سمّوك البديلَ
وهم ضحاياكِ.

اتَّسعْتُ إلى الأمام، وصحت بالأيام:
لي يومٌ
وخطوتُها
أنا ضدّ المدينةِ:
في زمان الحرب غطَّتني الشظيَّةُ
في زمان السلم غطّاني العراءْ:
عادوا إلى يافا. ولم أذهب
أنا ضد القصيدةِ:
غَيَّرَتْ حزن النبيِّ ولم تغيِّر حاجتي للأنبياءْ.
والطائراتُ تعود من عرسي. تغادرني بلا سببٍ،
فأبحثُ عن تقاليدي، وموتايَ الذين يحاصرون الليل،
يقتربون من صدري، ويزدحمون في صدري
ولا يَصلون لا يصلون
كان يصيح بالأسوار:
لي يومٌ
وخطوتُهم
وكان البحر يرحل في المساءْ

وحضرتُ في جرحي وقمحك

لا لذاكرتي
ولا لقصيدة الآثارِ
لا لبكائك الصفصافِ
لا لنبوءة العرَّافِ
يومُكِ خارج الأيام والموتى
وخارج ذكريات اللّه والفرح البديل.

حدَّقْتُ في جرحي وقمحكِ
للأشعَّة فيهما وطنٌ يدافع عن مسافته،
ويسقط عندما نمضي
ونسقط عندما نبقى حدوداً للأشعّةِ
والمدينةُ قرب حنجرتي تغني حين تسقط في مرايا النهرِ
صوتي ليس لافتةً
ولكني أُسَمِّيك البديل.

حدَّقتُ في جرحي
سأتَّهِمُ المدينةَ بالعذوبة والجمال الشائع الموروثِ
من جبل جميل.
هبطتْ نساء من قشور الضوءِ

جاء البحرُ من نومي على الطرقاتِ
جاء الصيف من كسل النخيل.
أحصيتُ أسباب الوداعِ
وقلتُ:
ما بيني وبين اسمي بلادٌ
ليس لي لغةٌ
ولكني أُسمّيك البديل.

ضدُّ العلاقةِ:
أن يجيء الوجهُ مثل الزرقة الخضراءِ
أن يمضي لأرسمه على جدران هذا السجن
أن يغزوَ شراييني ويخرج من يدي -
هذا هو الحبُّ الجميل.
وأُحبُّ أن تأتي لتمضي.
طائراتٌ
طائراتٌ
طائراتٌ.
حاور السجّانُ صمتي
قال صمتي برتقالاً
قال صمتي هذه لغتي

وأرّختُ اللقاء.
الصخرُ يهتف لاسمكِ الوحشيّ كُمَّثرى
وأسأل: هل تزوّجتِ الجبال
ووصمتني بالعار والسفح البطيء؟

وأُصدِّقُ الراوي، وأنكسرُ:
الرجالْ
يبقون كالندم... الخطيئة... والبنفسج فوق أجساد النساءْ.
وأُصدِّق الراوي، وأنفجرُ:
النساءْ
يذهبن كالعنب... الغبار... وضربة الحُمّى
عن الذكرى وأجساد الرجال.

وأُصدِّقُ الراوي
ولا أجد الإشارة والدليل
وأُكذِّبُ الراوي
ولا أجد البنفسج والحقول.
إنَّ الدروبَ إليكِ تختنقُ...
الدروب إليك تحترقُ...
الدروبَ إليك تفترقُ...

الدوربَ إليك حبلٌ من دمي
والليلُ سقفُ اللصِّ والقدّيسِ
قُبّعةُ النبيِّ وبزّة البوليس
أنتِ الآن تَتَّسعين
أنت الآن تتسعين
أنت الآن تتسعين
أرسمُ جثتي ويداك فيها وردتانْ
بيني وبينكِ خيمة أو مهرجان
بيني وبينك صورتان.
وأُضيف كي تنسي وكي تتذكَّري:
بيني وبين اسمي بلاد.
حاور السجّانُ صوتي
قال صوتي: طائرات طائرات طائرات.
سجّانُ! يا سجّانُ
لي وجهٌ يحاول أن يراني
سجّانُ! يا سجّانُ
لي وجه أحاول أن أراهْ
لكنهم عادوا إلى يافا، ولم أذهب
أنا ضدّ القصيدةِ

ضدّ هذا الساحل الممتدٌ من جرحي
إلى ورق الجريدهْ.
كثر الحياديون. أو كثر الرماديّون
قال البرتقال: أنا حيادي رماديّ
وقال الجرح: ما أصلُ العقيدةِ؟
قلتُ: أن تبقى وأمشي فيكَ كي أُلغيك...
كي أشفيكَ منّي.
والسجن يتّسع، البحار تضيق.

أشهدُ أنني غطيتُهُ بالصمت قرب البحر
أشهدُ أنني ودَّعته بين الندى والانتحار.
والطائراتُ تمرُّ في يومي
كأن الحرب عاداتٌ ولم أذهب إلى الحرب الأخيرةِ.

يخلع السجّان ألواني ويعطيني زماني كي أفكّر فيكِ أو بكِ
كان يسألها ويسألها ويسألها:
متى تأتين من ساعات هذا السجن أو رئتي؟
متى تأتين من يافا ولا أمضي إلى بلدي؟
متى تأتين من لغتي؟

متى تأتين كي نمضي إلى جسدي!

أنا ضدّ العلاقةِ:
مرَّ عصفورٌ وغطّاني وسافَر
مرَّ عصفور وجمَّدني على الأحجار ظلّا
هل يعيشُ الظلُّ؟
جاء الليل. جاء الليل. جاء الليلُ
من يدها ومن نومي.

أنا ضدّ العلاقة:
تشرب الأشجارُ قتلاها وتنمو في ضحاياها
أنا ضدّ العلاقةِ:
أن تكون بدايةُ الأشياء دائمة البداية
هذه لغتي.
أنا ضدّ البدايةِ:
أن أواصل نهر موسيقى تورّخني وتفقدني تفاصيل الهوية
هذه لغتي.
أنا ضد النهايةِ:
أن يكون الشيء أوَّله وآخره وأذهبُ ـ
هذه لغتي..

وأشهدُ أنه مات، الفراشة، بائع الدم، عاشق الأبواب.
لي زنزانةٌ تمتدُّ من سنة إلى ... لغةِ
ومن ليل إلى ... خيلِ
ومن جرح إلى ... قمحِ
ولي زنزانة جنسيَّةٌ كالبحرِ
قال: حبيبتي موجٌ
وأمضى عمره في الحائط المتموِّجِ... السقف القريبِ
وحلمه الهاربْ
أنا المتكلّم الغائب
سأنتظرُ انتظاري. كنتُ أعرفني
لأنَّ طفولتي رجلٌ أُحِبُّ ...
أُحبُّ إمرأةً تمرُّ أمام ذاكرتي ونيراني،
ولا تبقى ولا تمضي.
أُحبُّ يمامةً سمَّيتُها بلداً.
أنا ضدّ العلاقة، والبداية، والنهاية، ضدّ أسمائي.
أنا المتكلّم الغائبْ
يغيبُ ـ رأيتُ عينيها
شهدْتُ سقوط نافذتي.

سماويٌّ هو البحر الذي سَرَقَ الشوارع
من يديها قُرْبَ ذاكرتي.
يغيبُ ـ
وإنَّ أجراساً تدقُّ على المسافة بين خطوتها ومذبحتي.
سماويٌّ هو البحر الذي سرق الرسائلَ
من يديها قرب ذاكرتي.

وأحضرُ ـ من وراء الشيء عبر الشيء
أحضرُ ملءَ قُبلتها على مرأى من النسيان
أحضرُ من خلاياها
ومن عامودها الفقريِّ أحضرُ
من إصابتها ببرق الشهوة العسليّ
أحضرُ ملء رعشتها
على مرأى من النسيان
لي زَمَنٌ تؤرِّخُهُ بذورُ الجنس والعشبُ الذي يمتدّ
خلف الشيء والنسيان
أحضرُ
كنتُ شاهدَهُ وشاهدها
وصرت شهيده وشهيدها

آتي من الشهداءْ
إلى الشهداء
أنا المتكلِّم الغائبْ
أنا الحاضر
أنا الآتي.

والصوتُ أخضرُ
إنَّ شلاّل السلاسل والبلابل يلتقي في صرخة
أو ينتهي في مقبرهْ
والصوتُ أخضرُ.
قال لي أو قُلْتُ لي: أنتم مُظَاهَرَةُ البروق
وهم نشيد الاعتدال
والصوتُ موت المجزرهْ.
ضدَّ القرنفل... ضدَّ عطر البرتقال
ومع التراب... مع اليد الأخرى،
مع الكفِّ التي تلج السلاسلَ والسنابلَ
كدتُ أنسى. كاد ينسى التسميهْ:
أنتم جذوع البرتقال
وهُمُ نشيد الاعتدال.

والله لا يأتي إلى الفقراء، إذ يأتي، بلا سببٍ
وتأتي الأبجديةُ معولاً أو تسليهْ.
عادوا إلى يافا، وما عدنا
لأنَّ الله لا يأتي بلا سببِ
ذهبنا نحو يافا ـ الأمنيهْ.
يا أصدقاء البرتقال ـ الزينة اتّحدوا!
فنحن الخارجين على الحنين... الخارجين على العبير
نسير نحو عيوننا ... ونسير ضد المملكهْ
ضدَّ السماء لتحكم الفقراءَ
ضدَّ محاكم الموتى
وضدَّ القيد قومياً
وضدَّ وراثة الزيتون والشهداءِ

نحن الخارجين من العراء لتلبس الأشجارُ أثوابَ السماء نسير
ضدَّ المملكهْ
ضدَّ المغنّي حين يرضى
ضدَّ اعتقال المعركهْ!
والصوتُ أخضرُ...
كان ينتظر المفاجأة ـ الجدارَ

يقول: يومٌ ما سيأتي من هواء البحرِ،
أو من خصرها المشدود بين الماء والأملاحِ
آخُذُ موجَةً وأُعيدُ تركيبَ العناصر:
خصرَها
يدَها
نُعاسَ جفونها
وبُروقَ ركبتها.
سآخذ موجةً وتكون صورتها وأُغنيتي.
وأشهدُ أنه قطع المسافة بين مدخل جرحه والانفجار.

الأرضُ تبدأ من يديهِ
وكان يرمي الأرض بالأحلامِ
قنبلتي قرنفلتي
وحاول أن يموت فلم يَفُزْ بالموتِ
كان محاصراً بتشابِهٍ يعطي المساء مداه. ينتظر النتيجة:

كان لي يومٌ يكونْ
وفراشةٌ بَنَتِ السجون

والأرض تبدأ من يديهِ. وكان ضد الأرض...

ضد مساحة الصدَف التي تأتي وتذهب في الفصول.
المستحيل هويَّتي
وهويَّتي ورق الحقول.

والأرض تبدأ من يديه، كأنني سجّان نفسي.
غاصتِ الجدرانُ في عضلاته ومحاولاتُ الانتحار.
يا من يحنُّ إليك نبضي
هل تذكرين حدود أرضي!

والأرض تبدأ من يديه، ومن زغاريد القرى البيضاءِ
تبدأ من دفاتر صِبْيَةٍ يتعلمون
الأبجديةَ فوق ألغام الحروب وخلف أبواب النهار:

جاء وقتُ الانفجارْ
وعلى السيف قمرْ
وطني ليس جدارْ
وأنا لستُ حجرْ

والأرض تبدأ من يديه ومن نهايتها.
ويسأل: أين وقتي؟

قال: إنَّ الوقت من قمحٍ
وقال: رصاصةٌ أولى تثير الأرض توقظها، فتنكشف
الفضائحُ والعصافيرُ العنيفةُ واحتمالاتُ البداية.
من هنا... من هذه الأجراس في جدران سجني
يبدأ الوقت الفدائي
أُخرجي من أيِّ ضلعِ
خنجراً أو سوسنهْ
وادخلي في أي ضلعِ
خنجراً أو سوسنهْ.

والأرض تبدأ من نسيج الجرح - أشبهُها
وأمشي فوق رأس الرمح - تشبهني
وأمشي في لهيب القمح
واشتعلتْ يداهُ
فرأى يدين جديدتين
يدين حافيتين
هل سقط الجدار؟
سقطتْ كواكبُ فوق عينيه، فغنّى أو تنفس:

إن قنبلتي قرنفلتي
أُريد الانتحار الانتحار الانتحار.

ـ من أين يبدأ جسمُهُ؟
* من كلِّ قيد وانكسار
قال للبركان: يا بيتي البديل
وجدتُ وقت الانفجار.

والياسمينُ اسمٌ لأمي: قهوةُ الصبحِ.
الرغيف الساخنُ. النهرُ الجنوبيُّ، الأغاني
حين تتَّكىء البيوتُ على المساء
أسماء أمي.

ـ من أين تبدأ أرضُهُ؟
* من جسمه المحتلِّ بالمستعمرات.
الطائرات. الانقلابات. الخرافات. الأناشيدِ
الرديئةِ، والمواعيد البطيئةْ.
والياسمين اسمٌ لأمّي. باقةُ الزَّبَدِ.
الأغاني حين تنحدر الجبال إلى الخريف. القطنُ.

أصواتُ البواخر حين تمخرني،
وأسماء السبايا والضحايا.
أسماءُ أمي.

ـ من أين يبدأ صوتُهُ؟!
* من أوَّل الأيام حين تبارَزَ الحكماء في مدح النظام
ومُتعة السَّفر البعيد
فأتى ليرميهم بجُثَّتِهِ
وكان دويّها ... والأنبياء،
لكُمْ انتصاراتٌ ولي حُلمٌ
دمي يمشي وأتبعه ـ إليها
لكُمْ، انتصارات ولي يومٌ
وخطوتُها ...
فيا دَميَ اختصرني ما استطعتْ.

وأُريدها:
من ظلِّ عينيها إلى الموج الذي يأتي من القدمين،
كاملة الندى والانتحارِ.
وأُريدها:

شجرُ النخيل يموت أو يحيا.
وتتَّسع الجديلةُ لي
وتختنق السواحلُ في انتشاري
وأُريدها:
من أَوَّل القتلى وذاكرةِ البدائيّين
حتى آخر الأحياء
خارطةً
أُمزِّقها وأُطلِقها عصافيراً وأشجاراً
وأمشيها حصاراً في الحصار.
أمتدُّ من جهة الغد الممتدِّ من جهة انهياراتي العديدة
هذه كفّي الجديدة
هذه ناري الجديدة
وأُمعْدنُ الأحلام
هل عادوا إلى يافا ولم تذهبْ؟
سأذهب في دمي الممتد فوق البحر فوق البحر فوق البحر
هل بدأ النزيف؟
أُريدها.
قد أحرقتني من جهات البحرِ،

والحُرّاسُ ناموا عند زاوية الخريف.
والوقتُ سرداب وعيناها نوافذ عندما أمشي إليها.
والوقت سرداب وعيناها ظلام حين لا أمشي إليها.
وأُريدها
زمني أصابعها. أعود ولا أعود
أُسرِّحُ الماضي وأعجنه تراباً
ليست الأيام آباراً لأنزلَ
ليست الأيام أمتعةً لأرحلَ
لا أعودُ ...
لأنها تمشي أمامي في يدي.
تمشي أمامي في غدي.
تمشي أمامي في انهياراتي.
وتمشي في انفجاراتي.
أعودُ ...
لأنها ذرَّاتُ جسمي. أيُّ ريح لم تبعثرني على الطرقات
كان السجن يجمعني. يُرَتِّبني وثائقَ أو حقائق.
أَيُّ ريح لا تبعثرني
أعودُ ...

لأنها كفني. أعودُ لأنها بدني
أعود
لأنها
وطني
أعود

حين انحنتْ في الريحِ
قال: تكون قنطرةً وأعبرها إليها
وبنى أصابعه من الخشب المخبَّأ في يديها.
البندقيّةُ والفضاء وآخر القتلى. سأدفن جُثّتي في راحتيها.
وستضرمين النار.
قالت: أين كنتَ؟
ففرَّ من يدها إلى اليوم المرابط خلف قامتها.
وغنّى: أيها النّدَمُ اختصرني بندقيّهْ
قالت: لتقتلني؟
فقال: لكي أُعيد لي الهويَّهْ

وقفتْ، كعادتها، فعاد من انحناءتها إلى قدميهِ
كان طريقهُ طرقاً وكان نزيفُهُ أفقاً

وكان يدور في الماضي ولا يجد اليدين وكان يحلم باكتمال
الحلمِ

ما بيني وبين اسمي بلادٌ
حين سمّيت البلاد فقدتُ أسمائي. وحين مررتُ باسمي
لم أجد شكل البلاد
الحلم جاء الحلم جاء وكان يسأله:
مَنِ الأصلُ العيون أم البلاد؟

قال المغنّي للضفاف:
الفرقُ بين الضفتين قصيدتي.

قال المهاجر للوطنْ:
لا تنسني.
والياسمينُ اسمٌ لأمّي. والزمنْ
عشبٌ على الجدرانِ
قال البحر. قال الرمل. قال البيت. قال الحقل. قال
الصمتُ.
لكنَّ المغنّي قال قرب الموت:

إنَّ الفرق بين الضفتين قصيدتي
وأَرادَ أن يلغي الوطن
وأراد أن يجد الوطن.
هل تُكلمين البحر؟
هل تأتين من ساعات هذا الموج
أم تأتين من رئتي... وهل تأتين؟
هل نمشي على السكين برقاً
أم دماً نمشي؟
أحبُّكِ... أم أحبُّ نتيجتي في حُبِّكِ التكوين؟
قد قالت ليَ الأيّامُ
إذهب في الزمانِ
تجد مكانك جاهزاً في وقت عينيها
فقلتُ: العمرُ لا يكفي لقُبلتها
وهذا العمر...
قد قالت ليَ الأيامُ
إذهب في المكانِ
تجد زمانك عائداً في موج عينيها
فقلت: الجسمُ لا يكفي لنظرتها

وهذا البحر
ما اسمُ الأرض؟
بحرٌ أخضرٌ. آثار أقدام. دويلاتٌ. لصوص. عاشقات.
أنبياء. آهِ ما اسمُ الأرض؟
شكلُ حبيبة يرميكَ قرب البحر.
ما اسمُ البحر؟
حدُّ الأرض. حارسُها. حصار الماء. أزرقُ أزرقُ
امتدَّتْ يدانِ إلى عناق البحر فاحتفل القراصنةُ
البدائيّون والمتحضرون بجُثَّةٍ. فصرختُ: أنت
البحرُ. ما اسم البحر؟
جسمُ حبيبة يرميك قرب الأرض.

قد قالت لنا الأيّام:
تلتقيان . تلتحمان. تنهمران
قلت: لها انفجاراتٌ
كأنّ البرتقال لهيبُها الأبديُّ
تنفجرين. تنفجرين. تنفجرين في صدري وذاكرتي.
وأقفز من شظاياك الطليقة وردةً، ورصاصةً
أولى، وعصفوراً على الأفق المجاورْ

ولي امتدادُ في شظاياك الطليقة.
إنَّ نهراً من أغاني الحب يجري في شظيَّةْ.
قد بعثرتني الريحُ، فاختنقتْ بأصوات الملايينِ
ارتفعتُ على الصدى وعلى الخناجر.
شكراًا! أَنامُ على الحصى فيطير
شكراً للندى.
وأمرُّ بين أصابع الفقراء سنبلةً، ولافتةً، وصيغةَ بندقيَّةْ.
ضدَّ اتجاه الريحِ
تنفجرين تنفجرين في كل اتجاهِ
تنتهي لُغَةُ الأغاني حين تبتدئين
أو تجدُ الأغاني فيك معدنها... رصاصتها... وصورتها
أقول: البحرُ لا
والأرض لا
بيني وبينك «نحنُ».
فلنذهب لنلغينا ويتَّحد الوداع.

أَلآن أُغنيتي تَمُرُّ..
تَمُرُّ أُغنيتي على أُفقٍ نبيذيّ.
ويسقط في أغانيك البياض.

الآن أغنيتي تمرّ.. تمرُّ أغنيتي على مُدُن السواد.
فتسرِّحين الشَّعر، أو تتناثرين على الخرائط والبلاد.
والآن أُغنيتي تمرّ...
تمرُّ أغنيتي على حَجرٍ فيزهر في يديكِ اسمي ويتَّحد اللقاء
ماتوا ولا تدرين. لكنّ الجدار يقول ماتوا في تساقطه
ولا تدرين. ماتوا..
تلك أُغنيتي ووجهك طائرٌ ومدى
يودِّعني الوداع
وساعةُ الدم دقّت الموتى
وموعدَنا النحاسيَّ، الدخانيَّ، الحريريَّ المزوَّد بالزلازل
والمقيَّدَ بالجدائل.
الآن تنتحرين... تنتصرين... تنطفئين... تشتعلين في
الميدان والنسيان
دَقَّتْ ساعةُ الدَّمِ
دقَّتِ الموتى
ليفتتحوا نشيدَ الفرق بين العشق واللغة الجميلهْ.
هو أنتِ
أنتِ أنا

يغيبُ الحاضر العلنيُّ
يأتي الغائب السريُّ..
يلتحمان ..
يتحدان في المتكلّم المفقود بين البحر والأشجار والمدن
الذليلهْ.
والآن أشهد أنني غطَّيته بالصمت قرب البحر ...
أُشهد أنني ودعته بين الندى والانتحار.

قال: انتحرتُ. وردَّ معتذراً: أتيتُ.
وقال حارسُهُ الزمانيُّ: انتحاركَ انتصار.
الانتحار ـ الانتصار يمدُّ جسراً
هكذا يبنون جسراً
قال: ماتوا
ردَّ معتذراً: لقد وضعوا حدود الانتحار.
والآن أغنيتي تمرُّ... تمرُّ أغنيتي
وتلتحق الخطى بدمي
دمي المتقدِّمِ
الفتياتُ تخرجُ من أزيز الطائراتِ
البحرُ يخرج من خدوش الأسطواناتِ

المدينةُ قد أعدَّتْ عُرْسها

وجنازتي

وتمرُّ أغنيتي، وترمي عادةَ الأزهار في الأنهار.

سيِّدتي! سأُهديك انتحاري الساطعَ اختصري نعاسكِ

وانفجار الشارعِ، اختصري المسافة بين

سكّيني وصدري

واستقرّي أنتِ بينهما بلاد.

النهرُ يعفيني من التاريخ

والجلاّد أعفاني من الذكرى

فأنسى حصَّتي من جثتي الأُخرى

وأُهديك التتمَّة والحوار.

قال: انتحرتُ.

وردَّ معتذراً: أتيت.

وقال حارسه: رأيتُ القمح ملءَ يديه.

عند الانتحار

كانت يداهُ خريطتين: خريطةٌ للحلم تمطر حنطةً

وخريطةٌ لمحاورات الانتظار

والطائرات؟ سألتُ

قال: تمرُّ في يومي القديم، يحَلِّقُ الأطفال، يبتهجون
في السنة الجديدة، يجعلونَ البحر أصغر من زوارقهم،
أنا أعتاد هذا الموت، أعتاد الرحيل إلى النهار.

والآن أشهد أنه قطع المسافة بين مدخل جرحه والانفجار.

الحلمُ يأخذ شكله
فيخاف
لكنَّ المدينة واقفهْ
في أوج قيدي
وانفجار العاصفهْ
مَطرٌ على خيلٍ
وأعددنا لك الفرح الترابيَّ الجديد
خيلٌ على ليلٍ
وأعددنا لك الفصح الخواتم والنشيد
والحلم يأخذ شكله
ويصير صورتك العنيفهْ
موتي: أو اختصري هنا موتاكِ
كوني ياسميناً أو قذيفهْ

والحلم يأخذ شكله
فيخاف
لكنَّ المدينة واقفهْ
في قمَّة الجرح الجديد
وفي انفجار العاصفهْ.
ماذا تقول الريح؟
نحن الريح نقتلع المراكب والكواكب
والخيام مع العروش الزائفهْ

ماذا تقول الريحُ
نحن الريحُ
ننشر عارنا
ونُطيل عمر العاصفهْ.
ليلٌ على موتٍ

وأعددنا لك المهدَ الحضانةَ والجبلْ
والحلم يشبهنا
ويشبهكِ المغنّي والمنادي والبطلْ
والحلم يأخذ شكله
فيخاف

لكنَّ المدينة واقفهْ
في شعلة النار الطليقة
في شرايين الرجال
ذوبي! أو انتشري رماداً أو جمال
ماذا تقول الريح؟
نحن الريح
نحن الريح
نحن الريح...

أعـراس

١٩٧٧

أعـراس

عاشقٌ يأتي من الحرب إلى يوم الزفافْ
يرتدي بدلتَهُ الأولى
ويدخلْ
حلبة الرقص حصاناً
من حماس وقرنفلْ

وعلى حبل الزغاريد يُلاقي فاطمةْ
وتُغنّي لهما
كل أشجار المنافي
ومناديل الحداد الناعمةْ

ذَبَّلَ العاشقُ عينيه
وأعطى يَدَهُ السمراء للحنّاء
والقطن النسائيّ المقدس

وعلى سقف الزغاريد تجيء الطائرات
طائرات
طائرات
تخطفُ العاشقَ من حضن الفراشهْ
ومناديل الحداد
وتُغنّي الفتيات:
قد تزوَّجْتَ
تزوجت جميع الفتيات
يا محمَّدْ!
وقضيتَ الليلة الأولى
على قرميد حيفا
يا محمد!
يا أمير العاشقين
يا محمد!
وتزوَّجتَ الدوالي

وسياج الياسمين

يا محمد!

وتزوَّجتَ السلالمْ

يا محمد!

وتقاوم

يا محمد!

وتزوَّجْتَ البلاد

يا محمد!

يا محمد!

كان ما سوف يكون

إلى راشد حسين

في الشارع الخامس حيّاني. بكى. مال على السور
الزجاجي، ولا صفصاف في نيويورك.
أبكاني. أعاد الماءَ للنهر. شربنا قهوة. ثم افترقنا في
الثواني.

منذ عشرين سنهْ
وأنا أعرفه في الأربعينْ
وطويلاً كنشيدٍ ساحليٍّ، وحزينْ
كان يأتينا كسيف من نبيذٍ. كان يمضي كنهايات
صلاهْ
كان يرمي شِعْرَهُ في مطعم «خريشتو»

وعكا كلها تصحو من النومِ
وتمشي في المياه
كان أُسبوعاً من الأرض، ويوماً للغزاهْ
ولأمي أن تقول الآن: آه!

ليديه الوردُ والقيدُ. ولم يجرحْهُ خلفَ السور إلّا
جرحُهُ السيِّدُ. عُشّاقٌ يجيئون ويرمون المواعيد.
رفعنا الساحل الممتدَّ. دشَّنا العناقيدَ. اختلطنا في
صراخ الفيجن البريِّ. كسرنا الأناشيد. انكسرنا
في العيون السود. قاتلنا. قُتلنا. ثم قاتلنا. وفرسان
يجيئون ويمضونَ.

وفي كل فراغْ
سنرى صمت المغني أزرقاً حتى الغيابْ
منذ عشرين سنهْ
وهو يرمي لحمه للطير والأسماك في كل اتجاه
ولأمّي أن تقول الآن: آه!

إبنُ فَلاّحَيْنِ من ضلع فلسطينَ

جنوبيٌّ
شقيٌّ مِثل دوريٍّ
قويّ
فاتحُ الصوتِ
كبير القدمين
واسع الكفِّ. فقيرٌ كفراشةْ
أسمرٌ حتى التداعي
وعريض المنكبين
ويرى أبعدَ من بوابة السجن
يرى أقرب من أطروحة الفن
يرى الغيمة في خوذة جنديّ
يرانا، ويرى كرت الإعاشةْ
وبسيطٌ .. في المقاهي واللغةْ
ويحب الناي والبيرةَ
لم يأخذ من الألفاظ إلّا أبسط الألفاظ
سهلاً كان كالماء.
بسيطاً ... كعشاء الفقراء.

كان حقلاً من بطاطا وذرةْ

لا يحبّ المدرسةْ
ويحب النثر والشعر
لعلّ السهلَ نثرٌ
ولعل القمحَ شعرٌ.
ويزورُ الأهلَ يومَ السبتِ
يرتاح من الحبر الإلهي
ومن أسئلة البوليسِ.
لم ينشر سوى جزئين من أشعاره الأولى
وأعطانا البقيةْ
شوهدت خطوتُهُ فوقَ مطار اللد من عشر سنين
واختفى ...

كان ما سوف يكونُ
فضحتني السنبلةْ
ثم أهدتني السنونو
لعيون القَتَلَةْ

.. شاحباً كالشمس في نيويورك:
من أين يمرُّ القلب؟ هل في غابة الإسمنت ريش لحمام؟

وبريدي فارغٌ. والفجر لا يَلْسَعُ.
والنجمةُ لا تلمع في هذا الزحام.

ومسائي ضيِّقٌ. جسم حبيبي ورقٌ. لا أحد حول
مسائي «يتمنى أن يكون النهرَ والغيمةَ».. من
أين يمر القلب؟ مَنْ يلتقط الحلم الذي يسقط قرب
الأوبرا والبنك؟ شلاّلُ دبابيسَ سيجتاح الملذاتِ
التي أحملها.

لا أحلم الآن بشيء
أشتهي أن أشتهي
لا أحلم الآن بغير الانسجام
أشتهي
أو
أنتهي
لا. ليس هذا زمني

شاحباً كالشمس في نيويوركَ
أعطيني ذراعي لأعانقْ

ورياحي لأسير.
ومن المقهى إلى المقهى. أُريد اللغة الأخرى
أُريد الفرق بين النّار والذكرى
أُريد الصفَةَ الأولى لأعضائي
وأعطيني ذراعي لأعانق
ورياحي لأسير

ومن المقهى إلى المقهى
لماذا يهرب الشعر من القلب إذا ما ابتعدتْ يافا؟ لماذا؟
تختفي يافا إذا عانقتُها؟
لا ليس هذا زمني.

وأُريد الصفة الأولى لأعضائي
وأعطيني ذراعي لأعانق
ورياحي لأسير
... واختفى في الشارع الخامس، أو بوابة القطب
الشماليّ. ولا أذكر من عينيه إلّا مدناً تأتي وتمضي.
وتلاشى، وتلاشى ...

والتقينا بعد عام في مطار القاهرة

قال لي بعد ثلاثين دقيقة:
«ليتني كنتُ طليقاً
في سجون الناصرة»

نام أسبوعاً. صحا يومين. لم يذهب مع النيل إلى الأرياف
لم يشرب من القهوة إلّا لونَها.
لم يرَ المصريَّ في مصرَ
ولم يسأل سوى الكُتّاب عن شكل الصراع الطبقيّ
ثم ناداه السؤال الأبديّ الاغتراب الحجريّ
قلت: من أيِّ نبيٍّ كافرٍ قد جاءكَ البعدُ النهائيّ؟

بكى من كَسَلٍ في نظراتي. هل تغيَّرْتَ؟
تغيَّرتُ. ولم تذهب حياتي
عبثاً.
مال إلى النيل وقال: النيل ينسى؟
قلت: لا ينسى كما كنا نظنُّ
وتذكَّرنا معاً إيقاعنا الماضي
وموجاتِ السنونو فوق كفٍّ تقرع الحائطَ
والأرضَ التي نحملها في دمنا كالحشرات

وتذكرنا معاً إيقاعنا الماضي وموتَ الأصدقاءْ
والذين اقتسموا أيامنا، وانتشروا
لم يحبّونا كما كُنَّا نشاء
لم يحبونا ولكن عرفونا ..
كان يهذي عندما يصحو. ويصحو عندما يبكي
ويمشي كخيامٍ في البعيد العربيّ
ذهب العمر هباء
وفقدتُ الجوهريّ
واختفى قرب غروب النيل
أعددتُ له مرثية أخرى وجنّاز نخيلْ

يا انتحاري المتواصلْ
أوقف العمر لكي نبدأ من أي رحيلْ
وتأجَّجْ كنباتات الجليل
وتوهَّجْ كقتيل

يا انتحاري المتواصل
قف على ناصية الحلم وقاتلْ
فَلَكَ الأجراسُ ما زالت تدقُّ

ولك الساعةُ ما زالت تدقُّ
وتلاشى مرة أخرى
وخانتني الغصونُ
كان ما سوف يكونُ
فضحتني السنبلهْ
ثم أهدتني السنونو
لسيوفِ القتَلهْ

كانت نيويورك في تابوتها الرسمي تدعونا إلى تابوتها.
في الشارع الخامس حيّاني. بكى. مال على نافورة
الإسمنتِ. لا صفصاف في نيويورك. أبكاني.
أعاد الظلَّ للبيت. اختبأنا في الصدى. هل مات
منا أحدٌ؟ كلاّ. تغيَّرتَ قليلاً؟ لا. هل الرحلة
ما زالت هي الرحلة والميناءُ في القلب؟. نعم.
كان بعيداً وبعيداً ونهائيَّ الغيابْ
دَخَّنَ الكأسَ ..
تلاشى
كغزالٍ يتلاشى
في مروج تتلاشى في الضبابْ

ورمى سيجارة في كبدي وارتاحَ
لـم ينظر إلى الساعةِ
لم يسرقْهُ هذا القَمَرُ الواقفُ تحت الطابق العاشر في
منهاتنَ. التفَّ بذكراهُ.. تغشّاه رنينُ الجرس
السريّ. مَرَّتْ بين كفينا عصافيرُ عصافيرُ وموتٌ
عائليّ. ليس هذا زمني. عاد شتاءٌ آخر. ماتتْ
نساءُ الخيل في حقل بعيد. قال إن الوقت لا يخرج
مني. فتبادلتُ وقلبي مُدُناً تنهار من أوَّل هذا
العمر حتى آخر الحلمِ ...
أنبقى هكذا نمضي إلى الخارجِ في هذا النهار البرتقالي
فلا نلمس إلّا الداخلَ الغامضَ؟
من أين أتيتَ؟
إخترقتْ عصفورةٌ رمحاً
فقلتُ اكتشفتْ قلبي
أنبقى هكذا نمضي إلى الداخل في هذا النهار البرتقاليّ
فلا نلمس إلّا شرطة الميناء؟

يهذي خارج الذكرى: أنا الحامل عبءَ الأرض،
والمنقذ من هذا الضلال. الفتياتُ انتعلتْ روحي

وسارت. والعصافيرُ بَنَتْ عُشّاً على صوتي وشَقَّتني
وطارت في المدى ..
لم يتغيَّرْ أيٌّ شيء
والأغاني شردتني شردتني
ليس هذا زمني.
لا، ليس هذا وطني.
لا ليس هذا بدني.

كان ما سوف يكونُ
فضحته السنبلهْ
ثم أهدته السنونو
لرياح القَتلهْ ..

أحمد الزعتر

ليدين من حَجَر وزعترْ
هذا النشيدُ.. لأحمدَ المنسيِّ بين فراشتين
مَضَتِ الغيومُ وشرَّدتني
ورمتْ معاطِفها الجبالُ وخبأتني

.. نازلاً من نحلة الجرح القديم إلى تفاصيل
البلاد وكانت السنةُ انفصال البحر عن مدن
الرماد وكنتُ وحدي
ثم وحدي ...
آه يا وحدي؟ وأحمدْ
كان اغترابَ البحر بين رصاصتين

مُخيّماً ينمو، وينُجب زعتراً ومقاتلين
وساعداً يشتدُّ في النسيان
ذاكرةً تجيء من القطارات التي تمضي
وأرصفةً بلا مستقبلين وياسمين
كان اكتشافَ الذات في العرباتِ
أو في المشهد البحريِّ
في ليل الزنازين الشقيقةِ
في العلاقات السريعة
والسؤال عن الحقيقةْ
في كلِّ شيء كان أحمدُ يلتقي بنقيضهِ
عشرين عاماً كان يسألْ
عشرين عاماً كان يرحلْ
عشرين عاماً لم تلده أمُّهُ إلّا دقائقَ في
إناء الموز
وانسَحَبَتْ.
يريد هويةً فيصاب بالبركانِ،
سافرتِ الغيومُ وشرَّدتني
ورَمَتْ معاطفها الجبالُ وخبَّأتني

أنا أحمد العربيُّ ـ قالَ
أنا الرصاصُ البرتقال الذكرياتُ
وجدتُ نفسي قرب نفسي
فابتعدتُ عن الندى والمشهد البحريّ
تل الزعتر الخيمةْ
وأنا البلاد وقد أتَتْ
وتقمَّصتْني
وأنا الذهاب المستمرُّ إلى البلاد
وجدتُ نفسي ملءَ نفسي ...

راح أحمدُ يلتقي بضلوعه ويديه
كان الخطوةَ ـ النجمةْ
ومن المحيط إلى الخليج، من الخليج إلى المحيط
كانوا يُعدّون الرماحَ
وأحمدُ العربيُّ يصعد كي يرى حيفا
ويقفزَ.
أحمدُ الآن الرهينةْ
تركتْ شوارعَها المدينةْ
وأتتْ إليه

لتقتلهْ

ومن الخليج إلى المحيط، من المحيط إلى الخليج
كانوا يُعدُّون الجنازةَ
وانتخاب المقصلهْ

أنا أحمدُ العربيُّ ـ فليأتِ الحصارْ
جسدي هو الأسوار ـ فليأتِ الحصار
وأنا حدود النار ـ فليأتِ الحصار
وأنا أحاصركم
أحاصركم
وصدري بابُ كلِّ الناس ـ فليأت الحصار

لم تأتِ أغنيتي لترسم أحمدَ الكحليَّ في الخندقْ
الذكرياتُ وراء ظهري، وهو يوم الشمس والزنبق
يا أيها الولدُ الموزَّعُ بين نافذتين
لا تتبادلان رسائلي
قاومْ
إنَّ التشابه للرمال ... وأنتَ للأزرقْ

وأعُدُّ أضلاعي فيهرب من يدي برَدى

وتتركني ضفاف النيل مبتعدا
وأبحثُ عن حدود أصابعي
فأرى العواصمَ كلَّها زَبَدَا ...

وأحمدُ يفرُكُ الساعاتِ في الخندقْ
لم تأتِ أُغنيتي لترسم أحمد المحروق بالأزرق
هو أحمد الكَوْنيُّ في هذا الصفيح الضيِّقِ
المتمزِّق الحالمْ
وهو الرصاص البرتقاليُّ .. البنفسَجَةُ الرصاصيَّةْ
وهو اندلاعُ ظهيرة حاسمْ
في يوم حريَّةْ

يا أيها الولدُ المكرّسُ للندى
قاوِمْ!
يا أيها البلدُ ـ المسدَّس في دمي
قاوِمْ!
الآنَ أكملُ فيك أُغنيتي
وأَذهبُ في حصاركْ
والآن أكملُ فيك أسئلتي

وأولدُ من غبارك
فاذهب إلى قلبي تجدْ شعبي
شعوباً في انفجارك

... سائراً بين التفاصيل اتكأتُ على مياهٍ
فانكسرتُ
أكلّما نَهَدَتْ سفرجلةٌ نسيتُ حدود قلبي
والتجأتُ إلى حصارٍ كي أحدِّد قامتي
يا أحمد العربيُّ؟
لم يكذب عليَّ الحب. لكن كُلّما جاء المساء
امتصَّني جَرَسٌ بعيدٌ
والتجأتُ إلى نزيفي كي أُحدِّد صورتي
يا أحمد العربيُّ.
لم أغسل دمي من خبز أعدائي
ولكن كُلّما مرَّت خُطَايَ على طريقٍ
فرَّتِ الطرقُ البعيدةُ والقريبةُ
كلّما آخيتُ عاصمةً رَمتني بالحقيبةِ
فالتجأتُ إلى رصيف الحلم والأشعار
كم أمشي إلى حُلُمي فتسبقني الخناجرُ

آه من حلمي ومن روما!
جميلٌ أنت في المنفى
قتيلٌ أنت في روما
وحيفا من هنا بدأتْ
وأحمدُ سُلَّمُ الكرملْ
وبسملة الندى والزعتر البلدي والمنزلْ

لا تسرقوه من السنونو
لا تأخذوه من الندى
كتبت مراثيها العيونُ
وتركت قلبي للصدى

لا تسرقوه من الأبدْ
وتبعثروه على الصليب
فهو الخريطة والجسد
وهو اشتعال العندليب

لا تأخذوه من الحَمَامْ
لا ترسلوهُ إلى الوظيفهْ
لا ترسموا دمه وسام

فهو البنفسج في قذيفهْ
صاعداً نحو التئام الحلم
تَتَّخذُ التفاصيلُ الرديئةُ شكلَ كُمَّثرى
وتنفصلُ البلادُ عن المكاتبِ
والخيولُ عن الحقائبِ
للحصى عرقٌ أقبِّلُ صمتَ هذا الملح
أعطي خطبة الليمون لليمون
أوقدُ شمعتي من جرحيَ المفتوحِ للأزهار
والسمكِ المجفَّف
للحصى عَرَقٌ ومرآةٌ
وللحطّاب قلبُ يمامةٍ
أنساكِ أحياناً لينساني رجالُ الأمنِ
يا امرأتي الجميلةَ تقطعين القلب والبَصَل
الطريَّ وتذهبين إلى البنفسج
فاذكريني قبل أن أنسى يديَّ

.. وصاعداً نحو التئام الحلمِ
تنكمش المقاعدُ تحت أشجاري وظلّكِ...
يختفي المتسلّقون على جراحك كالذباب الموسميّ

ويختفي المتفرجون على جراحك
فاذكريني قبل أن أنسى يديَّ!

وللفراشات اجتهادي
والصخورُ رسائلي في الأرض
لا طروادة بيتي
ولا مسّادةٌ وقتي
وأصعد من جفاف الخبز والماء المصادَرِ
من حصان ضاع في درب المطارِ
ومن هواء البحر أصعدُ
من شظايا أدْمَنَتْ جسدي
وأصعدُ من عيون القادمين إلى غروب السهلِ
أصعدُ من صناديق الخضارِ
وقوّة الأشياء أصعدُ
أنتمي لسمائي الأولى وللفقراء في كل الأزقَّة
ينشدون:
صامدون
وصامَدون

وصامدون
كان المخيَّمُ جسمَ أحمدْ
كانت دمشقُ جفونَ أحمدْ
كان الحجاز ظلالَ أحمدْ
صار الحصارُ مُرورَ أحمدَ فوق أفئدة الملايين
الأسيرهْ
صار الحصار هُجُومَ أحمدْ
والبحر طلقته الأخيرهْ!

يا خَصْرَ كلِّ الريح
يا أسبوع سُكَّرْ!
يا اسم العيون ويا رُخاميّ الصدى
يا أحمد المولود من حجر وزعترْ
ستقول: لا
ستقول: لا
جلدي عباءةُ كلِّ فلاح سيأتي من حقول التبغ
كي يلغي العواصمْ
وتقول: لا
جسدي بيان القادمين من الصناعات الخفيفةِ
والتردد .. والملاحمْ

نحو اقتحام المرحلهْ
وتقول: لا
ويدي تحياتُ الزهور وقنبلهْ
مرفوعة كالواجب اليومي ضدَّ المرحلهْ
وتقول: لا
يا أيها الجسدُ المُضرَّجُ بالسفوحِ
وبالشموس المقبلهْ
وتقول: لا
يا أيها الجسدُ الذي يتزوج الأمواج
فوق المقصلهْ
وتقول: لا
وتقول: لا
وتقول: لا!

وتموت قرب دمي وتحيا في الطحين
ونزور صمتك حين تطلبنا يداكَ
وحين تشعلنا اليراعهْ
مشت الخيولُ على العصافير الصغيرةِ
فابتكرنا الياسمين

ليغيب وجهُ الموت عن كلماتنا
فاذهب بعيداً في الغمام وفي الزراعهْ
لا وقتَ للمنفى وأُغنيتي ...
سيجرفُنا زحامُ الموت فاذهب في الزحام
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

واذهبْ إلى دمك المهيَّأ لانتشارك
واذهب إلى دميَ الموحَّدِ في حصارِك
لا وقتَ للمنفى ...
وللصُّوَرِ الجميلةِ فوق جدران الشوارع والجنائز
والتمني
كتبتْ مراثيها الطيورُ وشرَّدتني
ورمتْ معاطفها الحقولُ وجمعتني
فاذهبْ بعيداً في دمي! واذهب بعيداً في الطحين
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

يا أحمدُ اليوميّ!
يا اسم الباحثين عن الندى وبساطة الأسماء
يا اسم البرتقالهْ

يا أحمد العاديّ!
كيف مَحَوْتَ هذا الفارقَ اللفظيَّ بين الصخر والتفّاح
بين البندقية والغزالهْ!

لا وقت للمنفى وأغنيتي ..
سنذهب في الحصار
حتى نهايات العواصم
فاذهبْ عميقاً في دمي
اذهبْ براعمْ
واذهبْ عميقاً في دمي
اذهبْ خواتم
واذهبْ عميقاً في دمي
اذهب سلالم
يا أحمدُ العربيُّ .. قاومْ!
لا وقت للمنفى وأغنيتي..
سنذهب في الحصار
حتى رصيف الخبز والأمواجِ
تلك مساحتي ومساحة الوطن ـ المُلازِمْ
موتٌ أمام الحُلْمِ

أو حلم يموتُ على الشعار
فاذهب عميقاً في دمي واذهب عميقاً في الطحين
لنُصاب بالوطن البسيط وباحتمال الياسمين

... ولَهُ انحناءاتُ الخريف
لَهُ وصايا البرتقال
لَهُ القصائدُ في النزيف
لَهُ تجاعيدُ الجبال
لَهُ الهتافُ
لَهُ الزفافُ
لَهُ المجلاّتُ المُلوَّنةُ
المراثي المطمئنةُ
ملصقاتُ الحائط
العَلَمُ
التقدُّمُ
فرقةُ الإِنشاد
مرسوم الحِداد
وكل شيء كل شيء كل شيء
حين يعلن وجهه للذاهبين إلى ملامح وجههِ

يا أحمدُ المجهولُ!
كيف سَكَنْتَنا عشرين عاماً واختفيتَ
وظَلَّ وجهُكَ غامضاً مثل الظهيرهْ
يا أحمد السريّ مثل النار والغابات
أشهرْ وجهك الشعبيَّ فينا
واقرأ وصيَّتكَ الأخيرهْ
يا أيُّها المتفرّجون! تناثروا في الصمت
وابتعدوا قليلاً عنه كي تجدوهُ فيكم
حنطةً ويدين عاريتين
وابتعدوا قليلاً عنه كي يتلو وصيَّتَهُ
على الموتى إذا ماتوا
وكي يرمي ملامحَهُ
على الأحياء إن عاشوا!

أخي أحمد!
وأنتَ العبدُ والمعبود والمعبد
متى تشهدْ
متى تشهدْ
متى تشهدْ؟

قصيدة الرمل

إنَّهُ الرملُ
مساحاتٌ من الأفكار والمرأةِ،
فلنذهب مع الإيقاع حتى حتفنا
في البدء كان الشجر العالي نساء
كان ماء صاعداً، كان لغة.
هل تموت الأرض كالإنسان
هل يحملها الطائر شكلاً للفراغ؟

البداياتُ أنا
والنهاياتُ أنا

والرمل شكل واحتمال.

برتقال يتناسى شهوتي الأولى.
أرى في ما أرى النسيانَ، قد يفترسُ الأزهارَ والدهشةَ،
والرملُ هو الرملُ. أرى عصراً من الرمل يغطينا،
ويرمينا من الأيام.
ضاعت فكرتي وامرأتي ضاعتْ
وضاع الرمل في الرملِ ..

البداياتُ أنا
والنهاياتُ أنا

والرمل جسمُ الشجر الآتي،
غيومٌ تشبه البلدانَ.
لونٌ واحدٌ للبحر والنومِ.
وللعشاق وجهٌ واحدٌ،
... وسنعتاد على القرآن في تفسير ما يجري،
سنرمي ألفَ نهرٍ في مجاري الماء.
والماضي هو الماضي، سيأتي في انتخابات المرايا
سيِّدَ الأيّام.
والنخلةُ أمُّ اللغة الفصحى.

أرى، في ما أرى، مملكة الرمل على الرمل
ولن يبتسم القتلى لأعياد الطبولْ
ووداعاً ... للمسافات
وداعاً ... للمساحات
وداعاً للمغنين الذين استبدلوا «القانون» بالقانون كي
يلتحموا بالرمل ...
مرحى للمصابين برؤيايَ، ومرحى للسيولْ.

البداياتُ أنا
والنهاياتُ أنا

أمشي إلى حائط إعدامي كعصفورٍ غبيٍّ،
وأظن السهمَ ضلعي
ودمي أغنيةَ الرمّان. أمشي
وأغيب الآن في عاصفة الرمل،
سيأتي الرمل رملياً
وتأتين إلى الشاعر في الليل، فلا
تجدين الباب والأزرق،

ضاعت لفظتي وامرأتي ضاعتْ..
سيأتي ... سوف يأتي عاشقان
يأخذان الزنبق الهارب من أيامنا
ويقولان أمام النهر:
كم كان قصيراً زمنُ الرمل
ولا يفترقان

والبداياتُ أنا
والنهاياتُ أنا

قصيـدة الخبـز

(إلى إبراهيم مرزوق)

كان يوماً غامضاً ...
تخرجُ الشمسُ إلى عاداتها كسلى
رمادٌ مَعْدنيٌّ يملأُ الشرقَ...
وكان الماءُ في أوردة الغيـمِ
وفي كل أنابيب البيوتْ
يابساً
كان خريفاً يائساً في عمرِ بيروتَ
وكان الموت يمتدُّ من القصرِ
إلى الراديو إلى بائعة الجنس إلى سوق الخضار
ما الذي أيقظك الآن
تمام الخامسةْ؟

كان إبراهيمُ رسّامَ المياه
وسياجاً للحروب
وكسولاً عندما يوقظُهُ الفجرُ
ولكنَّ لإِبراهيمَ أطفالاً من الليْلَكِ والشمسِ
يريدون رغيفاً وحليب
كان إبراهيمُ رسّاماً وأب
كان حيّاً من دجاج وجنوب وغضب
وبسيطاً كصليب

المساحاتُ صغيرةْ
مقعدٌ في غرفة. لا شيء... لا شيء
وكان الرسمُ بالماء وطنْ
والتفاصيلُ لكمْ. وجهي أنا برقيَّةٌ
هل تقرأون الماءَ كي نتَّفق الآن؟
البياضُ الأسودُ احتلَّ المسافات
أنا الورد الذي لا يومىءُ
القيدُ الذي يأتي من الحرية ـ الفوضى
أو العجز الذي يأخذ شكل الوطن ـ البوليس
هل كان الوطنْ

انطباعاً أم صراعاً؟
وضياعاً أم خلاصْ
كان يوماً غامضاً..
وجهي أنا برقيَّةُ الحنطة في حقل الرصاص
ما الذي أيقظك الآن
تمام الخامسهْ؟
كنتَ تعرفْ
هي بيروت الفوارقْ
هي بيروت الحرائقْ
ما الذي أيقظك الآن
تمام الخامسهْ؟
إنهم يغتصبون الخبز والإنسان
منذ الخامسهْ.!..

لم يكن للخبز في يوم من الأيّامِ
هذا الطعمُ، هذا الدمُ
هذا الملمسُ الهامسُ
هذا الهاجسُ الكونيُّ
هذا الجوهرُ الكليُّ

هذا الصوتُ هذا الوقتُ
هذا اللونُ هذا الفنُّ
هذا الاندفاعُ البشريُّ. السرُّ. هذا السِّحرُ
هذا الانتقالُ الفذُّ
من كهف البدايات إلى حرب العصابات
إلى المأساة في بيروت
من كان يموت
في تمام الخامسةْ؟

كان إبراهيم يستولي على اللون النهائيّ
ويستولي على سرٍّ العناصرْ
كان رسّاماً وثائر
كان يرسمْ
وطناً مزدحماً بالناس والصفصاف والحرب
وموج البحر والعمال والباعة والريف
ويرسمْ
جسداً مزدحماً بالوطن المطحون
في معجزة الخبزِ
ويرسمْ

مهرجان الأرض والإنسان،
خبزاً ساخناً عند الصباح
كانت الأرض رغيفاً
كانت الشمس غزالهْ
كان إبراهيم شعباً في رغيف
وهو الآن نهائيٌّ... نهائيٌّ
تمام السادسة
دَمُهُ في خبزه
خبزُهُ في دمه
الآن
تمام السادسهْ!..

قصيدة الأرض

ـ ١ ـ

في شهر آذارَ، في سَنَة الانتفاضةِ، قالتْ لنا الأرض
أسرارَها الدمويَّةَ. في شهر آذارَ مَرَّت أمام
البنفسج والبندقية خمسُ بناتٍ. وقَفْنَ على باب
مدرسة ابتدائيَّةٍ، واشتعلن مع الورد والزعترِ
البلديِّ. افتتحن نشيدَ التراب. دخلن العناقَ
النهائيَّ ـ آذارُ يأتي إلى الأرض من باطن الأرض
يأتي، ومن رقصة الفتياتِ ـ البنفسجُ مال قليلاً
ليعبر صوتُ البنات. العصافيرُ مَدَّتْ مناقيرها
في اتجاه النشيد وقلبي.
أنا الأرضُ

والأرضُ أنتِ
خديجةُ ! لا تغلقي الباب
لا تدخلي في الغياب
سنطردهم من إناء الزهور وحبل الغسيل
سنطردهم عن حجارة هذا الطريق الطويل
سنطردهم من فضاء النخيل
وفي شهر آذار، مَرَّتْ أمام البنفسج والبندقية خمسُ
بنات. سقطن على باب مدرسة ابتدائيةٍ. للطباشير
فوق الأصابع لونُ العصافير. في شهر آذار قالت
لنا الأرض أسرارها.

- 1 -

أُسمّي التراب امتداداً لروحي
أُسمّي يديَّ رصيفَ الجروحِ
أسمّي الحصى أجنحهْ
أُسمّي العصافير لوزاً وتين
أُسمّي ضلوعي شجرْ
وأستلُّ من تينة الصدر غصناً
وأقذفه كالحجرْ

وأنسف دبّابة الفاتحين.

ـ ٢ ـ

وفي شهر آذار، قبل ثلاثين عاماً وخمس حروب،
وُلدتُ على كومة من حشيش القبور المضيء.
أبي كان في قبضة الإنجليز. وأُمّي تربّي جديلتَها
وامتدادي على العشبِ. كنتُ أُحبُّ «جراح
الحبيب» وأجمعها في جيوبي، فتذبل عند الظهيرة،
مَرَّ الرصاصُ على قمري الليلكيِّ فلم ينكسرْ
غيرَ أن الزمان يَمرُّ على قَمَري الليلكيِّ فيسقط في
القلب سهواً...
وفي شهر آذار نمتدُّ في الأرضِ
في شهر آذار تنتشر الأرضُ فينا
مواعيدَ غامضةً
واحتفالاً بسيطاً
ونكتشف البحرَ تحت النوافذِ
والقمرَ الليلكيَّ على السرو
في شهر آذار ندخل أول سجن وندخل أول حُبٍّ،
وتنهمرُ الذكرياتُ على قرية في السياج
وُلدنا هناك ولم نتجاوز ظلال السفرجلِ

كيف تفرّين من سُبُلي يا ظلالَ السفرجل؟
في شهر آذار ندخل أول حُبّ
وندخل أول سجن
وتنبلج الذكرياتُ عشاء من اللغة العربية
قال ليَ الحبُّ يوماً: دخلتُ إلى الحلم وحدي فضعتُ
وضاعَ بيَ الحلمُ. قلتُ: تكاثر! تَرَ النهر يمشي
إليك.
وفي شهر آذار تكتشف الأرض أنهارها

- 2 -

بلادي البعيدةَ عني ... كقلبي!
بلادي القريبةَ مني... كسجني!
لماذا أُغنّي
مكاناً، ووجهي مكانْ؟
لماذا أُغني
لطفلٍ ينامُ على الزعفران
وفي طرف النوم خنجر
وأُمّي تناولني
صدرها

وتموتُ أمامي
بنسمة عنبر؟

ـ ٣ ـ

وفي شهر آذار تستيقظ الخيلُ
سيدتي الأرضَ!
أيُّ نشيد سيمشي على بطنكِ المتموِّج، بعدي؟
وأيُّ نشيد يلائمُ هذا الندى والبَخُورَ
كأنَّ الهياكل تستفسر الآن عن أنبياء فلسطينَ في بدئها
المتواصل
هذا اخضرارُ المدى واحمرارُ الحجارةِ ـ
هذا نشيدي
وهذا خروجُ المسيح من الجرح والريح
أخضرَ مثل النبات يُغطّي مساميرَهُ وقيودي
وهذا نشيدي
وهذا صعود الفتى العربيِّ إلى الحلم والقدس...

في شهر آذار تستيقظ الخيلُ
سيدتي الأرضَ!

والقممُ اللولبيَّةُ تبسطها الخيلُ سجّادة للصلاة السريعة
بين الرماح وبين دمي.
نصفَ دائرة ترجع الخيلُ قوسا
ويلمع وجهي ووجهك حيفا وعُرسا

وفي شهر آذار ينخفض البحرُ عن أرضنا المستطيلة مثل
حصان على وترِ الجنسِ.
في شهر آذار ينتفض الجنسُ في شجر الساحل العربيّ.
وللموج أن يحبس الموجَ.. أن يتموَّجَ... أن
يتزوَّج... أو يتضرَّج بالقطن
أرجوك ـ سيدتي الأرض ـ أن تَسكنيني وأن تُسكنيني
صهيلكِ
أرجوك أن تدفنيني مع الفتيات الصغيرات بين البنفسج
والبندقيةِ
أرجوك ـ سيدتي الأرضَ ـ أن تُخْصبي عُمْرِيَ المتمايلَ
بين سؤالين: كيف؟ وأين؟
وهذا ربيعي الطليعيُّ
هذا ربيعي النهائيُّ
في شهر آذار زوَّجت الأرض أشجارها.

- 3 -

كأني أعودُ إلى ما مضى
كأني أسيرُ أمامي
وبين البلاط وبين الرضا
أُعيد انسجامي.
أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ
وشهيدُ الخريطهْ
أنا زهرة المشمش العائليَّهْ.
فيا أيها القابضون على طرف المستحيل
من البدء حتى الجليل
أعيدوا إليَّ يديَّ
أعيدوا إليَّ الهويّهْ!

- ٤ -

وفي شهر آذار تأتي الظلال حريريةً والغزاةُ بدون ظلالٍ
وتأتي العصافيرُ غامضةً كاعتراف البنات
وواضحةً كالحقول
العصافيرُ ظلُّ الحقول على القلب والكلمات.
خديجةُ!

ـ أين حفيداتك الذاهبات إلى حبّهن الجديد؟
ـ ذهبن ليقطفن بعض الحجارة ـ
قالت خديجةُ وهي تحثُّ الندى خلفهنّ.
وفي شهر آذار يمشي التراب دماً طازجاً في الظهيرة...
خمسُ بنات يخبّئن حقلاً من القمح تحت الضفيرة..
يقرأن مطلع أُنشودة عن دوالي الخليل. ويكتبن
خمس رسائل:
تحيا بلادي
من الصّفْرِ حتى الجليل
ويحلمن بالقدس بعد امتحان الربيع وطرد الغزاة.
خديجةُ! لا تغلقي الباب خلفك
لا تذهبي في السحاب
ستمطر هذا النهار
ستمطر هذا النهار رصاصاً
ستمطر هذا النهار!
وفي شهر آذار، في سنةِ الانتفاضة، قالت لنا الأرض
أسرارَها الدمويَّةَ: خمسُ بنات على باب مدرسة
ابتدائيّةٍ يقتحمن جنود المظلات. يسطع بيت

من الشعر أخضرَ.. أخضرَ. خمسُ بنات على
باب مدرسة ابتدائية ينكسرن مرايا مرايا
البنات مرايا البلاد على القلبِ ...
في شهر آذار أحرقت الأرضُ أزهارها.

- 4 -

أنا شاهدُ المذبحهْ
وشهيدُ الخريطهْ
أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ
رأيتُ الحصى أجنحهْ
رأيت الندى أسلحه
عندما أغلقوا باب قلبي عليّا
وأقاموا الحواجز فيّا
ومنع التجوُّل
صار قلبي حارهْ
وضلوعي حجارهْ
وأطلَّ القرنفل
وأطلَّ القرنفل

ـ ٥ ـ

وفي شهر آذار رائحةٌ للنباتات. هذا زواجُ العناصرِ.
«آذار أقسى الشهور» وأكثرُها شَبَقاً. أيُّ
سيفٍ سيعبر بين شهيقي وبين زفيري ولا يتكسَّرُ!
هذا عناقي الزراعيُّ في ذروة الحبّ. هذا انطلاقي
إلى العمر.
فاشتبكي يا نباتاتُ واشتركي في انتفاضة جسمي، وعودة
حلمي إلى جسدي.
سوف تنفجر الأرض حين أُحقِّقُ هذا الصراخ المكبَّلَ
بالريِّ والخجل القرويّ.
وفي شهر آذار نأتي إلى هَوَس الذكريات، وتنمو علينا
النباتاتُ صاعدةً في اتجاهات كلِّ البدايات. هذا
نموُّ التداعي. أُسمّي صعودي إلى الزنزلخت التداعي.
رأيتُ فتاةً على شاطىء البحر قبل ثلاثين عاماً
وقلت: أنا الموجُ، فابتعدتْ في التداعي. رأيتُ
شهيدين يستمعانِ إلى البحر: عكا تجيء مع الموج.
عكا تروح مع الموج. وابتعدا في التداعي.
ومالت خديجةُ نحو الندى، فاحترقتُ، خديجةُ! لا
تغلقي الباب!

إنَّ الشعوب ستدخل هذا الكتاب وتأفل شمس أريحا
بدون طقوس.
فيا وَطَنَ الأنبياء ... تكاملْ!
ويا وطن الزارعين... تكامل
ويا وطن الشهداء... تكامل
ويا وطن الضائعين... تكامل
فكلُّ شِعاب الجبال امتدادٌ لهذا النشيد،
وكلُّ الأناشيد فيك امتداد لزيتونةٍ زمَّلتني.

- 5 -

مساء صغير على قريةٍ مُهملهْ
وعينان نائمتانْ
أعود ثلاثينَ عاماً
وخمسَ حروب
وأشهد أنّ الزمانْ
يخبِّىءُ لي سنبلهْ

يغنّي المغنّي
عن النار والغرباء
وكان المساء مساء

وكان المغنّي يُغَنّي

ويستجوبونه:
لماذا تغنّي؟
يردُّ عليهم:
لأنّي أُغَنّي

وقد فتّشوا صدرَهُ
فلم يجدوا غيرَ قلبِهْ
وقد فتشوا قلبَهُ
فلم يجدوا غير شعبِهْ

وقد فتّشوا صوتَهُ
فلم يجدوا غير حزنِهْ
وقد فتّشوا حزنَهُ
فلم يجدوا غيَر سجنِهْ
وقد فتّشوا سجنَهُ
فلم يجدوا غير أنفسهم في القيود

وراء التلال
ينام المغنّي وحيداً
وفي شهر آذار
تصعد منه الظلال

- ٦ و 6 -

أنا الأملُ السهلُ والرحبُ ـ قالت ليَ الأرضُ. والعشبُ
مثل التحيَّةِ في الفجرِ
هذا احتمال الذهاب إلى العمر خلف خديجةَ. لم يزرعوني
لكي يحصدوني
يريد الهواء الجليليُّ أن يتكلّم عني، فينعس عند خديجة
يريد الغزال الجليليُّ أن يهدم اليوم سجني، فيحرس ظل
خديجةَ وهي تميلُ على نارها
يا خديجةُ! إني رأيتُ... وصدَّقتُ رؤيايَ. تأخذني
في مداها وتأخذني في هواها. أنا العاشقُ الأبديُّ،
السجين البديهيُّ. يقتبسُ البرتقال اخضراري ويصبح
هاجسَ يافا
أنا الأرض منذ عرفتُ خديجةَ
لم يعرفوني لكي يقتلوني

بوسع النبات الجليليّ أن يترعرعَ بين أصابعِ كفي ويرسم
هذا المكانَ الموزَّعَ بين اجتهادي وحبٌ خديجةَ
هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر من شهر آذار حتى
رحيل الهواء عن الأرضِ
هذا التراب ترابي
وهذا السحاب سحابي
وهذا جبين خديجةْ
أنا العاشق الأبديُّ ـ السجين البديهيُّ
رائحةُ الأرض تُوقظني في الصباح المبكّر...
قيدي الحديديُّ يوقظها في المساء المبكر
هذا احتمال الذهاب الجديد إلى العمر،
لا يسأل الذاهبون إلى العمر عن عمرهم
يسألون عن الأرض: هل نَهَضَتْ
طفلتي الأرضَ!
هل عرفوكِ لكي يذبحوكِ؟
وهل قيَّدوكِ بأحلامنا فانحدرتِ إلى جرحنا في الشتاء؟
وهل عرفوكِ لكي يذبحوكِ؟
وهل قيَّدوكِ بأحلامهم فارتفعتِ إلى حلمنا في الربيعْ؟
أنا الأرضُ ...

يا أيها الذاهبونَ إلى حبة القمح في مهدها
أحرثوا جَسَدي!
أيها الذاهبون إلى جبل النار
مرّوا على جسدي
أيها الذاهبونَ إلى صخرة القدس
مرّوا على جسدي
أيها العابرونَ على جسدي
لن تمروا
أنا الأرض في جَسَدِ
لن تمرّوا
أنا الأرض في صحوها
لن تمروا

أنا الأرض. يا أيها العابرون على الأرض في صحوها
لن تمرّوا
لن تمروا
لن تمروا!

نشيد إلى الأخضر

إنّكَ الأخضرُ. لا يشبهك الزيتونُ، لا يمشي إليكَ
الظلُّ، لا تتّسع الأرضُ لرايات صباحكْ.
ووحيدٌ في انعدام اللونِ،
تمتدُّ من اليأس إلى اليأسِ
وحيداً وغريباً كالرجاء الآسيويّ
إنّكَ الأخضرُ، من أوّل أُمٍّ حَمَّلَتْكَ الاسمَ حتى
أحدث الأسلحةِ
الأخضرُ أنت الأخضرُ الطالعُ من معركة الألوانِ
والغاباتُ ريشٌ في جناحك.

وقتُكَ القمحُ الجماعيُّ، الزفافُ الدمويّ.

إنّكَ الأخضرُ مثل الصرخة الأولى لطفلٍ يدخل العالمَ
من باب الخياناتِ،
ومثل الطلقة الأولى لجنديٍّ
رأى قصر الشتاء الملكيّ.
وانتظرناكَ على النرجسِ
أجراساً وقتلى
وخلقناكَ، لكي تخلقنا
ضوءاً وظلاّ.
إنّكَ الأخضرُ. لا يشبهك الزيتون، لا يمشي إليك
الظلُّ. لا تتَّسع الأرضُ لرايات صباحكْ
ونشيدي لك يأتي دائماً أسودَ من كثرة موتي قرب نيران
جراحكْ
فلتجدِّدْ أيها الأخضرُ موتي وانفجاري
إنَّ في حنجرتي عشرةَ آلاف قتيلٍ يطلبون الماءَ،
جدِّدْ أيها الأخضر صوتي وانتشاري
إنَّ في حنجرتي كفّاً تهزُّ النخلَ
من أجل فتىً يأتي نبيّا
أي: فدائيا

وجَدِّدْ أيها الأخضرُ صوتي. إنّ في حنجرتي خارطةَ
الحلمِ وأسماءَ المسيح الحيّ
جَدِّدْ أيها الأخضرُ موتي
إنَّ في جُثَّتي الأُخرى فصولاً وبلادْ
أيها الأخضرُ في هذا السواد السائدِ، الأخضرُ في بحث
المناديل عن النيل وعن مهر العروس
الأخضر الأخضر في كل البساتين التي أحرقها السلطانُ
والأخضرُ في كلِّ رمادْ
لن أُسمّيكَ انتقال الرمز من حُلم إلى يومِ
أُسمّيكَ الدمَ الطائر في هذا الزمانْ
وأُسمّيك انبعاث السنبلهْ
أيها الطائر من جُثَّتيَ الكاملة المكتملهْ
في فضاءٍ واضحٍ كالخبزِ ...
يا أخضرُ! لا يقتربُ البحرُ كثيراً من سؤالي
أيها الأخضرُ
لا يبتعدُ البحرُ كثيراً عن سؤالي
وأنا أذكرُ،
أوْ لا أذكرُ الحادثة الأولى،

ولكنني أرى طقس اغتيالي
وأنا العائدُ من كلِّ اغتيالِ
مستحيلاً في جسد.
فلتواصلْ أيها الأخضرُ
لونَ النار والأرض وعمرَ الشهداء
ولتحاول أيها الأخضرُ
أن تأتي من اليأس إلى اليأس
وحيداً يائساً كالأنبياء
ولتواصلْ أيها الأخضر لونك
ولتواصلْ أيها الأخضر لوني
إنَّكَ الأخضرُ. والأخضرُ لا يعطي سوى الأخضرِ،
لا يشبهنا الزيتونُ،
لا يمشي إلينا الظلُّ،
لا تتّسع الأرضُ لوجهي
في صباحك! ...

وتحمل عبء الفراشة

ستقولُ: لا. وتمزّقُ الألفاظَ والنهرَ البطيءَ. ستلعن
الزمنَ الرديءَ، وتختفي في الظلّ. لا ـ للمسرح
اللغويّ. لا ـ لحدود هذا الحلم. لا ـ للمستحيلْ

تأتي إلى مُدُنٍ وتذهبُ. سوف تعطي الظلَّ أسماء
القرى. وتحذِّر الفقراء من لغةِ الصدى والأنبياء.
وسوف تذهبُ... سوف تذهبُ، والقصيدةُ
خلفَ هذا البحر والماضي. ستشرح هاجساً فيجيء
حُرّاسُ الفراغ العاجزون الساقطون من البلاغة
والطبولْ

لنشيدكَ انكسرتْ سماءُ الماء. حَطّابٌ وعاشقةٌ،
وينفتحُ الصباح على المكان. تواصل الكلماتُ

نسياناً تزوَّج ألفَ مذبحةٍ. يجيء الموتُ أبيضَ.
تهطلُ الأمطار. يتضح المسدَّسُ والقتيلْ.

سيجيئك الشهداءُ من جدران لفظتك الأخيرة. يجلسون
عليكَ تاجاً من دمٍ، ويتابعون زراعةَ التفّاح
خارج ذكرياتكَ. سوف تتعبُ... سوف تتعبُ
سوف تطردهم فلا يمضونَ. تشتمهم فلا يمضونَ
يحتّلون هذا الوقتَ. تهرب من سعادتهم إلى وقت
يسير على الشوارع والفصولْ.

ويجيئكَ الفقراءُ. لا خبزٌ لديك، ولا دعاءٌ ينقذ القمح
المهدَّدَ بالجفاف. تقول شيئاً ما عن الغضب الذي
زفَّ السنابل للسيوف. تقول شيئاً ما عن النهر
المخبَّأ في عباءات النساء القادمات من الخريف.
فيضحكون ويذهبون، ويتركون الباب مفتوحاً
لأسئلة الحقولْ.

لنشيدك اتسعت عيونُ العاشقات. نعمْ تُسَمّي خصلةَ
القمح البلادَ، وزرقةَ البحر البلادَ. نعم، تسمّي
الأرض سيِّدةً من النسيانِ. ثم تنام وحدَك بين

رائحة الظلال وقلبكَ المفقود في الدرب الطويلْ.

ستقول طالبةٌ: وما نفعُ القصيدةِ؟ شاعرٌ يستخرج
الأزهارَ والبارودَ من حرفين. والعُمّالُ مسحوقون
تحت الزهر والبارود في حربين. ما نفع القصيدة
في الظهيرة والظلال؟ تقول شيئاً ما وتخطىء: سوف
يقترب النخيل من اجتهادي، ثم يكسرُكَ النخيلْ.

لنشيدك انتشرتْ مساحاتُ البياض وحنكةُ الجلاّد.
تأتي دائماً كالانتحار فيطلبون الحزن أقمشةً.
وتأتي دائماً كالانفجار فيطلبون الوردَ خارطةً. ستأتي
حين تذهب، ثم تأتي حين تذهبُ، ثم يبتعد
الوصولْ.

ستكون نسراً من لهيبٍ، والبلادُ فضاؤكَ الكحليُّ.
تسأل: «هل أسأتُ إليك يا شعبي؟» وتنكسر
السفوحُ على جناح النسر. يحترق الجناح على بخار

الأرض. تصعد، ثم تهبط، ثم تصعد، ثم تدخل
في السيولْ.

وتمرّ من كل البدايات احتفالاً: «هل أسأتُ إليك
يا زمني؟» تُغَنّي الأخضرَ الممتدَّ بين يدين
يابستين: تدخل وردةً وتصيح: ما هذا الزحام؟.
ترى دماً فتصيح: من قتل الدليلْ؟

وتموتُ وحدَكَ. سوف تتركك البحار على شواطئها
وحيداً كالحصى. ستفرُّ منك المكتباتُ، السيِّدات،
الأغنياتُ، شوارعُ المدن، القطاراتُ، المطاراتُ،
البلاد تفرُّ من يدك التي خلقتْ بلاداً للهديلْ.

وتموت وحدَك. سوف تهجرك البراكين التي كانت
تُطيع صهيلك الدامي. وتهجرك اندفاعاتُ الدمِ
الجنسيّ. والفرحُ الذي يرميك للأسماك. يهجركَ
التساؤل والتعاملُ بين أُغنية وسجّان، ويهجرك
الصهيلْ.

وسيدفنون العطر بعدك. يمنحون الوردَ قَيدكَ.
يحكمون على الندى المهجور بالإِعدام بعدك.
يشعلون النار في الكلمات بعدك. يسرقون الماءَ من
أعشاب جلدك. يطردونك من مناديل الجليل.

وتقول: لا ـ للمسرح اللغويّ
لا ـ لحدود هذا الحلم
لا ـ للمستحيلْ.

الحديقة النائمة

سرقتُ يدي حين عانقها النومُ،
غطَّيتُ أحلامها،
نظرتُ إلى عسل يختفي خلف جفنين،
صلَّيتُ من أجل ساقين معجزتين،
إنحنيتُ على نبضها المتواصل،
شاهدتُ قمحاً على مرمر ونعاس،
بكت قطرة من دمي
فارتجفتُ ...
الحديقةُ نائمةٌ في سريري.

ذهبت إلى الباب،
لم ألتفت نحو روحي التي واصلت نومها

سمعت رنين خطاها القديم وأجراس قلبي
ذهبت إلى الباب
ـ مفتاحها في حقيبتها
وهي نائمة كالملاك الذي مارس الحب ـ
ليل على مطر في الطريق، ولا صوت يأتي
سوى نبضها والمطر.

ذهبتُ إلى الباب،
ينفتح الباب،
أخرج.
ينغلق الباب،
يخرج ظلي ورائي.
لماذا أقول وداعاً؟
من الآنَ صرت غريباً عن الذكريات وبيتي.
هبطت السلالم،
لا صوت يأتي
سوى نبضها والمطرْ
وخطوي على دَرَج نازلٍ
من يديها إلى رغبة في السفرْ.

وصلتُ إلى الشجرهْ
هنا قبلتني
هنا ضربتني صواعقُ من فضة وقرنفل.
هنا كان عالمها يبتدئ
هنا كان عالمها ينتهي.
وقفتُ ثوانيَ من زنبق وشتاء،
مشيتُ،
ترددتُ،
ثم مشيتُ،
أخذتُ خطاي وذاكرتي المالحهْ
مشيتُ معي.

لا وداع ولا شجرهْ
فقد نامت الشهوات وراء الشبابيك،
نامت جميع العلاقات،
نامت جميع الخيانات خلف الشبابيك،
نام رجال المباحث أيضاً ...

وريتا تنام... تنام وتوقظ أحلامها.

في الصباح ستأخذ قبلتَها،
وأيامها،
ثم تحضر لي قهوتي العربية
وقهوتها بالحليب.
وتسأل للمرة الألف عن حبّنا
وأجيب
بأني شهيد اليدين اللتين
تعدّان لي قهوتي في الصباح.

وريتا تنام... تنام وتوقظ أحلامها
- نتزوج؟
نعم.
- متى؟
حين ينمو البنفسج
على قبعات الجنود.

طويت الأزقّة، مبنى البريد، مقاهي الرصيف، نوادي
الغناء، وأكشاك بيع التذاكر.
أحبك ريتا. أحبك. نامي وأرحل

بلا سبب كالطيور العنيفة أرحل
بلا سبب كالرياح الضعيفة أرحل
أحبك ريتا. أحبك. نامي
سأسأل بعد ثلاثة عشر شتاء
سأسأل:
أما زلت نائمة
أم صحوتِ من النوم ...
ريتا! أحبك ريتا
أحبك..

حالات وفواصل

١ ـ هكذا قالت الشجرة المهملة

خارجَ الطقس،
أو داخلَ الغابة الواسعهْ
وَطَني.
هل تحسُّ العصافيرُ أنّي
لها
وَطَنٌ ... أو سَفَرْ؟

إنني أنتظرْ...

في خريف الغصون القصيرْ
أو ربيع الجذور الطويل
زَمَني.

هل تحسُّ الغزالة أنّي
لها
جَسَدٌ ... أو ثَمَرْ؟

إنني أنتظرْ...

في المساء الذي يتنزه بين العيون
أزرقاً، أخضراً، أو ذَهَبْ
بَدَني
هل يحسُّ المحبّون أني
لهم
شرفةٌ ... أو قمرْ؟

إنني أنتظر ...

في الجفاف الذي يكسرُ الريح
هل يعرف الفقراء
أنني
عَرَقُ الريح؟ هل يشعرون بأني
لهم

غيمة ... أو مطرْ؟

إنني أنتظر ...

خارجَ الطقس،
أو داخلَ الغابة الواسعهْ

كان يهملني مَنْ أُحبُّ
ولكنني
لن أُودِّع أغصاني الضائعهْ
في زحام الشجرْ

إنني أنتظر...

٢ ـ قطار الساعة الواحدة

رَجُلٌ وامرأةٌ يفترقانْ
ينفضان الورد عن قلبيهما،
ينكسرانْ.
يخرج الظلُّ من الظلّ

يصيران ثلاثة:
رجلاً
وامرأةً
والوقتَ ...

لا يأتي القطارْ
فيعودان إلى المقهى
يقولان كلاماً آخراً،
ينسجمان
ويحبان بزوغ الفجر من أوتار جيتار
ولا يفترقان ...

... وتلفّتُّ أُجيل الطرفَ في ساحات هذا القلب.
ناداني زقاق ورفاق يدخلون القبو والنسيان في مدريد.
لا أنسى من المرأة إلّا وجهها أو فَرَحي...
أنساكِ أنساكِ وأنساكِ كثيراً

لو تأخرنا قليلاً
عن قطار الواحدةْ.

لو جلسنا ساعةً في المطعم الصينيّ،

لو مَرَّتْ طيورٌ عائدهْ.
لو قرأنا صحف الليل
لكنّا
رجلاً وامرأة يلتقيان ...

٣ ـ لمساء آخر

كُلُّ خوخ الأرض ينمو في جَسَدْ
وتكون الكلمهْ
وتكون الرغبة المحتدمهْ
سقط الظل عليها
لا أحدْ
لا أحدْ..

وتغنّي وحدَها
في طريق العربات المهملهْ
كلُّ شيء عندها

لقبٌ للسنبلهْ
وتغني وحدها.

البحيراتُ كثيرهْ
وهي النهر الوحيد.
قصتي كانت قصيرهْ
وهي النهر الوحيد.
سأراها في الشتاء
عندما تقتلني
وستبكي
وستضحك
عندما تقتلني
وأراها في الشتاء.

إنني أذكرُ
أوْ لا أذكرُ
العمر تبخَّرْ
في محطات القطاراتِ
وفي خطوتها.

كان شيئاً يشبهُ الحبَّ
هواء يتكسَّرْ
بين وجهين غريبين،
وموجاً يتحجّرْ
بين صدرين قريبين،
ولا أذكرها..
وتغنّي وحدها
لمساء آخر هذا المساء
وأنادي وردها
تذهب الأرض هباء
حين تبكي وحدها.

كلماتي كلماتْ
للشبابيك سماء
للعصافير فضاء
للخطى دربٌ وللنهر مصبٌّ
وأنا للذكريات.
كلماتي كلماتْ
وَهيَ الأولى. أنا الأوَّلُ

كنا. لم نكن
جاء الشتاء
دون أن تقتلني...
دون أن تبكي وتضحك
كلمات
كلمات.

٤ ـ يوم أحد أزرق

تجلسُ المرأةُ في أغنيتي
تغزل الصوف،
تصبُّ الشاي،
والشباكُ مفتوحٌ على الأيامِ
والبحرُ بعيدْ ...

ترتدي الأزرقَ في يوم الأحدْ،
تتسلى بالمجلاَّت وعادات الشعوب،
تقرأ الشعر الرومنتيكيَّ،
تستلقي على الكرسيِّ،

والشبّاكُ مفتوحٌ على الأيامِ،
والبحرُ بعيدْ.

تسمع الصوت الذي لا تنتظر.
تفتح الباب،
ترى خطوة إنسان يسافر.
تغلق الباب،
ترى صورته. تسألها: هل أنتظر؟
تنتقي موزارت،
ترتاح مع الأرض السماويَّةِ،
والشبّاكُ مفتوحٌ على الأيامِ
والبحر بعيدْ.

... والتقينا،
ووضعتُ البحر في صحن خزف،
واختفتْ أغنيتي
أنت، لا أغنيتي
والقلبُ مفتوحٌ على الأيامِ،
والبحر سعيدْ...

٥ ـ حالة واحدة لبحار كثيرة

إلتقينا قبل هذا الوقت في هذا المكانِ
ورمينا حجراً في الماء،
مرَّ السمكُ الأزرقُ
عادت موجتانِ
وتموَّجنا:
يدي تحبو على العطر الخريفيّ،
ستمشين قليلاً
وسترمين يدي للسنديانِ
قلتُ: لا يشبهكِ الموجُ
ولا عمري.
تمدَّدْتُ على كيس من الغيم
وشقَّ السمكُ الأزرقُ صدري
ونفاني في جهات الشّعْر، والموتُ دعاني
لأموت الآن بين الماء والنار
وكانت لا تراني
إن عينيها تنامان تنامان...
سأرمي عَرَقي للعشب،

لن أنسى رحيلي في خلاياكِ،
ولن أنسى الثواني،
وسأعطيك انطباعاً عاطفياً...
لم تقل شيئاً
سترميني إلى الأسماك والأشواك،
عيناها تنامان تنامان...
سَبَقْنا حُلْمَنا الآتي،
سنمشي في اتجاه الرمل صيادَيْن مقهورين
يا سيدتي!
هل نستطيع الآن أن نرمي بجسمينا إلى القطَّةِ
يا سيدتي! نحن صديقانِ.

ونامَ السَّمَكُ الأزرقُ في الموج
وأعطتنا الأغاني
سرَّها،
فاتضح الليلُ،
أنا شاهدتُ هذا السرَّ من قبل
ولا أرغب في العودة،
لا أرغب في العودة،

لا أطلب من قلبك غيرَ الخفقانِ.

كيف يبقى الحلم حلماً
كيف
يبقى
الحلم
حلماً
وقديماً، شرّدتني نظرتان
والتقينا قبل هذا اليوم في هذا المكان!

٦ ـ الصهيل الأخير

وأصبُّ الأغنية
مثلما ينتحر النهرُ على ركبتها.
هذه كل خلاياي
وهذا عَسَلي،
وتنام الأمنيهْ.

في دروبي الضيِّقهْ
ساحةٌ خاليةٌ،
نسرٌ مريضٌ،
وردة محترقهْ
حُلُمي كان بسيطاً
واضحاً كالزنبقة:
أن أقول الأغنيهْ.

أين أنتِ الآن؟
من أي جبلْ
تأخذين القمر الفضّيَّ
من أيِّ انتظارْ؟
سيِّدي الحبَّ! خطانا ابتعدتْ
عن بدايات الجبلْ
وعرفنا الأوديهْ

أسبِقُ الموت إلى قلبي
قليلاً
فتكونين السفرْ

وتكونين الهواء
أين أنتِ الآن
من أي مطر
تستردين السماء؟
وأنا أذهب نحو الساحة المنزويهْ

هذه كل خلاياي،
حروبي،
سُبُلي.
هذه شهوتيَ الكبرى
وهذا عسلي،
هذه أغنيتي الأولى
أغني دائماً
أغنية أولى،
ولكن
لن أقول الأغنيهْ.

مديح
الظل العالي
[قصيدة تسجيلية]
١٩٨٣

بحرٌ لأيلولَ الجديدِ. خريفُنا يدنو من الأبواب..
بحرٌ للنشيدِ المرِّ. هيَّأنا لبيروتَ القصيدةَ كُلَّها.
بحرٌ لمنتصفِ النهارِ.
بحرٌ لراياتِ الحمامِ، لظلِّنا، لسلاحنا الفرديِّ
بحرٌ، للزمانِ المستعارِ
ليديكَ، كمْ من موجةٍ سرقتْ يديكَ
من الإشارةِ وانتظاري
ضَعْ شكلنا للبحرِ. ضَعْ كيسَ العواصفِ عند أول صخرةٍ
واحملْ فراغَكَ .. وانكساري
.. واستطاعَ القلبُ أن يرمي لنافذةٍ تحيَّتهُ الأخيرةَ،
واستطاع القلبُ أن يعوي، وأن يَعِدَ البراري
بالبكاء الحُرِّ..
بَحْرٌ جاهزٌ من أجلنا

دَعْ جسمك الدامي يُصَفِّق للخريفِ المُرِّ أجراساً.
ستتَّسعُ الصحاري
عمَّا قليلٍ، حين ينقضُّ الفضاء على خطاكَ،
فرغتُ من شَغَفي ومن لهفي على الأحياء. أفرغتُ انفجاري
من ضحاياك، استندتُ إلى جدارٍ ساقطٍ في شارعِ الزلزالِ،
أَجْمَعُ صورتي من أجل موتكَ،
خُذْ بقاياكَ، اتخذني ساعداً في حضرة الأطلالِ. خُذْ قاموسَ
ناري
وانتصرْ
في وردةٍ تُرمى عليكَ من الدموعِ
ومن رغيفٍ يابسٍ، حافٍ، وعارِ
وانتصرْ في آخر التاريخِ ...
لا تاريخَ إلّا ما يؤرِّخه رحيلُكَ في انهياري
قُلنا لبيروت القصيدةَ كُلَّها، قلنا لمنتصفِ النهارِ:
بيروت قلعتنا
بيروت دمعتُنا
ومفتاحُ لهذا البحر. كُنَّا نقطة التكوينِ،
كنا وردة السور الطويلِ وما تبقَّى من جدارِ
ماذا تبقَّى منكَ غير قصيدةِ الروحِ المحلِّقِ في الدخان قيامةً

وقيامةٌ بعد القيامةِ؟ خُذْ نُثاري
وانتصرْ في ما يُمَزِّق قلبكَ العاري،
ويجعلكَ انتشاراً للبذارِ
قوساً يَلُمُّ الأرضَ من أطرافها..
جَرَساً لما ينساهُ سُكَّانُ القيامةِ من معانيكَ.
انتصرْ،
إنَّ الصليبَ مجالُك الحيويُّ، مسراكَ الوحيدُ من الحصارِ إلى
الحصارِ.
بحرٌ لأيلولَ الجديدِ. وأنتَ إيقاعُ الحديدِ تَدُقُّني سُحُباً على
الصحراءِ،
فلتمطرْ
لأسحبَ هذه الأرضَ الصغيرةَ من إساري.
لا شيء يكسرنا،
وتنكسر البلادُ على أصابعنا كفُخَّارٍ، وينكسرُ المُسدَّسُ من
تلهُّفِكَ.
انتصرْ، هذا الصباحَ، ووحِّد الراياتِ والأممَ الحزينةَ والفصولَ
بكُلِّ ما أوتيتَ من شبق الحياةِ،
بطلقةِ الطلقاتِ

باللاشيء
وحّدنا بمعجزةٍ فلسطينيَّةٍ ...
بيروت قصَّتُنا
بيروت غصَّتنا
وبيروت اختبارُ اللّهِ. جرَّبناكَ جرَّبناكَ.
من أَعطاك هذا اللُّغز؟ من سَمَّاكَ؟
من أَعلاك فوق جراحنا ليراكَ؟
فاظهرْ مثل عنقاء الرماد من الدمارِ!

□

نَمْ يا حبيبي، ساعةً
لنمُرَّ من أحلامك الأولى إلى عطش البحار إلى البحار.
نمْ ساعةً، نَمْ يا حبيبي ساعةً
حتى تتوب المجدليَّةُ مرة أخرى، ويتَّضحَ انتحاري.
نَمْ، يا حبيبي، ساعةً
حتى يعود الرومُ، حتى نطردَ الحرَّاسَ عن أَسوار قلعتنا،
وتنكسرَ الصواري.
نَمْ ساعةً. نَمْ يا حبيبي
كي نصفِّق لاغتصاب نسائنا في شارع الشَّرف التِّجاري.

نَمْ يا حبيبي ساعةً، حتى نكون
هيَ ساعةٌ للانهيارِ،
هيَ ساعةٌ لوضوحنا
هيَ ساعةٌ لغموضِ ميلادِ النهارِ

□

أَتموتُ في بيروت ـ لا تُولِمْ لبيروتَ الرغيفَ ـ عليكَ أَن تجد انتظاري
في أَناشيدِ التلاميذِ الصغارِ، وفي فراري
من حديقتنا الصغيرةِ في اتجاه البحرِ ـ
لا تُولِمْ لبيروتَ النبيذَ ـ عليك أن ترمي غباري
عن جبينكَ. أن تُدَثِّرني بما أَلِفَتْ يداك من الحجارةِ،
أَن تموت كما يموت الميتونَ،
وأَن تنامَ إلى الأبدْ
وإلى الأبدْ ..
لا شيء يطلعُ من مرايا البحرِ في هذا الحصارِ،
عليكَ أن تجدَ الجسدْ
في فكرة أُخرى، وأَن تجد البلدْ
في جُثَّةٍ أخرى، وأن تجد انفجاري

في مكان الانفجار...
أينما وَلَّيْتَ وجهكَ:
كلٌّ شيء قابلٌ للانفجار.

□

الآن بحرٌ،
الآن بحرٌ كُلُّهُ بحرٌ،
وَمَنْ لا بَرَّ لَهْ
لا بحرَ لَهْ
والبحر صورتُنا
فلا تذهبْ تماما
هي هجرةٌ أخرى، فلا تذهبْ تماما
في ما تفتَّحَ من ربيعِ الأرضِ، في ما فجَّر الطيرانُ فينا
من ينابيعٍ، ولا تذهبْ تماما
في شظايانا لتبحث عن نبيٍّ فيكَ ناما.
هي هجرةٌ أُخرى إلى ما لستُ أَعرفُ ..
أَلفُ سَهْمٍ شَدَّ خاصرتي ليدفعني أَماما.
لا شيء يكسرنا

ومَنْ أَدمى جبين اللَّه، يا ابنَ اللَّه، سَمَّاهُ، وأَنزلهُ كتاباً أو غماما.

□

كَمْ كُنْتَ وحدَك، يا ابن أُمِّي،
يا ابنَ أكثرَ من أبٍ،
كم كُنْتَ وحدكْ
القمحُ مُرٌّ في حقول الآخرينْ
والماءُ مالحْ
والغيم فولاذٌ. وهذا النجمُ جارحْ
وعليك أن تحيا وأن تحيا
وأَن تعطي مقابلَ حبَّةِ الزيتون جِلْدَكْ.
كَمْ كُنْتَ وحدكْ.

□

لا شيء يكسرنا، فلا تغرقْ تماما
في ما تبقى من دمٍ فينا..
لِنَذْهَبْ داخلَ الروحِ المحاصرِ بالتشابهِ واليتامى
يا ابن الهواء الصَّلْبِ يا ابنَ اللفظةِ الأُولى على الجزر القديمةِ،

يا ابنَ سيدةِ البحيرات البعيدةِ، يا ابنَ من يحمي القُدامى
من خطيئتهم، ويطبع فوقَ وجهِ الصَّخر برقاً أو حماما.

□

لحمي على الحيطان لحمُكَ، يا ابنَ أُمِّي
جَسَدٌ لأضرابِ الظلالْ
وعليك أن تمشي بلا طُرُقٍ
وراءً، أو أماماً، أو جنوباً أو شمالْ
وتحرِّكَ الخطواتِ بالميزانِ
حين يشاءُ مَنْ وهبوك قيدَكْ
ليزيِّنوك ويأخذوكَ إلى المعارض كي يرى الزُوَّار مجدَكْ.
كَمْ كنتَ وحدكْ!

□

هي هجرةٌ أُخرى ..
فلا تكتب وصيتكَ الأخيرةَ والسلاما.
سَقَطَ السقوطُ، وأنت تعلو
فكرةً

ويداً

و.. شاما!

لا بَرَّ إلّا ساعداكْ

لا بحرَ إلّا الغامضُ الكحليُّ فيكْ

فتقمَّصِ الأشياء كي تتقمَّصَ الأشياءُ خطوتَك الحراما

واسحبْ ظلالكَ عن بلاطِ الحاكمِ العربيِّ حتى لا يُعَلِّقها

وساما

واكسرْ ظلالك كُلَّها كيلا يمدُّوها بساطاً أو ظلاما.

□

كسروكَ، كم كسروكَ كي يقفوا على ساقيك عرشا

وتقاسموك وأنكروك وخبَّأوك وأنشأوا ليديكَ جيشا

حطُّوك في حجرٍ .. وقالوا: لا تُسَلِّمْ

ورموك في بئرٍ .. وقالوا: لا تُسَلِّمْ

وأَطَلْتَ حربَكَ، يا ابن أُمِّي،

أَلف عامٍ ألفَ عامٍ ألفَ عامٍ في النهارِ.

فأنكروكَ لأنهم لا يعرفون سوى الخطابة والفرارِ.

هم يسرقون الآن جلدكْ

فاحذرْ ملامحهم.. وغمدَكْ
كم كنتَ وحدكَ، يا ابن أُمِّي،
يا ابن أكثرَ مِنْ أَبٍ،
كَمْ كُنْتَ وحدكْ!

□

والآن، والأشياءُ سَيِّدَةٌ، وهذا الصمتُ عالٍ كالذبابهْ
هل ندركُ المجهول فينا؟ هل نُغَنِّي مثلما كنا نُغَنِّي؟
سقطتْ قلاعٌ قبلَ هذا اليوم، لكن الهواء الآن حامضْ.
وحدي أدافعُ عن جدارٍ ليس لي
وحدي أدافع عن هواءٍ ليس لي
وحدي على سطح المدينة واقفٌ..
أَيُّوبُ ماتَ، وماتتِ العنقاءُ وانصرفَ الصَّحابَهْ
وحدي. أراود نفسيَ الثكلى فتأبى أن تساعدني على نفسي
ووحدي
كنتُ وحدي
عندما قاومت وحدي
وحدةَ الروحِ الأخيرهْ..

□

لا تَذْكُرِ الموتى، فقد ماتوا فُرادى أَو .. عواصمْ
سأراك في قلبي غداً، سأراك في قلبي
وأجهشُ يا ابن أُمِّي باللُغَهْ
لغةٍ تُفَتِّشُ عن بنيها، عن أَراضيها وراويها
تموتُ ككُلٌ مَنْ فيها، وتُرمى في المعاجمْ.
هي آخرُ النَّخل الهزيلِ وساعةُ الصحراءِ،
آخرُ ما يَدُلُّ على البقايا
كانوا، ولكنْ كُنْتَ وحدك
كم كنتَ وحدكَ تنتمي لقصيدتي، وتمدُّ زندكْ،
كي تُحوِّلها سَلالِمَ، أو بلاداً، أو خواتمْ
كَمْ كنتَ وحدكَ يا ابن أُمي
يا ابن أَكثرَ من أَبِ
كَمْ كنتَ وحدكْ!..

□

والآن، والأشياءُ سَيِّدَةٌ، وهذا الصمت يأتينا سهاما
هل ندركُ المجهولَ فينا. هل نغني مثلما كنا نغٌني؟
آه، يا دمنا الفضيحة، هل ستأتيهم غماما،
هذه أُمم تَمرٌ وتطبخ الأزهار في دمنا

وتزدادُ انقساما.
هذه أُممٌ تفتِّش عن إجازتها مِنَ الجَمَل المزخرفِ..
هذه الصحراءُ تكبر حولنا
صحراءُ من كل الجهاتْ
صحراءُ تأتينا لتلتهم القصيدةَ والحساما.
اللّه أَكبرْ
هذه آياتنا، فاقرأْ
باسم الفدائيِّ الذي خَلَقَا
مِن جُرْحِهِ شَفَقا
باسم الفدائيِّ الذي يَرْحَلْ
من وقتِكم.. لندائِهِ الأوَّلْ
الأوَّلِ الأوَّلْ
سَنُدَمِّرُ الهيكلْ.
باسم الفدائيِّ الذي يبدأْ
إقرأْ
بيروتُ ـ صُورتُنا
بيروتُ ـ سورتُنا.

□

بيروت ـ لا
ظهري أمام البحرِ أسوارٌ و.. لا
قد أَخسرُ الدنيا .. نَعَمْ!
قد أَخسرُ الكلماتِ ..
لكني أَقول الآن: لا.
هي آخر الطلقاتِ ـ لا.
هي ما تبقَّى من هواء الأرضِ ـ لا.
هي ما تبقَّى من نشيجِ الروحِ ـ لا.
بيروت ـ لا.

□

نامي قليلاً، يا ابنتي، نامي قليلا
الطائراتُ تعضُّني. وتعضُّ ما في القلب من عَسَلِ
فنامي في طريق النحل، نامي
قبل أن أصحو قتيلا.
الطائراتُ تطير من غُرَفٍ مجاورةٍ إلى الحمَّامِ، فاضطجعي
على درجات هذا السُّلَّم الحجريِّ، وانتبهي إذا اقتربتْ
شظاياها كثيراً منكِ وارتجفي قليلا.
نامي قليلا.

كُنَّا نحبُّك، يا ابنتي،
كنا نَعُدُّ على أَصابع كفِّك اليُسرى مسيرتَنا
ونُنْقِصُها رحيلا.
نامي قليلا.
الطائراتُ تطيرُ، والأشجارُ تهوي،
والمباني تخبز السُكَّانَ، فاختبئي بأُغنيتي الأخيرةِ، أو بطلقتيَ
الأخيرةِ، يا ابنتي
وتوسّدِيني كنتُ فحماً أَم نخيلا.
نامي قليلا.
وتَفَقَّدي أزهارَ جسمكِ،
هل أُصيبتْ؟
واتركي كفِّي، وكأسَيْ شاينا، ودعي الغَسيلا.
نامي قليلا.
لو أَستطيع أَعدتُ ترتيب الطبيعةِ:
ههنا صفصافةٌ .. وهناك قلبي
ههنا قَمَرُ التردُّد
ههنا عصفورةٌ للانتباهِ
هناكَ نافذةٌ تعلِّمكِ الهديلا

وشارعٌ يرجوكِ أن تَبْقَي قليلا.
نامي قليلا.
كُنَّا نحبكِ، يا ابنتي،
والآن، نعبدُ صمتَك العالي
ونرفعهُ كنائس من بَتُوْلا.
هل كنتِ غاضبةً علينا، دون أن ندري.. وندري
آهِ مِنّا.. آهِ ماذا لو خَمَشْنا سُرَّةَ الأُفقِ.
قد يَخْمِشُ الغرقى يداً تمتدُّ
كي تحميَ من الغَرَقِ.

□

بيروت ـ لا.
ظهري أمام البحر أسوارٌ و.. لا.
قد أَخسر الدنيا، نَعمْ،
قد أَخسر الكلماتِ والذكرى
ولكنني أَقول الآن: لا.
هي آخرُ الطلقاتِ ـ لا.
هي ما تبقّى من هواء الأرض ـ لا.
هي ما تبقَّى من حطامِ الروحِ ـ لا.

بيروت ـ لا.

□

أَشلاؤنا أَسماؤنا. لا.. لا مَفَرٌّ.
سقط القناعُ عن القناعِ عن القناعِ،
سقط القناعُ
لا إخوةٌ لك يا أَخي، لا أَصدقاءُ
يا صديقي، لا قلاعُ
لا الماءُ عندكَ، لا الدواء ولا السماء ولا الشراعُ
ولا الأمامُ ولا الوراءُ
حاصِرْ حصَارَكَ .. لا مفرٌّ.
سقطتْ ذراعك فالتقطها
واضرب عَدُوَّك .. لا مفرٌّ.
وسقطتُ قربك، فالتقطني
واضرب عدوكَ بي .. فأنت الآنَ حُرٌّ
حُرٌّ
وحُرٌّ ..
قتلاكَ، أو جرحاك فيك ذخيرةٌ
فاضربْ بها. إضربْ عدوَّكَ .. لا مَفَرٌّ.

أَشلاؤنا أسماؤنا
حاصِرْ حصارَك بالجنونِ
وبالجنونِ
وبالجنونْ
ذهبَ الذين تحبُّهم، ذهبوا
فإمَّا أَن تكونْ
أَو لا تكونْ،
سقط القناعُ عن القناعِ عن القناعِ
سقط القناعُ
ولا أَحدْ
إلَّاك في هذا المدى المفتوح للأعداء والنسيانِ،
فاجعل كُلَّ متراسٍ بَلَدْ
لا .. لا أَحَدْ
سقط القناعُ
عَرَبٌ أَطاعوا رُومَهم
عَرَبٌ وباعوا رُوْحَهُم
عَرَبٌ .. وضاعوا
سَقَطَ القناعُ

واللّهُ غَمَّسَ باسمك البحريِّ أَسبوعَ الولادةِ واستراحَ إلى الأَبَدْ
كُنْ أنتَ. كُنْ حتى تكونْ!
لا .. لا أَحَدْ
يا خالقي في هذه الساعاتِ من عَدَمٍ تَجَلَّ!
لعلَّ لي حُلُماً لأَعْبدَهُ
لَعَلَّ!
علمتَني الأسماءَ
لولا
هذهِ الدولُ اللقيطةُ لم تكنْ بيروت رملا
بيروت ـ كلا

□

بيروت ـ صورتُنا
بيروت ـ سورتُنا
فإمَّا أَن تكونْ
أَو لا تكونْ ..

□

أنا لا أُحبُّكِ،
كم أُحبُّكِ!

غيمتانِ أنا وأنتِ، وحارسان يُتَوِّجان الانتباهَ بصرخةٍ،
ويُمَدِّدان الليلَ حتى آخر الليلِ الأخير. أَقول حين أَقولُ
بيروتُ المدينةُ ليست امرأتي
وبيروتُ المكانُ مُسَدَّسي الباقي
وبيروتُ الزمانُ هُوِيَّةُ «الآنِ» المضَّرجِ بالدخانِ.
أَنا لا أُحبكِ،
كم أُحبكِ!
غمِّسي باسمي زهورَكِ وانثريها فوق من يمشي على جُثَثي
ليتسع السَّرايْ
لا تسحبيني من بقاياكِ، اسحبيني من يديَّ ومن هوايْ
ولا تلوميني، ولومي مَنْ رآني سائراً كالعنكبوتِ على خطايْ
هل كانَ من حقِّي النزولُ من البنفسجِ والتوهجُ في رؤاي؟
هل كان من حَقِّي عليكِ الموتُ فيكِ
لكي تصيري مريماً
وأصيرَ نايْ؟
هل كانَ من حقِّي الدفاعُ عن الأغاني
وهي تلجأُ من زنازين الشعوب إلى خُطايْ؟
هل كان لي أنْ أَطمئنّ إلى رؤايَ

وأَن أُصدِّق أنَّ لي قمراً تُكوِّرُهُ يدايْ؟
صَدَّقْتُ ما صَدَّقتُ، لكي سأمشي في خُطايْ.
أنا لا أُحبُّكِ
كَمْ أُحبُّكِ، كم أُحبُّكِ، كَمْ سَنَهْ
أَعطيتني وأَخذتِ عمري. كَمْ سَنَهْ
وأَنا أُسمِّيكِ الوداعَ، ولا أُودِّع غير نفسي. كم سَنَهْ
وَعَدُوكِ بالآتي وحين أَتاكِ واتاكِ الحنينُ إلى السفينةِ. كم سَنَهْ
لم تذكري قرطاجَ؟
هل كنا هواءً مالحاً كي تفتحي رئتيكِ للماضي،
وتبني هيكلَ القدسِ القديمةِ. كَمْ سَنَهْ
وعدُوْكِ باللغةِ الجديدةِ واستعادوا الميتين مع الجريمةِ.
هل أَنا أَلِفٌ، وباءٌ، للكتابةِ أَمْ لتفجير الهياكلِ؟
كَمْ سَنَهْ
كنا معاً طَوْقَ النجاةِ لقارَّةٍ محمولةٍ فوق السرابِ،
ودفتر الإعراب؟
كَمْ عَرَبٍ أَتَوْك ليصبحوا غَرْباً
وكَمْ غَرْبٍ أَتاكِ ليدخلَ الإسلامَ من بابِ الصلاة على النبي
وسُنَّةِ النفطِ المُقَدّسِ؟ كَمْ سَنَهْ

وأَنا أُصدِّقُ أِن لي أُمّاً ستتبعني
وأنكِ تكذبين على الطبيعة والمسدَّس، كَمْ سَنَهْ!
بيروت ـ منتصف اللغهْ
بيروت ـ ومضةُ شهوتينْ
بيروت ـ ما قال الفتى لفتاتِهِ
والبحرُ يسمعُ، أَو يوزِّعُ صوتَهُ بين اليدينْ.
أنا لا أُحبكِ
غمِّسي بدمي زهورَكِ وانثريها
حول طائرةٍ تطاردُ عاشقينْ
والبحرُ يسمعُ، أَو يوزِّع صوتَهُ بين اليدينْ.
وأَنا أُحبكِ
غَمِّسي بدمي زهوركِ وانثريها
حول طائرةٍ تطاردني وتسمع ما يقول البحرُ لي
بيروت لا تعطي لتأخذَ
أَنت بيروتُ التي تعطي لتعطي ثم تسأم من ذراعيها،
ومن شَبَقِ المُحِبِّ
فبأيِّ امرأةٍ سأُومنْ
وبأيِّ شُبَّاك سأُومنْ

مَنْ تُزَوِّجني ضفائرَها لأَشنق رغبتي
وأَموت كالأُم القديمة. كم سَنَهْ
أغريتني بالمشي نحو بلاديَ الأولى
وبالطيران تحت سمائيَ الأولى
وباسمك كنتُ أَرفعُ خيمتي للهاربين من التجارة والدعارة
والحضارة. كَمْ سَنَهْ
كُنَّا نَرُشُّ على ضحايانا كلام البرقِ:
بعد هُنَيْهَةٍ سنكون ما كنا وما سنكونُ
إمَّا أن نكون نهارك العالي
وإِمَّا أن نعود إلى البحيرات القديمة. كَمْ سَنَهْ
لم تسمعيني جَيِّداً. لم تردعيني جيداً. لم تحرميني من فواكهكِ
الجميلةِ. لم تقولي: حين يبتسم المخيَّمُ تعبس المدن الكبيرة.
كم سَنَهْ
قلنا معاً: أَنا لا أَشاءُ، ولا تشائين. اتفقنا. كُلُّنا في البحر
ماءٌ. كم سَنَهْ
كانت تُنَظِّمنا يَدُ الفوضى:
تعبنا من نظامِ الغازِ،
من ماء الأنابيبِ الرتيبِ،

ومن صعودِ الكهرباءِ إلى الغُرَفْ..
حُرّيتي فوضاي. إني أَعترفْ
وسأعترفْ
بجميع أَخطائي، وما اقترفَ الفؤادُ من الأَماني
ليس من حَقِّ العصافير الغناءُ على سرير النائمين،
والإِيديولوجيا مهنة البوليس في الدول القويةِ:
من نظام الرقِّ في روما
إلى مَنْعِ الكحولِ وآفةِ الأحزاب في المُدُن الحديثةِ.
كَمْ سَنَهْ
نحن البدايةُ والبدايةُ والبدايةُ. كم سَنَهْ
وأَنا التَوَازُنُ بين ما يجبُ؟
كُنّا هناكَ. ومن هنا ستهاجر العَرَبُ
لعقيدةٍ أُخرى. وتغتربُ
قَصَبٌ هياكلنا
وعروشنا قَصَبُ
في كُلِّ مئذَنةٍ
حاوٍ، ومغتصبُ
يدعو لأندلس

إنْ حُوصرتْ حَلَبُ.
وأَنا التوازُنُ بين مَنْ جاءوا ومن ذهبوا
وأَنا التوازُنُ بين مَنْ سَلَبُوا وَمَنْ سُلِبوا
وأَنا التوازُنُ بين من صَمَدُوا وَمَنْ هربوا
وأَنا التوازُنُ بين ما يَجِبُ:
يجبُ الذهابُ إلى اليسارْ
يجبُ التوغُّلُ في اليمينْ
يجبُ التمترسُ في الوسطْ
يجبُ الدفاعُ عن الغلطْ
يجب التشككُ بالمسارْ
يجبُ الخروجُ من اليقينْ
يجبُ الذي يجبُ
يجبُ انهيارُ الأنظمةْ
يجبُ انتظارُ المحكمةْ
.. وأَنا أُحبك، سوف أَحتاج الحقيقةَ عندما أَحتاج تصليح
الخرائط والخططْ
أَحتاجُ ما يجبُ
يجبُ الذي يجبُ

أَدعو لأندلسٍ
إن حُوصرتْ حَلَبُ.

□

بيروت / فجراً:
يُطلق البحرُ الرصاصَ على النوافِذ. يفتح العصفورُ أُغنيةً مبكرةً. يُطيّرُ جارنا رَفَّ الحمام إلى الدخان. يموتُ مَنْ لا يستطيع الركض في الطرقات: قلبي قطعة من برتقال يابسٍ. أهدي إلى جاري الجريدةَ كي يفتِّش عن أقاربه. أُعزِّيه غداً. أَمشي لأبحث عن كنوز الماء في قبو البناية. أَشتهي جسداً يضيءُ البارَ والغابات. يا «جيم» اقتليني واقتليني واقتليني!
يدخل الطيران أفكاري ويقصفها..
فيقتلُ تسعَ عشرةَ طفلةً
يتوقف العصفور عن إنشاده ..
عاديَّةٌ ساعاتنا ـ عاديَّةٌ،
لولا صهيل الجنس في ساقيك يا «جيم» الجنونْ.
والموتُ يأتينا بكل سلاحه الجويِّ والبريِّ والبحريِّ.

ألفُ قذيفةٍ أُخرى ولا يتقدم الأعداء شبراً واحداً.
«جيم» اجمعيني مرةً،
ما زلتُ حيّاً ـ ألفُ شكرٍ للمصادفةِ السعيدةِ.
يبذل الرؤساء جهداً عند أمريكا لتُفرِجَ عن مياه الشربِ.
كيف سنغسل الموتى؟
ويسأل صاحبي: وإذا استجابت للضغوط فهل سيسفر موتنا
عن:
دولةٍ ..
أَم خيمة؟
قلتُ: انتظرِ! لا فرق بين الرايتينْ
قلت: انتظر حتى تصب الطائراتُ جحيمها!
يا فجرَ بيروتَ الطويلا
عَجِّلْ لأعرفَ جيِّداً:
إن كنتُ حيَّاً أم قتيلا.

□

بيروت / ظهراً:
يستمرُّ الفجرُ منذ الفجرِ.
تنكسر السماءُ على رغيف الخبزِ.

يَنكسر الهواءُ على رؤوس الناسِ من عبءِ الدخانِ ولا جديد
لدى العروبةِ:
بعد شهرٍ يلتقي كُلُّ الملوكِ بكل أَنواعِ الملوكِ، من العقيدِ
إلى العميد، ليبحثوا خطر اليهود على وجودِ اللّهِ. أَمّا
الآن فالأحوال هادئة تماماً مثلما كانت. وإن الموتَ يأتينا بكل
سلاحه الجويِّ والبريِّ والبحريِّ. مليون انفجار في المدينة.
هيروشيما هيروشيما
وحدَنا نُصغي إلى رعد الحجارة، هيروشيما
وحدنا نُصغي لما في الروحِ من عبثٍ ومن جدوى
وأمريكا على الأسوارِ تهدي كل طفل لعبةً للموتِ عنقوديَّةً
يا هيروشيما العاشقِ العربيِّ أَمريكا هي الطاعون، والطاعونُ
أمريكا
نعسنا. أَيقظتنا الطائرات وصوتُ أَمريكا
وأَمريكا لأمريكا
وهذا الأفق اسمنتٌ لوحشِ الجوِّ.
نفتحُ علبةَ السردين، تقصفها المدافعُ
نحتمي بستارةِ الشباك، تهتز البناية. تقفزُ الأبوابُ. أَمريكا
وراء الباب أمريكا

ونمشي في الشوارعِ باحثين عن السلامة،
منْ سيدفننا إذا متنا؟
عرايا نحن، لا أُفقٌ يُغَطينا ولا قبرٌ يوارينا
ويا.. يا يومَ بيروتَ المكسَّرَ في الظهيرةْ
عَجِّلْ قليلا
عَجِّلْ لنعرفَ أَين صَرْخَتُنا الأخيرةْ.

□

بيروت / عصراً:
تكثر الحشراتُ.
تزدادُ الرطوبةُ.
ترتخي العضلاتُ
نشعر أن للأرض احتقاناً في مفاصلنا،
فنصرخ: أيها البطل انكسِرْ فينا!

□

مساء / فوق بيروت:
الرخامُ
ينزُّ دماً، ويذبحني الحمامُ

إلى مَنْ أَرفعُ الكلماتِ سَقفاً
وهذي الأرضُ يحملُها الغمامُ؟
ويرحل، حين يرحلُ، نحو تيهي
أُحدِّقُ في المسدَّس، وهو ملقىً
على طَرَفِ السرير، وأَشتهيهِ
وينقذني، وينقذني الكلامُ.
ظلامٌ كُلُّ ما حولي .. ظلامُ.

□

بيروت / ليلا:
لا ظلامَ أَشدَّ من هذا الظلامِ
يُضيئني قَتْلي.
أَمِنْ حَجَرٍ يقُدُّون النُعاسَ؟
أمِنْ مزاميرٍ يصكُّون السلاحَ؟
ضحيَّةٌ
قَتَلتْ
ضحيَّتها
وكانت لي هويَّتُها،
أُنادي أشعيا: أخرج من الكتب القديمة مثلما خرجوا، أَزقَّةُ

أورشليم تُعلِّقُ اللحم الفلسطينيَّ فوق مطالع العهد القديم،
وتدَّعي أن الضحية لم تُغيِّر جلدها.
يا أشعيا .. لا تَرْثِ
بل أُهْجُ المدينةَ كي أُحبك مَرَّتين
وأُعلنَ التقوى
وأَغفر لليهوديِّ الصبيِّ بكاءه..
اختلطتْ شخوصُ المسرح الدمويّ:
لا قاضٍ سوى القتلى
وكفُّ القاتل امتزجَتْ بأقوال الشهودِ،
وأُدخل القتلى إلى ملكوت قاتلهم
وتمَّتْ رشوةُ القاضي فأعطى وجهه للقاتل الباكي على شيء يُحَيِّرُنا ..
سَرَقْتَ دموعنا يا ذئب
تقتلني وتدخل جُثَّتي وتبيعها!
أُخرجْ قليلاً من دمي حتى يراك الليلُ أَكثَر حُلْكَةً!
واخرجْ لكي نمشي لمائدة التفاوض، واضحينْ،
كما الحقيقةُ:
قاتلاً يُدلي بسكِّينٍ.

وقتلى
يدلون بالأسماء:
صبرا،
كفر قاسم،
دير ياسين،
شاتيلا!

□

بيروت / ليلا:
لا تنامي كُلَّ هذا الليلِ
لا تتحدَّثي عما يدور وراء هذا الباب
لا ترمي ثيابك
لا تُعَرِّيني تماماً
لا تقولي الحبَّ
لا تعطي سوى فخذيكِ
لا تتأَوهي فالحرب تسمع زهرة الجسديْنِ.
إني أرتديك على الشظية قربَ باب البيت،
نبقى واقفين، وواقفين إلى النهايةِ.
واصلي سرقات هذا الشهْد،

زُجّيني بشهوتك السريعة قبلما يأتي إلينا موتُنا الخلفيُّ،
إني أُوثِرُ الموتَ الذي يأتي إلى كتفيَّ.. نحلا!

□

بيروت / ليلا:
مثل باذنجانةٍ ..
قمرٌ غبيٌّ مَرَّ فوق الحربِ
لم يركبْ له الأطفالُ خيلا.

□

بيروت / ليلا:
أُمْسِكُ الآنَ الهواء الأسودَ الصخريَّ،
أكسره بأسناني، أَعضُ عليه. أُدميهِ. وأَركلُهُ
أَكاد أُجَنُّ مما يجعلُ الساعات.. رملا.

□

بيروت / ليلا:
قالت امرأةٌ لجنديٍّ قبيحِ الوجهِ:
خذني للرُّكامِ وفُضَّني

لأصير .. أَحلى.

□

بيروت / ليلا:
لم أَجد فيك الخليَّةَ والجزيرةَ.
أين ماتَ الشعر!
أين استسلمت للزوجِ ليلى؟

□

بيروت / ليلا:
يقصفون مقابر الشهداء، يدثُّرون بالفولاذ، يضطجعون مَعَ فتياتهم، يتزوجون، يطلِّقون، يسافرون، ويولدون،
ويعملون ويقطعون العمر في دبَّابةٍ ..
أَهلاً وسهلا!

□

بيروت / ليلا:
يخرج الشهداء من أشجارهم، يتفقَّدون صغارهم، يتجولون على السواحل،

يرصدون الحلم والرؤيا، يُغطُّون السماء بفائض الألوان،
يفترشون موقعهم،
يُسَمُّون الجزيرة، يغسلون الماء، ثم يطرِّزون حصارنا
قططاً .. ونخلا.

□

بيروت / ليلا:
وحدَنا، واللّه فينا وحدنا
اللّه فينا قد تجلّى!

□

بيروت / ليلا:
يمدح الشعراءُ قَتْلي في مجالسهم،
ويرتعدون مني حين أطلعُ بينهم صوتاً وظِلاًّ.

□

بيروت / ليلا:
آهِ، يا أفقاً تبدَّى
من حذاءِ مقاتلٍ

لا تنغلقْ
لا تنغَلقْ أَبداً
لئلّا ..

□

بيروت / ظهراً:
اليوم يَنْشَقُّ الحصانْ.
اليوم، ينشقُّ الحصانُ إلى نهاريْنِ،
المدينةُ والقصيدةُ تخرجان
من خصر أَجملنا، سميرْ درويشْ،
ليحتفل المكانْ
بنا .. وينسبنا إلى أَحَدٍ
ليعطي العائِلَهْ
شجراً وأَسماءً ..
أَتعرفُ مَنْ أَنا حتى تموت نيابةً عنّي؟
ستمضي القافِلَهْ
جازاكَ ربُّكَ.. سوف تمضي القافِلَهْ
لا، ليس شعراً أن ترى قمراً ينَقِّطُ خارطهْ
لا، ليس شعراً أن ترتِّب ذكرياتي الساقطَهْ

فانهض على فَرَس الدُخانْ
وارحلْ معي، من أَجلِ أُمِّكْ ...

□

بيروت / عصراً:
زَمَنٌ مضى
لكنه لا ينتهي

□

بيروت / فجراً:
الشاعرُ آفتُضِحَتْ قصيدتُهُ تماما
وثلاثةٌ خانوهُ:
تموزٌ
وإمرأةٌ
وإيقاعٌ
فَنَامَا ...
لا يستطيع الصوتُ أن يعلو على الغارات في هذا المدى
لكنهُ يُصغي لموجتِهِ الخصوصيَّةْ:
موتٌ وحريَّةْ

يصغي لموجتهِ ويفتحُ وقتَهُ لجنونِهِ
من حقِّه أن يُجلس السأمَ الملازمَ فوق مائدةٍ
ويشرب قهوةً مَعَهُ
إذا ابتعد الندامى.
الشاعر آفْتُضِحَتْ قصيدتُهُ تماما
بيروتُ تخرجُ من قصيدتِهِ
وتدخل خوذةَ المُحتلِّ،
مَن يُعطيه دهشتَه
ومَنْ يرمي على يَدِهِ
أَرُزّاً أَو .. سلاما.
الشاعرُ آفْتُضِحتْ قصيدتُهُ تماما.
في بيته بارودةٌ للصَّيْدِ،
في أَضلاعه طَيْرٌ
وفي الأَشجارِ عُقْمٌ مالحٌ.
لم يشهدِ الفصلَ الأخيرَ من المدينةِ.
كُلُّ شيء واضحٌ منذ البدايةِ،
واضحٌ
أو واضحٌ

أو واضحٌ.
وخليلُ حاويْ لا يريد الموتَ، رُغْمَاً عنهُ
يُصغي لموجَتِهِ الخصوصيَّهْ
موتٌ وحريَّهْ
هو لا يريد الموتَ رغماً عنهُ
فليفتحْ قصيدتَهُ
ويذهبْ ..
قبلَ أنِ يُغريه تموزٌ، وإمرأةٌ، وإيقاعٌ
.. وناما
الشاعرُ آفْتُضِحَتْ قصيدتُهُ تماما.

□

بيروت / فجراً
بيروت / ظهراً
بيروت / ليلاً:
يخرج الفاشيُّ من جسدِ الضحيَّهْ
يرتدي فصلاً من البارود: أُقْتُلْ ـ كي تكونْ
عشرين قرناً كان ينتظرُ الجنونْ
عشرين قرناً كان سفّاحاً مُعَمَّمْ

عشرين قرناً كان يبكي .. كان يبكي
كان يخفي سيفَهُ في دمعَتِهْ
أَو كان يحشو بالدموع البندقيَّهْ
عشرين قرناً كان ينتظر الفلسطينيَّ في طرف المخيَّمْ
عشرين قرناً كان يعلَمْ
أَن البكاءَ سلاحُهُ

□

صبرا ـ فتاةٌ نائمهْ
رحل الرجالُ إلى الرحيلْ
والحرب نامت ليلتين صغيرتين،
وقدَّمَتْ بيروتُ طاعتها وصارتْ عاصمَهْ ..
ليلٌ طويلٌ
يرصدُ الأحلامَ في صبرا،
وصبرا ـ نائمهْ.
صبرا ـ بقايا الكفِّ في جسدٍ قتيلِ
ودَّعتْ فرسانها وزمانها
واستسلمتْ للنومِ، من تعبٍ، ومن عَرَبٍ رَمَوْها خلفهم.
صبرا ـ وما ينسى الجنودُ الراحلون من الجليلِ

لا تشتري وتبيعُ إلَّا صمتها
من أجل وردٍ للضَّفيرهْ
صبرا ـ تغنّي نصفَها المفقودَ بين البحرِ والحربِ الأخيرهْ:
لِمَ ترحلونَ
وتتركون نساءَكم في بطنِ ليلٍ من حديدِ؟
لِمَ ترحلونْ
وتعلّقون مَسَاءَكُمْ
فوق المخيّم والنشيدِ؟
صبرا ـ تُغَطّي صدرها العاري بأُغنية الوداعْ
وتَعُدُّ كفَّيها وتخطىءُ
حين لا تجد الذراعْ:
كَمْ مرةً ستُسافرونْ
وإلى متى ستُسافرونْ
ولأيّ حُلمْ؟
وإذا رجعتم ذات يومْ
فلأيّ منفى ترجعونَ،
لأيّ منفى ترجعونْ؟
صبرا ـ تُمَزّق صدرها المكشوفَ:

كم مَرَّهْ
تتفتَّحُ الزهرهْ
كم مَرَّةً
ستُسافر الثورهْ؟
صبرا ـ تخافُ الليل. تسندهُ لرُكْبتها
تغطيهِ بكحلِ عيونها. تبكي لتُلْهيهِ:
رحلوا وما قالوا
شيئاً عن العودهْ
ذَبلوا وما مالوا
عن جمرةِ الوردهْ!
عادوا وما عادوا
لبداية الرحلهْ
والعمرُ أَولادُ
هربوا من القُبْلَهْ.
لا، ليس لي منفى
لأَقول: لي وطنُ
اللّهُ، يا زَمَنُ ..!
صبرا ـ تنامُ. وخنجرُ الفاشيِّ يصحو

صبرا تنادي .. مَنْ تنادي
كُلُّ هذا الليلِ لي، والليلُ ملحُ
يقطع الفاشيُّ ثدييها ـ يقلُّ الليلُ ـ
يرقص حول خنجرهِ ويلْعَقُهُ. يغنّي لانتصار الأَرْزِ موّالاً،
ويمحو
في هدْوءٍ .. في هدوءٍ لحمَها عن عَظْمِها
ويمدِّدُ الأعضاءَ فوق الطاولَهْ
ويواصل الفاشيُّ رقصَتَهُ ويضحك للعيون المائلَهْ
ويُجَنُّ من فرحٍ وصبرا لم تعد جسداً:
يُرَكِّبها كما شاءتْ غرائزهُ، وتصنعها مشيئتهُ.
ويسرق خاتماً من لحمها، ويعودُ من دمها إلى مرآتِهِ
ويكون ـ بحرُ
ويكون ـ برٌّ
ويكون ـ غيمُ
ويكون ـ دَمْ
ويكون ـ ليلُ
ويكون ـ قتلُ
ويكون ـ سبتُ

وتكون ـ صبرا.
صبرا ـ تقاطُعُ شارعيْنِ على جَسَدْ
صبرا ـ نزولُ الروحِ في حَجَرِ
وصبرا ـ لا أحدْ
صبرا ـ هوية عصرنا حتى الأبدْ ..

□

بيروت / أمسِ / الآنَ / بعدَ غدٍ:
نشيدٌ للخريفِ
صُوَرٌ لما بعد النهارْ
وظلالُ إمرأةٍ غريبهْ.
وطني حقيبهْ
وحقيبتي وطني
ولكن ... لا رصيفَ،
ولا جدارْ.
لا أرضَ تحتي كي أموتَ كما أشاءُ،
ولا سماءْ
حولي
لأثقبَها وأدخلَ في خيام الأنبياءْ.

ظهري إلى الحائطْ
الحائطِ / الساقطْ!

وطني حقيبهْ
وحقيبتي وَطَنُ الغَجَرْ
شعبٌ يُخَيِّمُ في الأغاني والدخانْ
شعبٌ يُفتِّشُ عن مكانْ
بين الشظايا والمطرْ.

وجهي على الزهرهْ
الزهرة / الجمرهْ

وطني حقيبهْ
في الليل أفرشها سريرا
وأنامُ فيها،
أخدعُ الفتياتِ فيها
أدفن الأحبابِ فيها
أرتضيها لي مصيرا

وأموتُ فيها.

كَفِّي على النجمهْ
النجمةِ / الخيمهْ

وطني حقيبهْ
من جلدِ أحبابي
وأندلسَ القريبهْ
وطني على كتفي
بقايا الأرضِ في جسدِ العروبَهْ.

قلبي على الصخرهْ
الصخرةِ / الحرَّهْ

□

يا أهلَ لبنانَ ... الوداعا
شكراً لِكُلِّ شجيرةٍ حَمَلَتْ دمي
لتضيءَ للفقراءِ عيدَ الخبزِ،
أو لتضيءَ للمحتلِّ وجهي كي يرى وجهي

ويرتديَ الخداعا.
شكراً لكُلِّ سحابةٍ غَطَّتْ يديَّ
وَبَلَّلَتْ شفتيَّ،
حتى أعطت الأعداء باباً.. أو قناعا.
شكراً لكُلِّ مُسَدَّسٍ غطَّى رحيلي
بالأرُزِّ وبالزهور،
وكان يبكي أو يزغرد ما استطاعا.
يا دمعةً هي ما تبقّى من بلادٍ
أُسندُ الذكرى إليها ... والشُّعاعا.
يا أهلَ لبنان الوداعا!

اليوم أكملتُ الرسالةَ فانشروني، إن أردتم، في القبائلِ توبةً
أو ذكرياتٍ
أوْ شراعا.
اليومَ أكملتُ الرسالةَ فِيكُمُ
فلتطفئوا لهبي، إذا شئتم، عن الدنيا،
وإنْ شئتمْ فزيدوه اندلاعا
أنا لي، كما شاءتْ خطايَ

حملتُ روحي فوق أيديكم فراشاتٍ،
وجسمي نرجساً فيكمْ،
وموتايَ اندفاعا

يا أَهْلَ لبنانَ .. الوداعا.
هذا دمي، يا أهْلَ لبنان، ارسموهْ
قمراً على ليلِ العَرَبْ.
هذا دمي ـ دمُكم خذوه وورِّعوهْ
شجراً على رمل العربْ.
هذا رحيلي عن نوافذكم وعن قلبي انحتوهْ
حجَراً على قبرِ العربْ
هذا بكاء رصاصنا، هذا يتيم زواجنا، فلترفعوهْ
سهراً على عُرس العربْ.
هذا نشيجي. مزِّقُوه وبعثروهْ
مطراً على أرضِ العربْ.
هذا خروج أصابعي من كفِّكمْ
هذا فطام قصيدتي، فَلْتكتبوهْ
وتراً على طَرَب العربْ.

هذا غبار طريقنا، فلترفعوهْ
لهمو حصوناً، أو قلاعاً
يا أهْلَ لبنانَ الوداعا.
سيجيئكم مَطَرٌ
ويغسلُ ما تركتُ على شوارعكم من الكلماتِ،
يطردُ ما تركتُ على نوافذكم من الشهواتِ.
يمحو ما لَمَسْتُ من الصَّنوبرِ في جبالِكُمُ
وينسيكمْ فتىً كسرَ الهواءَ على موائدكم قليلاً.
أو أضاع يديهِ في أيديكم سَنَةً، وضاعا.
يا أهْلَ لبنانَ ... الوداعا.

حدَّقتُ في كَفِّي
لأُبصرَ ما وراء البحرِ ـ
تلك وسيلتي لتَبَصُّرِ الأشياءِ ـ
بحرٌ، ثم بحرٌ، ثم بحرٌ
مَنْ رآني
عَدَّ أكفاني
وغطّى جرحكم كي يشتري جبلاً
ويبتاعَ الصراعا.

يا أهْلَ لبنانَ .. الوداعا.

لا جوعَ في روحي،
أكلتُ من الرغيف الفذِّ ما يكفي المسيرَ إلى نهايات الجهات.
عشاؤكم ليس الأخيرَ
وليس فينا مَن تراجَعَ، أو تداعى.
يا أهْلَ لبنان ... الوداعا.

جَسَدانِ في تابوتِ هذا الشرقِ نحنُ
يزوِّدان المِذْوَدَ المنسيَّ بالصرخاتِ،
نحن بشارة الميلادِ نحنُ
وصورتانِ لخطوةٍ قد حاولتْ
قد حاولتْ
قد حاولتْ
أنْ تَهْديَ الشرقَ المَشَاعا.
يا أهْلَ لبنانَ ... الوداعا.

إسمان للتوحيد نحنُ:
على مشيئتنا أردنا أن نكونَ

ولا يكونَ الناسُ في الدنيا متاعا.
يا أهْلَ لبنانَ ... الوداعا.

والآن، أكملنا رسالتنا
إذْ آتّحد الشقيقُ مع العدوّ
ولم نجد أرضاً نُصَوِّب فوقها
غدنا
ونرفعه قلاعا.
يا أهْلَ لبنانَ ... الوداعا.

□

اليومَ إنجيلُ السوادْ،
اليومَ تابَتْ مريمٌ عن توبةِ التوباتِ وارتفع الحدادْ
إلى جبين اللّه
وآختفتِ الفراشات الصغيرةُ
في أكاليلِ الرمادْ...

□

والبحرُ أبيضُ
هذه سُفني الأخيرةْ

ترسو على دمع المدينة، وهي ترفع رايتي،
لا رايةٌ بيضاء في بيروت
شكراً للذي يحمي المدينة من رحيلي
للَّتي مَدَّتْ ضفيرتها لتحملني إلى سفني الأخيرهْ
ـ أين تذهبُ؟
ليس لي بابٌ لأَفتحَهُ لفارسيَ الأخيرْ
ـ والسبتُ أسودُ،
ليس لي قلبٌ لأَخلعَهُ على قدميكَ يا ولدي الصغيرْ
ـ أنا لا أُودِّع، بل أُوزِّع هذه الدنيا
على الزَّبد الأخيرْ
ـ وأين تذهبُ؟
أينما حَطَّتْ طيورُ البحرِ في البحرِ الكبيرْ

البحرُ دهشتنا، هشاشتُنا
وغربتُنا ولعبتُنا
والبحر أرضُ ندائنا المستأصلَهْ
والبحرُ صُورَتُنا
ومَنْ لا بَرَّ لَهْ

لا بَحْرَ لَهْ ...

... بَحْرٌ أمامكَ، فيكَ، بحرٌ من ورائكَ.
فوق هذا البحر بَحْرٌ، تحتهُ بَحْرٌ
وأنتَ نشيدُ هذا البحرِ ...
كَمْ كنا نحبُّ الأزرقَ الكحليَّ لولا ظلُّنا المكسور فوق البحرِ؛
كَمْ كنا نُعِدُّ لشهرِ أيلولَ الولائمَ.
ـ عَمَّ تبحث يا فتىً في زورق الأوديسةِ المكسورِ؟
ـ عن جيشٍ يحاربني ويهزمني فأنطق بالحقيقةِ ثم أسأل: هل أَكونُ مدينةَ الشعراءِ يوماً؟
ـ عَمَّ تبحث يا فتىً في زورق الأوديسة المكسورِ؟
ـ عن جيش أُحاربهُ وأهزمهُ،
وعن جُزُرٍ تُسمِّيها فتوحاتي، وأسأل: هل تكون مدينةُ الشعراءِ وَهْمَاً؟
ـ عَمَّ تبحث يا فتىً في زورق الأوديسةِ المسكورِ، عَمَّ؟
ـ عن موجةٍ ضيَّعتها في البحرِ
عن خاتَمْ
لأُسيِّجَ العالمْ

بحدود أُغنيتي
ـ وهل يجد المهاجر موجةً؟
ـ يجد المهاجر موجةً غرقتْ ويُرجعها مَعَهْ

بحر لتسكن، أم تضيعْ
بحر لأيلولَ الجديدِ أم الرجوع إلى الفصول الأربعَهْ
بحر أمامك، فيك، بحرٌ من ورائكَ.
تفتح الموجَ القديمَ: وُلدتُ قرب البحر من أمٍّ فلسطينيةٍ وأبٍ
أراميٍّ. ومن أمٍّ فلسطينيةٍ وأبٍ مؤابيٍّ. ومن أمٍّ فلسطينيةٍ
وأبٍ أشوريٍّ. ومن أمٍّ فلسطينية وأبٍ عروبيٍّ. ومن أمٍّ،
ومن أُمٍّ ... على حجر يُقَيِّدُ فوقه الرومانُ أسرى حربهم
ويُحررون جمالهم مني ...
أنا الحجر الذي شدَّ البحارَ إلى قُرون اليابسهْ
وأنا نبيُّ الأنبياءِ
وشاعرُ الشعراءِ
منذ رسائل المصريِّ في الوادي إلى أشلاء طفل في شاتيلا.
أنا أوَّلُ القتلى وآخرُ مَنْ يموتْ.
إنجيلُ أعدائي وتوراةُ الوصايا اليائسهْ

كُتِبَتْ على جسدي
أنا ألفٌ، وباءٌ في كتاب الرسم،
يشبهني ويقتلني سوايْ
كُلُّ الشعوب تعوَّدَتْ أن تدفن الموتى بأضلاعي
وتبني معبداً فيها
وترحلُ عن ثرايْ
وأنا أضيقُ أمام مملكتي
وَتَتَّسِعُ الممالك فيَّ،
يسكنني ويقتلني سوايْ.
كلُّ الشعوب تزوَّجت أمي،
وأمي لم تكن إلّا لأمي
خصرها بحرٌ. ذراعاها سحابٌ يابسٌ
ونُعَاسُها مطرٌ ونايْ.
وأنا أفيض أمام أغنيتي
وتحبسني خناجرها
يؤاخيني ويقتلني سوايْ.
... وأنا نشيدُ البحرِ.
لا أرضى بما يرضي دَمَ الإغريق من ريحٍ تهبُّ لتنتهي المأساةُ

بالمأساة. قد ذبحوك كي يجدوك كرسيّاً فلا تجلسْ
لأنَّ جميعَ آلهتي كلابُ البحرِ
فاحذرها ولا تذهبْ إلى القُربانِ ...
إن الريحَ واقفةٌ
فلا تلمسْ يدَ القرصانِ،
لا تصعد إلى تلك المعابدِ
لا تصدّقْ
لا تصدّقْ
فهي مذبحةٌ
ولا تخمدْ هجيرك عندما يتقمَّص السجّانُ شكل الكاهنِ
الرسميِّ،
إنَّ جميع آلهتي كلابُ البحرِ
فاحذرْها.
ودَعْ .. دَعْ كلَّ شيء واقفاً
دَعْ كُلَّ ما ينهارُ منهاراً،
ولا تقرأ عليهم أيَّ شيءٍ من كتابكْ! ..
والبحرُ أبيضُ
والسماءُ

قصيدتي بيضاءُ
والتمساحُ أبيضُ
والهواءُ
وفكرتي بيضاءُ
كلبُ البحر أبيضُ
كل شيءٍ أبيضٌ:
بيضاءُ دهشتُنا
بيضاءُ ليلتُنا
وخطوتنا
وهذا الكونُ أبيضُ
أصدقائي
والملائكةُ الصغارُ
وصورة الأعداءِ
أبيضُ، كل شيء صورةٌ بيضاءُ. هذا البحرُ، مِلء البحرِ،
أبيضُ ..

□

لستَ آدمَ كي أقولَ خرجتَ من بيروت منتصراً على الدنيا
ومنهزماً أمام اللّه.

أنت المسألَةْ
الأرضُ إعلانٌ على جدران هذا الكون،
حَبَّةُ سُمْسُمٍ، فتلاكَ
والباقي سدى
فاعطِ المدى
إسم العيونِ المهملَةْ
لك أن تكون ـ ولا تكونْ
لك أنْ تُكَوِّنْ
أوْ لا تُكَوِّنْ ..
كلُّ أسئلة الوجودِ وراء ظِلِّك مهزلَةْ.
والكونُ دفترك الصغيرُ،
وأنت خالقُهُ،
فدوِّن فيه فردوسَ البداية، يا أبي..
أو لا تُدَوِّنْ
أنت ... أنتَ المسألَةْ.
ماذا تريدُ؟
وأنت من أُسطورةٍ تمشي إلى أُسطورةٍ
عَلَماً؟

وماذا تنفعُ الأعلامُ ..
هل حَمَتِ المدينَةَ من شظايا قنبُلَهْ؟.
ماذا تريدُ؟
جريدةً؟
أتفقّسُ الأوراقُ دُوريّاً
وتغزلُ سنبُلهْ؟
ماذا تريدُ؟
أَشْرِطَةً؟
هل يعرف البوليسُ أين ستحبل الأرضُ الصغيرةُ بالرياح
المُقْبِلَهْ؟
ماذا تريدُ؟
سيادةً فوق الرَّمَادِ؟
وأنت سَيِّدُ رُوحِنَا يا سَيِّد الكينونَة المتحوِّلَهْ.
فاذهب ...
فليسَ لك المكانُ ولا العروش/المزبَلَهْ.
حُرِّيَّةُ التكوين أنتَ
وخالقُ الطرقاتِ أنتَ
وأنت عكسُ المرحلَهْ.

واذهبْ فقيراً كالصلاةِ
وحافياً كالنهر في درب الحصى
ومُؤَجّلاً كقرنفُلَهْ.
لا، لست آدمَ كي أقولَ خرجتَ من بيروتَ أو عَمّانَ أو
يافا، وأنت المسألَهْ
فاذهب إليكَ، فأنْتَ أوسعُ من بلاد الناسِ، أوسعُ من فضاء
المقصلَهْ
مستسلماً لصواب قلبكَ
تخلع المدنَ الكبيرةَ والسماءَ المُسْدَلَه؟
وتمدُّ أرضاً تحت راحتك الصغيرة،
خيمةً
أو فكرةً
أو سنبلَهْ.
كَمْ من نبيٍّ فيك جَرَّبَ
كَمْ تعذَّب كي يُرَتِّبَ هيكَلَهْ.
عبثاً تحاول يا أبي مُلْكاً ومَمْلَكَةً
فَسِرْ للجُلْجُلَهْ
واصْعَدْ معي

لِنُعِيْدَ للروح المُشَرَّد أوَّلَهْ
ماذا تريد وأنت سَيِّدُ روحنا
يا سَيِّدَ الكينونة المتحوِّلَهْ؟
يا سَيِّدَ الجمرهْ
يا سَيِّدَ الشُّعْلَهْ
ما أوسع الثورهْ
ما أضيق الرحلَهْ
ما أكبَرَ الفكرهْ
ما أصغَرَ الدولهْ!

حصار
لمدائح البحر
١٩٨٤

موسيقى عربية

«ليتَ الفتى حَجَرٌ ...»
يا ليتني حَجَرٌ ...

أكُلَّما شَرَدَتْ عينانِ
شرَّدَني
هذا السحابُ سحاباً
كُلَّما خَمَشَتْ عصفورةٌ أُفقاً
فَتَّشْتُ عن وَثَنٍ؟

أكُلَّما لَمَعَت جيتارةٌ
خَضَعتْ
روحي لمصرعها في رَغْوَةِ السُّفُنِ

أَكُلَّما وَجَدَتْ أُنثى أُنوثتَها
أضاءني البرقُ من خصري
وأحرقني!

أَكُلَّما ذَبُلَتْ خُبّيزَةٌ
وبكى طيرٌ على فننِ
أصابني مَرَضٌ
أو صِحْتُ: يا وطني!

أَكُلَّما نَوَّرَ اللوزُ اشتعلتُ بِهِ
وكلَّما احترقا
كنتُ الدخانَ ومنديلاً
تمزقني
ريحُ الشمال، ويمحو وجهيَ المَطَرُ؟

ليت الفتى حَجَرٌ
يا ليتني حَجَرٌ ...

لحن غجري

شارعٌ واضحٌ
وبنتْ
خرجتْ تُشْعل القَمَرْ
وبلادٌ بعيدةٌ
وبلادٌ بلا أثرْ ...

حُلُمٌ مالحٌ
وصوتْ
يَحْفُرُ الخصرَ في الحجرْ
اِذهبي يا حبيبتي
فوق رمشي .. أو الوَتَرْ

قَمَرٌ جَارحٌ
وصمتْ
يكسر الريحَ والمطرْ
يجعل النهرَ إبرةً
في يدٍ تنسج الشَّجَرْ

حَائطٌ سابحٌ
وبيتْ
يختفي كُلَّما ظَهَرْ
رُبَّما يقتلوننا
أو ينامونَ في المَمَرْ ...

زَمَنٌ فاضحٌ
وموتْ
يَشْتَهينا إذا عَبَرْ

انتهى الآن كُلُّ شيء
واقتربنا من النَّهَرْ

انتهتْ رحلةُ الغَجَرْ
وتعبنا من السَّفَرْ

شارعٌ واضحٌ
وبنتْ
خرجتْ تُلصِقُ الصُوَرْ
فوق جدران جُثَّتي
وخيامي بعيدةٌ
وخيامٌ بلا أَثَرْ ...

أقبية، أندلسية، صحراء

فلتواصلْ نشيدكَ باسمي. هل اخترتُ أُمِّي وصوتَكَ؟ صحراءُ
صحراءُ
ولتكن الأرضُ أوْسعَ من شكلها البيضويِّ. وهذا الحمامُ الغريبْ
حمامٌ غريب. وصدِّق رحيلي القصير إلى قرطبهْ.
وافتراقي عن الرمل والشعراء القدامى، وعن شَجَرٍ لم يكن اِمرأة.
البدايةُ ليست بدايتنا، والدخانُ الأخيرُ لنا
والملوكُ إذا دخلوا قريةً أفسدوها،
فلا تبكِ، يا صاحبي، حائطاً يتهاوَى
وصدِّق رحيلي القصير إلى قرطبهْ
وواصلْ نشيدك باسمي. هل اخترتُ أُمي وصوتك؟ صحراءُ
صحراءُ

سَهْلٌ وصعبٌ خروجُ الحمام من الحائط اللغويِّ، فكيف سنمضي
إلى ساحة البرتقال الصغيرةِ؟

سَهْلٌ وصعبٌ دخولُ الحمام إلى الحائط اللغويِّ، فكيف سنبقى
أمام القصيدة في القبو؟ صحراءُ صحراءُ
أذكر أني سأحلُمُ ثانيةً بالرجوع
ـ إلى أين يا صاحبي؟
ـ إلى حيثُ طار الحمام فصفّق قمحٌ وشقّ السماء
ليربط هذا الفضاءَ بسنبلةٍ في الجليلْ
ـ هل نَجَوْتَ، إذن، يا صديقي؟
ـ تدلّيتُ من شرفة اللّه كالخيط في ثوب أُمِّي الطويلْ
وارتطمتُ بعوسجةٍ فانفجرتُ ...
ـ لماذا تريد الرحيلَ إلى قرطبهْ؟
ـ لأنيَ لا أعرفُ الدرب، صحراءُ صحراءُ؛

غنِّ التشابهَ بين السؤال وبين السؤال الذي سيليه
لعلّ انهياراً سيحمي انهياري من الانهيار الأخير
أنا ألفُ عامٍ من اللحظة العربيّةِ، أبني على الرمل ما تحمل الريحُ
من غَزَواتٍ ومن شهواتٍ وعطرٍ من الهند. أذكر درب الحرير
إلى الصين. أذكر مدرسةً في ضواحي سمرقندَ، وامرأةً
تقطف التَّمْرَ من كلماتي وتسقطُ في النهر

ـ هل يقتلون الخيولْ؟
ـ والبخارَ الذي يتسلّل من دمنا في اتجاه الصدى
ـ هل تموتُ كثيراً؟
ـ وأحيا كثيراً، وأُمسكُ ظلّي كتفاحةٍ ناضجةْ
ويلتفّ حولي الطريق الطويلْ
كمشنقةٍ من ندى
وأوقنُ، يا صاحبي، أننا لاحقان بقيصرَ.. صحراءُ صحراءُ

غنِّ انتشاري على جسَد الأرض كالفُطْر. إنّ الغجرْ
يكرهون الزراعة.
لكنهم يزرعون الخيول على وتَرَينْ
ولا يملؤون التوابيتَ قمحاً كمصرَ القديمةْ،
ولا يرحلون إلى الأندلسْ
فرادى؛
وغنِّ الحقولَ التي تركض الشمسُ والقلبُ فيها ولا يتعبان...
وصحراءُ

صحراءُ! من ألف عام أتيتُ إلى الضوءِ

هُمْ فتحوا باب زنزانتي فسقطتُ على الضوءِ
ضيِّقةٌ خطوتي، والمسافات بيضاءُ بيضاءُ، والبابُ نهرٌ
لماذا تُقام السجون على ضفّة النهر في بَلَدٍ يشتهي الماء؟
هم فتحوا بابَ زنزانتي فخرجتُ
وجدت طريقاً فسرتُ

إلى أين أذهب؟ في بادئ الأمر قلتُ: أُعلِّمُ حرّيتي المشيَ، مالتْ عليَّ، استندتُ إليها، وأسندتُها، فسقطنا على بائع البرتقال العجوز، وقمتُ، وكدّستُها فوق ظهري كما يحملون البلاد على الإِبْلِ والشاحناتِ، وسرتُ. وفي ساحة البرتقال تعبتُ، فناديتُ: أيتها الشرطةُ العسكريّةُ! لا أستطيع الذهاب إلى قرطبةْ.

وأحنيتُ ظهري على عَتَبَةْ
وأنزلتُ حُريتي مثل كيس من الفحم، ثم هربت إلى القبو؛
هل يشبهُ القبوُ أُمّي وأُمك؟ صحراءُ صحراءُ

ما الساعةُ الآن؟
لا وقتَ للقبوِ
ما الساعةَ الآن؟

لا وقتَ

في ساحة البرتقال تصدِّقنا بائعاتُ السيوف القديمة،
والذاهبون إلى يومهم يسمعون النشيدَ ولا يكذبون على الخبز،
صحراءُ في القلب،

مزِّق شرايينَ قلبي القديم بِأغنية الغجر الذاهبينَ إلى
الأندلسْ

وغنِّ افتراقي عن الرمل والشعراء القدامى، وعن شَجَر لم
يكن اِمرأة

ولا تمتِ الآن، أرجوك! لا تنكسرْ كالمرايا، ولا تحتجبْ
كالوطنْ

ولا تنتشرْ كالسطوح وكالأوديهْ
فقد يسرقونك مثلي شهيداً
وقد يعرفون العلاقة بين الحمامة والأقبيهْ
وقد يشعرون بأن الطيور امتدادُ الصباحِ على الأرض
والنَّهرَ دبُّوسُ شَعْرٍ لسيِّدَة تنتحرْ.
وانتظرني قليلاً قليلاً لأسمع صوتَ دمي
يقطع الشارع المنفجرْ
كنتُ أنجو
ـ ولا تنتصرْ!

ـ وسأمشي
ـ إلى أين يا صاحبي؟
ـ إلى حيث طار الحمام فصفّق قمحٌ
ليُنْشِد هذا الفضاءَ بسنبلةٍ تنتظرْ
فلتواصلْ نشيدكَ باسمي
ولا تبكِ يا صاحبي وتراً ضاع في الأقبيهْ.
إنها أُغنية
إنها أُغنية!

حوار شخصي في سمرقند

إذا انكَسَرَ القلبُ صاحَ: سَمَرْقَندْ
هِيَ الحَجَلُ ...

□

ألا تستطيعُ البكاءَ غداً؟
رُبَّما أستطيع
ولكنْ أينزلُ هذا الندى
كُلَّما
وَجَدَتني الطريقُ إلى الشام
أجمعُ هذا الصدى
مثلما
تجمع العاشقاتُ الدموع عن الليل
أجمعُ هذا الصدى؛
رُبَّما

رُبَّما

كان صوتاً وأخفيتُهُ

فاختفى برَدى.

□

سَمَرْقَنْدُ خيمةُ روحي المُشَرَّدْ

وخمسُ جهاتٍ لدمعة أُمي

سمرقندُ خيطُ حرير

يُعَلِّقُ شاطئ وادٍ على فَرَس تحملُ المطرا

وصوتاً تدلَّى من اللَّه

وانكسرا،

سمرقند نهرٌ تَجَعَّدْ

سَمَرْقَنْدُ خيمةُ روحي المشرَّدْ.

□

أتصعد هذا النداءَ

على الدرج الحجريِّ الطويل

لتبكي الوراءَ؟

لأسرق قلبي المعلَّقَ فوق النخيل

لأسرق أسماءَ أُمي
وأذكرَ بغدادَ قبل الرحيل

على أيِّ جسرٍ رَمَتْكَ الأغاني
قتيلاً لِتُشْعِلَ هذا المساءَ؟

على صدر أُمِّي سقطتُ
وأخفيتُ دجلة في نخلة لا تبوح بسرّي

وأيُّ قتيل
أعاد إليك البكاءَ؟

لقد هاجروا كُلُّهم
كلهم هاجروا يا صديقيَ منِّي إليّ
فهل من دليل
يسير بنا خطوةً
أو يعود بنا خطوةً ما لها أوَّلُ؟

□

إذا انكَسَرَ القلبُ صاحَ: سمرقندْ
هِيَ الخَجَلُ ...

□

سمرقندُ خمسون سَيِّدَةً يَنْتَحِبْنَ على عَتَبَهْ
ويَرْسُمْنَ لِلَّيلِ شكلاً يُرى
قَنَاطِرَ من كلمات القرى
وقد هاجرت
حجراً
حجراً
تضيء قناديلَ فِضَّتها المتعبَهْ ...

□

ألا تشربُ الدمع وحدك
وحدَك؟
أين رُخام ابنِ عَبَّاس؟
في الذكريات

وأين مدى القلب بعد أذان الغروب

وأين القبابُ، وأين الأزقّةُ، والباب؟

في المتحف الوطنيّ
وأين سَمَرْقَنْدُ؟

تحت سَمَرْقَنْدُ ...

دعني أعانقْ أبي في السراب
فكُلٌّ سرابٍ
أبي
وكل غيابٍ
أبي

□

سمرقند ما يترك الوردُ للريح
ما يتركُ البلبلُ
على قَمَرٍ عابر في القصيدةْ
سمرقند ما تتركُ القُبَلُ

على شهوةٍ تَذْبُلُ...
سمرقند سُجّادَةٌ للصلاة البعيدةْ
سمرقند مئذنةٌ للندى
وبوصلةٌ للصّدى
سمرقند وَصْفٌ سريع لما يتساقط من حُبِّنا
عندما نرحلُ
إذا انكسر القلب صاح: سمرقندْ
هي الحجَلُ ...

□

أتذكر كيف دخلت المدينة؟
كَسَّرتُ أضلاعَ صدري الأخيرةَ
قنطرةً
قنطرةْ
وحين انحنيتُ لأشْهَدَ صُورةَ قلبي
رأيتُ سمرقند في قُبَّرةْ

وكيف ستخرج؟

أنسى دمي
في حجارتها المُقْمِرةْ

□

إذا انكسر القلب صاح: سمرقندْ
هي الحجَلُ
على رِسْلِهِ، ينكُثُ الوعدُ بالوعدْ
وتبقى من المرأة القُبَلُ
وداعاً سمرقندْ
يا امرأةً لا تُقيمُ، ولا ترحلُ
وداعاً ...
وداعاً سمرقند!

رحلة المتنبي إلى مصر

للنيل عاداتٌ
وإني راحلُ

أمشي سريعاً في بلادٍ تسرقُ الأسماءَ منِّي
قد جئتُ من حَلَبٍ، وإني لا أعودُ إلى العراقِ
سَقَطَ الشمالُ فلا أُلاقي
غيرَ هذا الدربِ يَسْحَبُني إلى نفسي ... ومصر
كم اندفعتُ إلى الصهيلْ
فلم أجدْ فَرَساً وفرساناً
وأسْلَمَني الرحيلُ إلى الرحيلْ
ولا أرى بلداً هناك
ولا أرى أحداً هناك
الأرضُ أصغرُ من مرور الرمح في خصرٍ نحيلْ

والأرضُ أكبرُ من خيام الأنبياءِ
ولا أرى بلداً ورائي
لا أرى أحداً أمامي
هذا زحامٌ قاحلُ
والخطوُ قبل الدرب، لكنَّ المدى يتطاولُ

للنيل عاداتٌ
وإني راحلُ

وطني قصيدتيَ الجديدةُ
أمشي إلى نفسي فتطردني من الفسطاط
كم ألجُ المرايا
كم أُكسّرها
فتكسرني
أرى فيما أرى دُوَلاً تُوَزَّعُ كالهدايا
وأرى السبايا في حروب السبي تفترس السبايا
وأرى انعطافَ الانعطاف
أرى الضفاف

ولا أرى نهراً ... فأجري
وطني قصيدتيَ الجديدةُ
كيف أدري
أنَّ صدري ليس قبري
كيف أدري
أن أضلاعي سياجُ الأرضِ أو شَجَرُ الفَضَاءِ وقد تَدَلَّى
كيف أدري
أنَّ هذا الليلَ قد يُدمي
فأرمي القلبَ من سَأمي إلى عَسَسِ الأميرِ
وقد تساوى الحبلُ والمحكومُ
هل وطني قصيدتي الجديدةُ؟
هَيْتَ لَكْ
ما أجملَكْ
الليلُ ليليٌّ، وهذا القلبُ لَكْ
لا الحبُّ ناداني
ولا الصفصافُ أغراني بأن أغفو
ولا جَسَدٌ من الأبنوس مَزَّقني شظايا

أمشي إلى نفسي

فتطردني من الفسطاط
كم ألج المرايا
كم أُكسِّرها
فتكسرني
أرى دُوَلاً تُوَزَّعُ كالهدايا
والنهرُ لا يمشي إليَّ، فلا أراهُ
والحقلُ لا ينضو الفراشَ على يديَّ، فلا أراهُ
لا مصر في مصر التي أمشي إلى أسرارها
فأرى الفراغ، وكُلَّما صافحتُها
شَقَّتْ يدينا بابلُ
في مصر كافورٌ .. وفيَّ زلازلُ

للنيل عاداتٌ
وإنِّي راحلُ

حَجَرٌ أنا
يا مصر، هل يصلُ اعتذاري
عندما تتكدسين على الزمان الصعب أصعبَ مِنْهُ؟

خطوي فكرتي
ودمي غباري.
هل تتركين النهر مفتوحاً لمن يأتي
ويهبط من مراكبه إلى فخذين من عاجٍ وعرش
هل يكون العرشُ قبل الماء؟
لا أدري، ولكن... ربما... هيهات... قد...
لا يصعدون السُلَّم الحجريَّ والأهرامَ كالحلزون
أعرفُ أنني أمتصُّ فيكِ الغزوَ
أعرف أنني لا أعرف السرَّ الدفينَ
وأنني صِفْرُ اليدين وسائرِ الأعضاءِ
أعرف أنني سَأَمُرُّ في لمح الوطنْ
وأذوبُ في الغزوات والغزوات
لكنْ كُلَّما حاولتُ أن أبكي بعينيكِ
التفَتُّ إلى غيابي
فالتصقتُ بما تبقّى منكِ أو منِّي، وأدركَني الزمنْ..
هل تتركين النيل مفتوحاً
لأرمي جُثَّتِي في النيل؟
لا. لن يستبيح الكاهنُ الوثنيُّ زوجاتي

ولا، لن أبنيَ الأهرامَ ثانيةً، ولا
لن أنسج الأعلام من هذا الكفن
من يفتديني، يا مُعَذّبتي، بمَنْ؟
ولمن؟
تمضين حافيةً لجمع القطن من هذا الصعيد
وَتسكتين لكي يضيع الفرقُ بين الطين والفلاَّح
في الريف البعيد
وتجفُّ في دمك البلابل والذرهْ
ويطول فيك الزائلُ

للنيل عاداتٌ
وإِني راحلُ

هل غادرَ الشعراءُ مصرَ؟ ولن يعودوا...
إنَّ أرضَ اللَّه ضَيِّقةٌ، وأضيقَ من مضائقها الصعودُ
على بساط الرمل ...
هل من أجل هذا القبر نامتْ مصرُ في الوادي
كأنَّ القبرَ سَيِّدُها؟

بلادٌ كُلَّما عانقتُها فَرَّتْ من الأضلاع
لكنْ كُلَّما حاولتُ أن أنجو من النسيان فيها
طاردتْ روحي
فصارتْ كُلُّ أرضِ الشام منفى
كلما انبجسَتْ من القلب المهاجر لحظةُ امرأةٍ
وعانقتُ الحبيبةَ أصبحتْ ذكرى
ونفسي تشتهي نفسي ولا تتقابلان
ولا تُردَّان التحيَّة في طريقهما إليَّ...
... إليَّ يا طُرُقَ الشمال
نسيتُ أن خطاي تَبْتَكِرُ الجهاتِ
وأبجديَّاتِ الرحيل إلى القصيدة واللهبْ
يا مصرُ، لن آتيكِ ثانيةً ...
ومَنْ يتركْ حَلَبْ
ينسَ الطريق إلى حلبْ
وأنا أسيرٌ حَرَّرَتْه سلاسلُ
وأنا طليقٌ قَيَّدَتْه رسائلُ

للنيل عاداتٌ
وإني راحلُ

... وإلى اللقاء إذا استطعتُ
وكلٌّ من يلقاكِ يخطفه الوداعُ
وأُصيب فيكِ نهاية الدنيا ويصرعني الصراعُ
والقرمطيُّ أنا. ولكنَّ الرفاقَ هناك في حَلَبٍ
أضاعوني وضاعوا
والرومُ حول الضاد ينتشرون
والفقراء تحت الضاد ينتحبون
والأضدادُ يجمعهم شراعٌ واحِدٌ
وأنا المسافرُ بينهم. وأنا الحصارُ. أنا القلاعُ
أنا ما أُريد ولا أُريد
أنا الهدايةُ والضياعُ
وتشابُهُ الأسماء فوق السُّلّم الملكيّ
لولا أن كافوراً خداعُ

ماذا جرى للنيل؟
لم يأخُذْ دموعي
في اتجاه مَصَبِّها
ماذا جرى للنيل؟

لم يقذفْ ربيعي
قُرْبَ عمري،
والقلوبُ هنا مشاعُ ...

ماذا جرى للنيل
لم يعتبْ
ولم يغضبْ
عليَّ
وفي صحاريَّ اتساعُ ...
وسُكُونُ مصرَ يَشُقُّنِي:
هذا هو العبدُ الأميرُ
وهذه الناسُ الجياعُ
والقرمطيُّ أنا، أبيعُ القصرَ أُغنيةً
وأهدِمُهُ بأُغنيةٍ
وأسندُ قامتي بالريح والروح الجريح
ولا أُباعُ.
الآن أُشْهِرُ كُلَّ أَسئلتي
وأسألُ: كيف أسألُ؟

والصراعُ هو الصراعُ
والروم ينتشرون حول الضاد
لا سيفٌ يطاردهم هناك ولا ذراعُ
كُلّ الرماح تُصِيبُني
وتُعيدُ أسمائي إليَّ
وتعيدني منكم إليَّ
وأنا القتيل القاتلُ

للنيل عاداتٌ
وإني راحلُ

الحوار الأخير في باريس

(لذكرى عز الدين قلق)

... على بابِ غرفتهِ قالَ لي: إنهم يقتلونَ بلا سببِ
هل تحبُّ النبيذَ الفرنسيَّ
والمرأة الشاردهْ؟
تطلَّعَ خلف الجهاتِ، وحاولَ أن يفتحَ البابَ
لكنّهُ خافَ أن يخرجوا من خزانتهِ
فرجعنا إلى المصعد ...
الساعةُ الواحدهْ
وباريسُ نائمةٌ. من هنا يبدأ الليلُ.
من أينَ؟ من شارعٍ واسعٍ لا يسيرُ عليه سواكَ،
ومن شجرٍ لا تراهُ،
ومن جسدٍ أبيض يشتهيكَ،
ومن طلقةٍ قد تراكَ.
ـ أتقرأ كافكا وتدخلُ في الليلِ؟

كان زماناً جميلاً وكانتْ دمشقُ نهاياتِ أحلامنا
ذهبنا إلى بَردى وسألناهُ:
هل أنت نهرٌ أم آمرأةٌ زاهدهْ؟
فلم يخرجونا إلى النهر ثانيةً...
صاحِ! هذي زنازينُنا تملأُ الأرضَ من عهدِ عادٍ،
فأين البياضُ وأينَ السوادُ؟
... وباريسُ نائمةٌ في الرسومُ على حافةِ السِّيْنِ
كُلُّ روايات باريسَ غَارقةٌ في التلوث.
وحدهُمُ العاشقونَ يظنونَ أن المياهَ مرايا فينتحرونْ...
ـ أين ننامُ أخيراً؟
على مقعدٍ في الحديقةِ
قلت: ألا يقتلون هنا؟
قال لي: ربَّما يقتلون، ولكنه تَعَبٌ لا يخافُ
وقلت: أيوجعُكَ الليلُ؟
قال: وتوجعني الروحُ والنجمةُ الباردهْ.

لعلَّ الفتى حجرٌ ...
من بعيدٍ يرى مُدُنَ البرتقالِ السياحيِّ

والكاهن العسكريٌّ

ولكنه يجمعُ الملصقات ويكتب فوق بقايا السجائر آراءه في الغزاة الذين إذا شاهدوا مُدُناً هدموها بأسمائهم واستراحوا على العشبِ.

قال: لماذا تكون الثقافةُ ظلّ الجنودِ على ساحلِ الأبيضِ المتوسطِ؟

قلتُ: وخادمةً للبلاطِ وللفئة الزائدةْ

... قد اعترفوا أنهم قتلوني

ولكنهم عانقوني طويلاً

ودسّوا مكان الرصاصةِ عشرين ألف فرنكٍ مكافأةً للخطابِ الذي سوف أُقنعُ فيه اليسارَ الفرنسيَّ أن السجونَ على ضفةِ النهر مستشفياتٌ

وأنَّ دمي مائدةْ

وكان صديقي يطيرُ

ويلعب مثل الفراشة حول دمٍ

ظنَّهُ زهرةً؛

كان مستسلماً

للعيون التي حفظتْ ظلَّهُ،

وكان يرى ما تراه العيونُ التي حَفَظت ظلَّهُ،
كان مزدحماً
بالأزقّة والذاهبين إلى السجن والسينما
والليالي التي امتلأت بالليالي
وباللغة الفاسدهْ.
وكان يودّعني كلما جاءني ضاحكاً
ويراني وراء جنازتِهِ
فيطلّ من النعشِ:
هل تؤمن الآنَ أنهمُ يقتلون بلا سببٍ؟
قلتْ: مَنْ هُمْ؟
فقال: الذين إذا شاهدوا حُلُما
أعدّوا له القبرَ والزهرَ والشاهدهْ.

... وكان يحبُّ وينسى
ويسألني دائماً: يا صديقي لماذا أُحبُّ وأنسى التي سأحبُّ،
ونبقى غريبين في مصعدٍ ينظران إلى الساعةِ الجامدهْ؟
يحبُّ وينسى
ويذكر شكلَ النباتات حولَ الدروب التي خرجتْ من شمالِ
فلسطين في شهر مايو ولم ترجع

الأغنياتُ التي ودَّعتْ نازحا
والأغاني التي استقبلتْ فاتحا
تتشابهُ،
قالَ: أفكَّرتَ في الانتحار قليلاً؟
نعمْ
ألأنَّ الرفاقَ يخونون مثل الغدير
لأنَّ الرفاق يمرّون كالساقيهْ؟
قلتُ: كلا! أينتحر المرء من أجل جُمّيزةٍ هامدهْ؟
قال: كلا
أأدركتَ أنّا نمرُّ على الأرض ظلاّ
وجسمك ليس نحاساً ليحمل هذا الزمان
وقال: أتذكرُ منذ ثلاثين عاماً...؟
وأذكر كنتُ أمدُّ يدي في بياض النهار
وأنتشلُ القلب من قطّة تتسلى
بما يترك الزائرون على الباب: أسرى وقتلى
فقلتُ: ومملكةُ اللّه أحلى.
وقال: أفكَّرت بالانتحار كأبناءِ جيلك؟
قلتُ: وكنتُ كأبناء جيلي أُحبُّ فتاةً من الموجِ

كان المساء جريحاً بلا سببٍ واضحٍ تحت شرفتها الواعدهْ

وقفتُ وناديتُ. كان الصدى حجراً
فذهبت إلى شاطىء البحر. ناديتُ. كان الصدى قمراً
فجلستُ على صخرةٍ في المياهِ
وأعددت موتي
فشاهدت وجهي في الماء،
خفتُ، تراجعتُ، ثم رجعتُ إلى الماءِ
لكنهم أوقفوني في اللحظة الساجدهْ

وفي سجن عكّا القديم تعلَّمتُ كيف تصيرُ النساءُ وطنْ
ـ وأين الفتاة إذنْ!
فوق شرفتها
تحبُّ الأغاني وتنسى المغنِّي
وتغزل موجتها العائدهْ.
... ويقفزُ فوق بلاطِ الشوارعِ
مثل طيورٍ مُبلَّلة بالزوابعِ
والبرقِ،
يرمي لنا ذكريات عن الشرق:

أُمي تحبُّ دمشق.
أبي يتمنَّى الرجوع إلى حجرٍ نام في صدرِهِ
وأُختي تظنُّ العراق بعيداً
وتحسب أن السواد ليالي
فأخبرتُها أنه شجرٌ في الغروبِ.
وتؤمن أن دمي يكسر السيفَ .. والقاعدةْ.

ـ أمِنْ جبلٍ حوَّلتْهُ الليالي إلى قُبَلٍ
أنا؟
هل تمدَّدتَ تحت الصنوبر؟
خمسةَ عشرَ شتاءً
وبلّلكَ الماءُ؟
بلّلني فذهبتُ إلى الراهب الأرثوذكسي. صلّى أمامي وصلّى لأجلي
وكان جنودُ المظلاّت ظلّي
فلم يستطيعوا دخول الكنيسةِ...
آهِ على جبلٍ يتشعَّب في جسدي كالشعيرات، مليونُ رَحْمٍ يُصلّي لميلادنا يا صديقي
ولا تَلِدُ الوالدة

ـ أكنتَ تغني كثيراً لها؟

من هي؟

ـ سَمِّها ما تشاءُ: النساءَ، المرايا، الكلام، البلاد، اتحادَ العصافير في القمح، الخلايا، وأوّلَ موجٍ تَشَرَّد في البرِّ...

... مستسلماً للتداعي رأى قلبهُ حَبَّةً من عنبْ

رأى قلبه غيمةً فوق حقل الذهبْ

وتابعَ غَسْلَ الحقولِ من الحشراتِ الصغيرةِ، ثم تساءل: كيف يصير المغنّون أُغنيةً عندما يعرفون النساءَ وينسون؟. كُنَّا نغنِّي معاً للغموض الذي لَفّنا: في الممرِّ الصغير تنامينَ وحدَكِ بين ذراعيك وحدكِ عُشَّاقُكِ اقتربوا من خناجرهم في الممر الصغير تنامين وحدكِ يلتمس البحر وُدَّكِ ينكسر البحر عندكِ عُشَّاقُكِ ابتعدوا عن خناجرهم آهِ أيتها المرأةُ الحاملُ المرأةُ القاتلُ الأرضُ أصغرُ من صمتك المتواصلِ لكنَّ بطنكِ أصغر من طعنةٍ أو نشيدٍ سننشدُهُ في الممرِّ الصغيرِ تنامين وَحدَكِ بيني وبينكِ وَحدكِ بين ذراعيكِ وحدكِ عشاقُكِ اقتربوا من خناجرهم آهِ أيتها المرأةُ الخالدةْ.

تُرى، هل يحقُّ لمثلك أن يتأمَّل لوحةْ؟

وأن يتساءل عن مصدر اللَّهِ

أو يجدَ الفَرْقَ بين الحمام ومنديل أُمٍّ تودِّعُ؟
هل نستطيع التجوُّل في السان جرمَان كالغرباءِ الذين يشمون أرض فرنسا من الجوِّ؟
هل نستطيع الذهاب إلى البرجِ واللُّوْفرِ؟
هل نستطيع مشاهدة المسرحيةِ دون تقمُصِ أبطالها المتعبينْ؟
لماذا نكونُ كما لا نكونْ؟
أَلَمْ تجدِ امرأةً واحدهْ
تُمَشِّطُ شعرَكَ هذا الصباحَ
فترتاحُ للتعبِ الوثنيِّ
فلا يقتلونكَ حين تمرُّ
بلا حارسٍ أو لُغهْ
ألم تجدِ امرأةً واحدهْ
تُطيلُ الصباحَ على الجسرِ؟
قد يتعبون من الانتظارِ
وقد يذهبون إلى نزهةٍ في حدائق فينسانْ
وقد يخجلون من الكلمات التي ستقول لها عن رحيلٍ بلا فائدهْ.

... يعرفُ أن الجنود يعودونَ

يعرفُ أن الحشائش سَيِّدةُ الأرضِ
لكنه يعبرُ النهرَ من أجل أن يعبرَ النهرَ
هل تعرف الضفَّةَ المشتهاةْ؟
تماماً كما أعرفُ القلبَ أو أجهلُهْ
ولكنني سأطيعُ خطىً بدأتْ
وأحملُ قلبي إلى جَرَسٍ يشتهيهِ
أُطيعُ خطايَ وأحمل قلبي إلى جَرَس يشتهيهِ
على خطوةٍ صاعدةْ

... يرى موتَهُ واقفاً بيننا فيدخِّنُ كي يُبعدَ الموت عنا قليلاً. يُصفِّر لحناً سريعاً ويطردُ من معطفي نحلةً، ويتابعُ: في شهر تموزَ تذهبُ باريسُ نحو الجنوب، وقد يذهبُ القتلَهْ.

يرى موتَهُ في النبيذِ فيهتف: سيدتي غيِّري قَدَحي. ويتابعُ: كانوا ورائيَ في معرض المُلْصَقاتِ فأسندتُ نافذةً واستدرتُ وصافحتُهم واحداً واحداً...

يلعبُ الموتَ، يألفُهُ، ويباريه. يعرفهُ جيداً ويعرفُ كلّ مزاياهُ، يشرح أنواعه: طلقةٌ في الجبين فأسقط كالنسر فوق السفوحِ؛

وقنبلةٌ تحت سيّارتي فتطيرُ ذراعٌ إلى الشرفاتِ وتكسر آنية
الزهر أو شاشة التلفزيونِ؛
قنبلةٌ تحت طاولةٍ أو رصاصٌ على الظهرِ أو طلقةٌ تحت
حنجرتي
هكذا الموت، أبسطُ مما تظنُّ
أيوجعُ؟
- حين يكون الفتى خائفا
هل تخافُ
- إذا جاءني زاحفا
وبطيئاً، فقد أعرف القاتلا
وقد أَعرف الطلقةَ الوافدهْ.

... على بابِ مكتبهِ شجرُ الكستناءِ
ومقهى صغيرٌ
وقوسُ حمامْ.
يرى طالباً عربياً فيرمي عليه السلامْ
يَرُدُّ بطيئاً
ويشرب قهوتَهُ.
يصعدُ السُّلَّمَ الحجريَّ

سريعاً كعادته مثل طيرٍ يُبَلِّلهُ البرقُ.
يدخل غرفتهُ. يتأمَّلُ أوراقه والخريطةَ والشهداءَ الكثيرين فوقَ الجدارِ
ويقرأُ برقيَّةً من دمشق: «تعالَ مع الصيفِ يا ابني»؛
وبرقيَّةً من بقيَّة بيروت: «شدِّدْ عليك الحراسة».
لم يتساءلْ لماذا يريدون أن يقتلوه
ولم يتذكر بلاداً تنام على طرف الأرض مثل المسدَّس
لكنهم أخبروهْ
أنّ صاحبَهُ الطالبَ العربي يريد مقابلةً عاجلَهْ
فألقى عليه تحيَّتهُ الشاردهْ
وردّ بأقصرَ منها.. وبالطلقةِ القاتلَهْ
وعاد إلى شجرِ الكستناءِ
ليشربَ قهوته البارِدَهْ

اللقاء الأخير في روما

(مرثية لـماجد أبو شـرار)

- ١ -

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أمَا كان من حقِّنا أن نسيرا
على شارعٍ من تراب تَفَرَّعَ من موجةٍ مُتْعَبَهْ
وسافَرَ شرقاً إلى الهند
سافر غرباً إلى قُرْطُبَهْ؟
أما كان من حَقِّنا أن ننام ككُلِّ القِطَطْ
على ظلِّ حائطْ؟
أما كان من حَقِّنا أن نطيرا
ككُلِّ الطيور إلى تينةٍ مُتْرَبَهْ...؟

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حَقِّنا أن نُغَنِّي

لِعَيْنَيْنِ بُنَيَّتَيْنِ تُقيمان ما بيننا والإله
معاهدةً للسلام؟
أما كان من حقِّنا أن نحبَّ، ونلعنها أورشليم
إذا ما ادّعى الكذبَ فيها نبيُّ الظلام؟
فقد يكذب الأنبياءُ
وقد يصدق الشعراء كثيرا ...

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حَقِّنا أن نرى ما يراهُ
وما لا يراهُ أُولو الأمر فينا؟
أما كان من حَقِّنا أن نقول الكلامَ الذي لا يُقَال
الكلامَ الذي يَنْتَقِي من غُموض الفصول
وُضُوحَ النصال
الكلامَ الذي ينتقي من وضوح السيول
غموضَ قُوى الروح فينا؟
صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا
أما كان من حَقِّنا أن نداعب قِطَّةْ؟
أما كان من حَقِّنا أن نرى وردةً
دون أن نَتَوَجَّسَ فيها دماً قادماً من مكان قريب؟

أما كان من حَقّنا أن نُصَدِّق أن لروما قَمَرْ
وأنّ لروما شَجَرْ
أما كان من حقّنا أن نسافر داخلَ هذا السفرْ
أما كان من حَقّنا يا حبيبيَ
أن نسند التَعَبَ الحُلْوَ فوق حَجَرْ
أما كان من حقّنا أن نسيرا

صديقي، أخي، يا حبيبي الأخيرا

ـ ٢ ـ

مِنَ الصَعْبِ أن أتأمَّلَ وَجْهَ حبيبي
ولا أغمر الأُفقَ المستديرَ
عَسَلْ.

من الصعب أن أتحسَّس كَفَّ حبيبي
ولا أحفن السلم منها
كَرَفٌ حَجَلْ.

من الصعب أن يتدفَّقَ صوتُ حبيبي

ولا يتحول قلبي
إلى فَرَس مِنْ أمَلْ.

حبيبي، من الصعب أن أتأمَّلَ موت حبيبي
ولا أرميَ الأرض
في سلة المهملات..

- ٣ -

... وماذا بعد هذي الأرض، ماذا
وزندُكَ شارعٌ، وأنا رحيلُ

ثَقَبْتُ الأرضَ بحثاً عن سواها
فأسندني، لأسندها، الجليلُ

فضَاءٌ، أنتَ سُرَّتُهُ، وحيداً
وحقلٌ، أنت طائرُهُ الجميلُ

ولو، لو أستطيع حميتُ قلبي

من الآمال ... لكني عليلُ

لنا جسدان من لُغةٍ وخيلٍ
ولكن، ليس يحمينا صهِيلُ

وكان السجنُ في الدنيا مكاناً
فَحَرَّرنا، ليقتُلَنا، البديلُ

أَنا أرضُ الأغاني وهي ترمي
بِمَدْحِكَ حنطةً .. وأنا القتيلُ

أنا أعلى من الشعراء شنقاً
وأدناهم إلى عشبٍ يميلُ

أُحبُّكَ، إذْ أُحبُّ طلاق روحي
من الألفاظ، والدنيا هديلُ

ولو ... لو أستطيع رفعتُ حيفا

كقنطرةٍ، لتبلغك الخليلُ

أحقاً أنَّ هذا الموت حَقٌّ
وأن البحر يطويه الأصيلُ

وأن مِسَاحَةَ الأشياءِ صارتْ
حُدُودِ الروح مُذْ غاب الدليلُ

– ٤ –

صباحُ الخير يا ماجدْ
صباح الخيرْ
قُمِ اقرأَ سُورَةَ العائدْ
وحُثَّ السَّيْرْ
إلى بلدٍ فقدناهُ
بحادث سيرْ

صباحُ الورد يا ماجدْ
صباح الوردْ

قُمِ اقرأَ سُورةَ العائدْ
وشُدَّ القَيْدْ
على بَلَدٍ حملناهُ
كوشم اليدْ

صباحُ الخير يا ماجدْ
صباح الخير والأبيضْ
قم اشربْ قهوتي، وانهضْ
فإن جنازتي وَصَلَتْ. وروما كالمُسَدَّس،

كُلُّ أرض اللّه روما، يا غريب الدار، يا لحماً يغطي الواجهات وسادةَ الكلمات، يا لحمَ الفلسطينيِّ، يا خبز المسيح الصَّلْبَ، يا قُرْبَان حوض الأبيض المتوسط.. اختصر الطريق عليك يا لحم الفلسطينيِّ، يا سجادة الوثنيِّ، يا كهف الحضارات القديمة، يا خيام الحاكم البدويِّ، يا درع الفقير ويا زَكَاةَ المليونير، ويا مزاداً زاد عن طلبات هذي السوق، يا حلم الفلسطينيِّ في الطرقات، يا نهراً من الأجساد في واحدْ.

تجمَّع، واجمع الساعدْ
... ويا لحم الفلسطينيِّ فوق موائد الحُكَّام، يا حَجَرَ التوازن

والتضامُنِ بين جَلاَّديكَ. حَرْفُ الضاد لا يحميك، فاختصر الطريقَ عليك يا لحم الفلسطينيِّ، يا شرعيَّةَ البوليس والقدّيس إذ يتبادلان الإسمَ، إذ يتناوبان عليك، يمتزجان، يتّحدان، ينقسمان مملكتين، يقتتلان فيك، وحين تنهض منهما يتوحَّدان عليك يا لحم الفلسطينيّ، يا جغرافيا الفوضى ويا تاريخ هذا الشرق، فاختصر الطريق عليك.. يا حقل التجارب للصناعات الخفيفة والثقيلة، أيها اللحم الفلسطينيُّ، يا موسوعة البارود منذ المنجنيق إلى الصواريخ التي صُنِعَتْ لأجلك في بلاد الغرب، يا لحم الفلسطينيّ في دُوَل القبائل والدويلات التي اختلفت على ثمن الشَّمَنْدَرِ، والبطاطا، وامتياز الغاز، واتَّحَدتْ على طرد الفلسطينيّ من دَمِه.

تَجَمَّعْ أيها اللحم الفلسطينيُّ في واحدْ

تَجَمَّعْ واجمع الساعدْ

لتكتبَ سُورَةَ العائدْ...

تأملات سريعة
في مدينة قديمة وجميلة
على ساحل البحر الأبيض المتوسط

... لتكنْ أُمّاً لهذا البحرِ،
أوْ صرختَهُ الأولى على هذا المكانِ
... وليكُنْ أَنَّ الذي شَيَّدها من موجةٍ
أقوى من الماضي ومن ألف حصانِ
... وليكُنْ أنَّ التي نامتْ على وردتها الأولى
فتاةٌ من بلاد الشام ...
ما شأني، وما شأنُ زماني
بهواءٍ لم يُجَفِّف دَمِيَ العاري،
وما شأني أنا
بسماء لا تُغَطِّيني بطير أو دخانٍ؟
ما الذي يجعلني أقفزُ من هذا الأذانِ
لأُصلّي للَّذي عَلَّمها أسماءَهُ
ثُمَّ رماني للأغاني.

.. فلتكُنْ هذي المدينةْ
أُمَّ هذا البحر، أو صَرْخَتَهُ الأُولى
علينا أن نُغَنِّي لانكسار البحر فينا
أو لقتلانا على مرأى من البحرِ،
وأن نرتديَ الملحَ وأن نمضي إلى كُلِّ المواني
قبل أن يَمتَصَّنا النسيانُ،
لا شيءَ يُعيدُ الروحَ في هذا المكانِ.

□

نَحْنُ أوراقُ الشَّجَرْ،
كلماتُ الزمنِ المكسورِ، نَحْنُ
النايُ إذ يبتعدُ البيتُ عن الناي. ونَحْنُ
الحقلُ إذ يمتدُّ في اللوحةِ... نحنُ
نحن سوناتا على ضوء القمرْ
نحن لا نطلب من مرآتنا
غيرَ ما يُشبهنا،
نحن لا نطلب من أرض البشَرْ
موطئاً للروحِ،
نحن الماءُ في الصوت الذي ينادينا

فلا نسمعُ. نحن الضفة الأخرى لنهرٍ بين صوت وحَجَرْ
نحن ما تنتجُهُ الأرضُ التي ليستْ لنا
نحن ما نُنتجُ في الأرض التي كانت لنا
نحن ما نترك في المنفى وفينا من أثَرْ.
نحن أزهار الإِناءِ المنكسِرْ
نحن ما نحن وَمَنْ نحنُ، فما جدوى المكان؟
وعلينا أن ندورَ الآن حول الكُرَةِ الأرضيَّةِ الحبلى بمن يُشبهها،
وبمن يُسقطها عن عرشها العالي
لكي نُدْفَنَ في أيِّ مكانِ.

□

أَلِفٌ. باءٌ. وياءْ
كيف كُنَّا نقضم الأرضَ
كما يقضمُ طفلٌ حَبَّة الخوخِ
ونرميها كما يُرمى المساءْ
في ثياب الزانيهْ!

أَلِفٌ. جيمٌ. وياءْ

كيف كنا ندخُلُ الضوءَ
كما يدخُلُ في القمح الغناءْ
ونَعُدُّ الشهداءْ
مثلما كنا نعُدُّ الماشيهْ!

ألِفٌ. دالٌ. وياءْ
قد دخلنا الهاويهْ
دون أنْ نهوي، لأَنَّ السنبلهْ
تسند العُشَّاق إن مالوا..
تَمَهَّلْ يا نشيدي
ريثما يَتَّحِدُ القلبُ بحدِّ المقصلهْ
ريثما أكْسر قُفْلَ الهاويهْ!

□

أيُّ شيء يخمشُ الروحَ هنا
أيُّ شيء يخمش الروحَ؟
وما
شأني
أنا

بيدٍ تفتَحُ بابَ الفجرِ للقهوةِ؟
ما شأني أنَا؟
نارنجةٌ تَضحكُ كي تضحكَ...
شمْسٌ تفتح الوردة كي تفتحها...
لا شيء، لا شيء، بياضٌ
وبياض آخرٌ يُولد من هذا البياضْ...
رأس هانيبال، أو خاتَمُ أنطونيو، وسروال الأميرةْ
حَجَرٌ يشهد أنَّ الناس مَرُّوا من هنا
حَجَرٌ، أو نصفُه، يشهد أنَّ الناس ماتوا
حَجَرٌ يشهد أني ذكرياتٌ كلماتٌ ذكرياتُ
قَمَرٌ، أَو نصفُهُ، يتبع أنثاهُ...
سُفُوحٌ تشربُ البَحْرَ. قَطَاةُ
قِطَطٌ بيضاءُ. دِفلى رفعتها الأُغنياتُ.
ثابتٌ هذا الزوالْ،
زائلٌ هذا الثباتُ
«والذي أعرفه أجهلُهُ»
«والذي أجهله أعرفه» بعد الأوانِ
وفتاةٌ تقسمُ الفجر بساقيها سريرينِ

ولا تدخل إلّا الغامضَ الغامضَ

... لا شيء يُثير الروحَ في هذا المكانِ.

□

ساحِلٌ يلتفُّ كالأفعى على أجراس خصر الراقصةْ
وملوكٌ تَوَّجوا البحر بإكليل الزَّبَدْ
أَيُّ شيءٍ ينتهي في هذه اللحظةِ،
في هذا الجَسَدْ؟
أَي شيءٍ يبتدئْ؟
قد أكلنا اليابسةْ
وَقَتَلْنَا البحرَ في رحلة صيدٍ يائسةْ
أَيُّ شيءٍ ينتهي
أي شيءٍ يبتدئْ
بَلَدٌ يُولَدُ من قبر بَلَدْ
ولصوصٌ يعبدون اللّهَ
كي يعبدهم شَعْبٌ ...
ملوكٌ للأبدْ

وعبيدٌ للأبدْ.
لا أحدْ.
يسأل القيصر: ما شأني أنا
بِوَليٍّ العهدِ، أوْ هَذا البلدْ؟
آه،
ما
شأني
أنا
ما دامتِ الروحُ هنا
فحمة في موقد السلطانِ ...
لا شيء يهزُّ الروح في هذا المكانِ.

□

ألفُ شُبَّاك على البحرِ الذي قد أغرَقَ الإغريقَ
كي يُغرقنا الرومانُ
بيضاءُ هي الجدرانُ
زرقاءُ هي الموجةُ
سوداءُ هي البهجةُ

والفكرةُ مرآةُ الدماء الطائشهْ
فلتُحَاكَمْ عائشهْ
ولتُبَرَّأْ عائشهْ.
آه، لا شيء يثير الروح في هذا المكانِ.

□

... ولتكُنْ هذي المدينهْ
جَدَّةَ الدنيا وما شاءَتْ وما شاءتْ
فما شأني أنا؟ كلُّ صباحٍ
لم يجئني أوَّلاً ليس صباحي!
لا ...
وما شأني أنا؟ كلُّ رياحٍ
لم تُكَسِّرْني مَدَى ليستْ رياحي!
لا ...
وما شأني أنَا؟ كلُّ جراحٍ
لم تَلِدْ فيَّ إلهاً طَازجاً ليست جراحي!
لا ...
وما شأني أنَا؟

أيُّ سلاح في يدي
لا يُرْجِعُ الخبزَ إلى حنطته ليس سلاحي!

□

... وليكُنْ أنَّ الذي شيَّد هذا السورَ جَدِّي
أو عَدُوِّي.
... وليَكُنْ أنَّ الذي سمَّى المدينهْ
فارسٌ
أو عاشقٌ
أوْ لا أحدْ
... وليَكُنْ أنَّ عيون الياسمينهْ
تَحْفَظُ الأسرارَ منذ انبجستْ حَوَّاءُ...
ما شأني أنا الضائع ما بين سماءٍ وَحَجَرْ
بفضاءٍ
لم أُطيِّرْ فيه أسراب حمامي،
لم أُدخِّنْ فيه أحلامي،
ولم أصطدْ قَمَرْ...
كُلُّ غُصْنٍ لم يُقَلِّدْ لعبتي الأُولى،

ولم يجرح يدي ليس شَجَرْ
وليَكُنْ ما كانَ،
لا شيء يهزُّ الروح في هذا المكانِ.

□

المكانُ الرائحةْ
قهوةٌ تفتح شُبَّاكاً. غُموضُ المرأة الأولى.
أبٌ عَلَّق بحراً فوق حائطْ
المكانُ الشَّهَواتُ الجارحةْ
خطوتي الأولى إلى أول ساقين أضاءا جسدي
فتعرَّفْتُ إليه وإلى النرجس فيّ
المكانُ المَرَضُ الأوَّلُ ...
أُمٌّ تعصُرُ الغيمةَ كي تغسلَ ثوباً. والمكانْ
هو ما كان وما يمنعني الآن من اللهوِ.
المكانُ الفاتحةْ،
المكانِ السَّنَةُ الأولى. ضجيجُ الدمعة الأُولى.
التفاتُ الماء نحن الفتيات. الوَجَعُ الجنسيُّ في أوَّلِهِ، والعَسَلُ
المُرُّ.
هُبوبُ الريح من أُغنيَّةٍ. صخرةُ أجدادي. وأُمّي الواضحةْ

المكانُ الشيءُ في رحلته منِّي إليَّ
المكانُ الأرضُ والتاريخُ فيَّ
المكانُ الشّيءُ إنْ دَلَّ عليَّ.
آهِ، لا شيءَ يضيءُ الإِسم في هذا المكانِ.

□

... وسلاماً أيها البحرُ المريضْ
أيها البحر الذي أَبْحَرَ من صور إلى إسبانيا
فوق السُّفُنْ
أيها البحرُ الذي يسقط مِنَّا كالمُدُنْ!
ألفُ شُبَّاك على تابوتك الكحليّ مفتوحْ
ولا أُبصر فيها شاعراً تسندُهُ الفِكرةُ،
أو ترفعُهُ المرأةُ...
يا بحرَ البدايات، إلى أين تعودْ
أيها البحر المحاصرْ
بين إسبانيا وصورْ
ها هي الأرض تدورْ
فلماذا لا تعود الآن من حيثُ أتيتْ؟
آه، مَنْ يُنْقِذُ هذا البحرَ

دَقَّتْ ساعة البحرِ
تراخى البحرُ.
من يُنْقذُنَا من سَرَطان البحرِ
مَنْ يُعْلِنُ أنَّ البحرَ مَيِّتٌ؟!
... وسلاماً أيها البحرُ القديمُ،
أيها البحر الذي أَنْقَذَنا من وحشة الغاباتِ.
يا بحرَ البدايات ... [يغيبُ البحرُ].
يا جُثَّتَنا الزرقاءَ، يا غبطتنا، يا روحنا الهامدَ من يافا إلى قرطاج، يا إبريقنا
المكسور، يا لوح الكتابات التي ضاعت. بَحَثْنَا عن أَساطيرِ الحضارات
فلم نُبْصِرْ سوى جمجمة الإنسان قرب البحرِ ...
يا غبطتنا الأولى ويا دهشتنا ـ
هل يموتُ البحرُ كالإنسانِ في الإنسانِ
أمْ فِي البحرِ؟
لا شيء يثير البحرَ في هذا المكانِ.

□

حين نعتادُ الرحيلْ

مَرَّةً
تصبح كُلُّ الأمكنهْ
زَبَداً نطفو عَلَيهْ
ونميلْ
كلما مالت بنا الريحُ
ونعتادُ بُكاء الأحصنهْ
حين نعتاد الرحيلْ
مَرَّةً
تصبح كُلُّ الأزمنهْ
لحظةً للقتل.
كم مُتنا وكم مُتنا،
وكان الكهَنَهْ
خَدَماً للسيف منذ المعبد الأوَّلِ
حتى آخر الثورات،
والعاشقُ عَبْدَ السوسنهْ.

□

... وسلاماً يَتُها الأرضُ الأسيرةْ

يا التي كانت عقاب اللّه فينا
ثم صارت جَنَّةَ اللّه الصغيرةْ...
من سيحتاجُ ضحيَّه
ليرى البحرَ أمَامَهْ؟
من سيحتاج يمامهْ
ليُرَبِّي طفلَهُ في البندقيةْ؟
من سيحتاج الضحيّةْ
ليكون السيِّد الأوحدَ في روما الأخيرةْ؟
من سيحتاج القيامةْ
ليرى قاتلَهُ ـ التوأمَ مجهولَ الهويةْ؟
مَنْ سيَحتاجُ البقيةْ
مَنْ
سيحتاجُ
البقيَّةْ؟
ها هي الأرضُ بما فيها وَمَنْ يمشي عليها
بندقيَّةْ.
ها هي الأرض لروما
ولروما دَقَّتِ الساعةُ

دَقَّتْ.

كُلُّ يومٍ آخرُ الأيامِ، والأحلامُ نارٌ معدنيَّةْ.

... فسلاماً يَتُها الأرض/الضحيَّةْ!

□

كُلُّ مَنْ يَرْحَلُ في الليل إلى الليل ـ أنا.

كُلُّ ناي قَسَمَ الحقل إلى اثنين:

مُنادٍ ومنادىً لا يناديه ـ أنا.

كُلُّ ما يُعجبني يحتلُّهُ الظلُّ هنا

كُلُّ مَنْ تَطلُبُ منِّي قُبلةً عابرةً

تسرق روحي... وخُطاي.

كُلُّ طَيرٍ عابرٍ يأكُلُ خبزي من جروحي

ويُغني لسواي.

كُلُّ مَنْ يضربه الحبُّ يناديني

لكي يزداد أعدائي ... فراشةْ.

كُلُّ مَنْ تلمس نهديها لكي يخمش عصفوران قلبي...

تتلاشى.

كُلُّ جذعٍ لَمَسْتْهُ راحتي طار سحابهْ.

كُلُّ غيمٍ حطَّ في أُغنيتي صار كآبهْ.
كُلُّ أرضٍ أتمنَّاها سريراً
تتدلَّى مشنقهْ.
... وأُحبُّ الحبَّ إذ يبتعد الحبُّ،
أُحبُّ الزنبقهْ
عندما تذوي على كفِّي وتنمو في نشيدي فانتظرني يا
نشيدي
رُبَّما نحفر في هذا المكانِ
موطئاً للروح من أجل غريبين يمرَّانِ على الأرض
ولا يلتقيانِ
آه، من هذا المكانِ.
آه، لا شيء يهزُّ القلب في هذا المكانِ.

□

نَحْنُ ما نحن عَلَيهْ،
نحن جيل المجزرةْ.
أُمَّةٌ تَقْطَعُ ثَدْيَيْ أُمِّهَا.
أُمَّةٌ تَقتلُ راعي حُلْمها
في الليالي المقمرةْ

دون أن تبكي عليهْ.

أيْن ظلُّ الشجرةْ؟

نحن ما نحن عليهْ
نحن مَنْ كُنَّا لنا
نحن مَنْ صرنا ... لِمَنْ؟
فارسٌ يُغمد في صدر أَخِيهِ
خنجراً باسم الوطنْ
ويُصَلّي لينال المغفرةْ.

أين شَكْلُ الشجرةْ؟

نحن ما نحن عليه الآن،
ماتوا لأُغنِّي
أَم ليبنوا خيمةً من أجل نايْ؟!
كلما سارتْ خطايْ
خلفهم، قبل خطايَ

انفتحتْ صحراءُ من أجلي،
وماتتْ قُبَّرةْ.

أين جذعُ الشجرةْ؟

نحن ما نحن عليهْ،
قاتِلٌ مَنْ شهد القَتْلَ ولم يشهد عليهْ
غَيَّروا أسماءَهُ
واستبدلوا شارةَ نصري
بدمي فوق يديهْ.
وضعوا عينيَّ في عينيه كي أشهد أني لم أرَهْ.
أيْنَ ... أيْنَ الشجرةْ؟

□

نَحْنُ ما نَحْنُ عليهِ،
موتُنا لا موتَ فيه الآن لا يبتدئ النهرُ من السرجِ ولا، لا يشرئبُ الشَّبَقُ العالي ليخفي جبلاً في ساعدٍ لا يتدلَّى من نشيدي شَفَقُ الدين النحاسيِّ ولا يصطفُّ شعبٌ في جحيم اللذة الكبرى...

«أسأنا لك يا شعبي»

أسأنا للنباتات التي تخفيكَ عنا

موتُنا لا موت فيه الآن لا إيقاعَ للصخرة لا صخرةَ في حادثنا المائيِّ فلنذهبْ إلى ما ليس فينا كي نرى ما ليس فينا ليس فينا دعوةٌ للناس من مذبحةٍ نمشي إلى مذبحةٍ نمشي لكي نهتفَ:

مرحى! ها هي الوردةُ ... فلنسجدْ

«أسأنا لَكَ يا شعبي»

يا شعبَ نشيدي، منذ جاءَ الربُّ من فكرته مَشْياً إلى القدس، ولا صخرةَ نبني فوقها أصواتَنا أو صلواتٍ تطلب الغفرانَ...

نحن الآنَ ما نحن عليهِ.

كُلَّمَا قَامَ نبيٌّ من ضحايانا ذبحناه بأيدينا بأيدينا،

ولي حُرِّية القولِ

وللكاهن حَقُّ القتل

لي حقُّ العصافيرِ

وللقاضي حُدُودُ الأُفق الوارفِ

لي شرعيَّةُ الحُلْمِ

وللجلاَّدِ أن يسمعني أو يفتح الباب لكي تهرب أحلامي

ولي حُرِّيتي حريتي أن أكتب الحاء كما شئتُ
وأن أقفز من حرف إلى حرفٍ
وأن أقطع كفِّي كي أُسمِّي زمني.
لا موتَ في الموت الذي يتبعني كالظلِّ،
أو ينزلقُ الآن على جسمي كأنثى حرمتني لذّة الحرمانِ،
لَا يَخْرُجُ مِني حُلُمٌ إلّا لكي يُضْحِكَني
أو يُضْحِكَ الناسَ علَى شخص يَجُرُّ الحُلْمَ كالنَّاقَةِ في سوق الغواني

ليس هذا الموتُ موتاً لا ولا أَعرفُ شيئاً عن بداياتي.
لهذا أتمنى أن أُحاذي النهر حتى أصبحَ النهرَ ولا لا أستطيعُ الموت في الموتِ الذي لا موت فيهِ.

حَجَرٌ روحي،
وأُنثايَ وَحُلْمي حَجَرٌ
لا أشتهي أن أشتهيهِ.
حَجَرٌ لا لونَ فِيه.
حَجَرٌ ليلي،
وظلِّي حَجَرٌ يندسُّ ما بيني وبيني.
حَجَرٌ خبزي
نبيذي حَجَرٌ.

لا أستطيعُ الموتَ في الموت الذي
لا موت فيه الآن ...

لا شيء يثير الموتَ في هذا المكانِ.

يطيرُ الحمام

يطيرُ الحمامُ
يَحُطُّ الحمامُ

ـ أعدِّي لِيَ الأرضَ كي أستريحَ
فإني أحبُّكِ حتى التَّعَبْ ...
صباحك فاكهةٌ للأغاني
وهذا المساءُ ذَهَبْ
ونحن لنا حين يدخل ظِلٌّ إلى ظِلِّه في الرخامِ
وأُشْبِهُ نَفْسِيَ حين أُعلِّقُ نفسي
على عُنُقٍ لا تُعَانِقُ غَيرَ الغَمامِ
وأنتِ الهواءُ الذي يتعرَّى أمامي كدمع العِنَبْ
وأنت بدايةُ عائلة الموج حين تَشَبَّثَ بالبرِّ
حين اغتربْ

وإني أُحبُّكِ، أنتِ بدايةُ روحي، وأنت الختامُ

يطير الحمامُ
يَحُطُّ الحمامُ

□ أنا وحبيبيَ صوتان في شَفَةٍ واحدهْ
أنا لحبيبي أنا. وحبيبي لنجمته الشاردهْ
وندخل في الحُلْمِ، لكنَّهُ يَتَبَاطَأُ كي لا نراهُ
وحين ينامُ حبيبيَ أصحو لكي أحرس الحُلْمَ مما يراهُ
وأطردُ عنه الليالي التي عبرتْ قبل أن نلتقي
وأختارُ أيَّامَنا بيديّ
كما اختار لي وردةَ المائدهْ
فَنَمْ يا حبيبي
ليصعد صوتُ البحار إلى ركبتيّ
وَنَمْ يا حبيبي
لأهبطَ فيك وأُنقذَ حُلْمَكَ من شوكةٍ حاسدهْ
وَنَمْ يا حبيبي
عليكَ ضفائر شعري، عليك السلامُ

يطيرُ الحمامُ

يَحُطُّ الحمامُ

ـ رأيتُ على البحر إبريلَ
قلت: نسيتِ انتباه يديكِ
نسيتِ التراتيلَ فوقَ جروحي
فكمْ مَرَّةً تستطيعينَ أن تُولَدي في منامي
وَكَمْ مَرَّةً تستطيعين أن تقتليني لأصْرُخَ: إني أحبُّكِ
كي تستريحي؟
أناديكِ قبل الكلامِ
أطير بخصرك قبل وصولي إليكِ
فكم مَرَّةً تستطيعين أن تَضَعِي في مناقير هذا الحمامِ
عناوينَ روحي
وأن تختفي كالمدى في السفوحِ
لأدركَ أنَّكِ بابلُ، مصرُ، وشامُ

يطير الحمامُ
يَحُطُّ الحمامُ

□ إلى أين تأخذني يا حبيبيَ من والديَّ

ومن شجري، من سريري الصغير ومن ضجري،
من مراياي من قمري، من خزانة عمري ومن سهري،
من ثيابي ومن خَفَري؟
إلى أين تأخذني يا حبيبي إلى أين
تُشعل في أُذنيَّ البراري، تُحَمِّلُني موجتين
وتكسر ضلعين، تشربني ثم توقدني، ثم
تتركني في طريق الهواء إليك
حرامٌ ... حرامُ

يطيرُ الحمامُ
يَحُطُّ الحمامُ

ـ لأني أحبُّكِ خاصرتي نازفهْ
وأركضُ من وَجَعِي في ليالٍ يُوَسِّعها الخوفُ مما أخافُ
تعالي كثيراً، وغيبي قليلاً
تعالي قليلاً، وغيبي كثيراً
تعالي تعالي ولا تقفي، آه من خطوةٍ واقفهْ
أُحبُّكِ إذْ أشتهيكِ. أُحبُّكِ إذْ أشتهيك

وأحفن هذا الشعاعَ المطوَّقَ بالنحل والوردة الخاطفهْ
أحبك يا لعنةَ العاطفهْ
أخاف على القلب منك، أخاف على شهوتي أن تَصِلْ
أُحبُّكِ إذْ أشتهيكِ
أحبك يا جسداً يخلق الذكريات ويقتلها قبل أن تكتملْ
أُحبك إذْ أشتهيكِ
أُطوِّع روحي على هيئة القدمين ـ على هيئة الجنَّتين
أحكُّ جروحي بأطراف صمتك.. والعاصفهْ
أموتُ، ليجلس فوق يديك الكلامُ

يطيرُ الحمامُ
يَحُطُّ الحمامُ

□ لأني أُحبُّك «يجرحني الماءُ»
والطرقاتُ إلى البحر تجرحني
والفراشةُ تجرحني
وأذانُ النهار على ضوء زنديك يجرحني
يا حبيبي، أناديكَ طيلة نومي، أخاف انتباه الكلام
أخاف انتباه الكلام إلى نحلة بين فخذيَّ تبكي

لأني أُحبُّك يجرحني الظلُّ تحت المصابيح، يجرحني
طائرٌ في السماء البعيدة، عِطْرُ البنفسج يجرحني
أوَّلُ البحر يجرحني
آخِرُ البحر يجرحني
ليتني لا أُحبُّكَ
يا ليتني لا أُحبُّ
ليشفى الرخامُ

يطيرُ الحمامُ
يَحُطُّ الحمامُ

ـ أراكِ، فأنجو من الموت. جسمُكِ مرفأْ
بعشرِ زنابقَ بيضاء، عشر أناملَ تمضي السماءُ
إلى أزرقٍ ضاع منها
وأُمْسِكُ هذا البهاءَ الرخاميَّ، أُمسكُ رائحةً للحليب المُخبَّأْ
في خوختين على مرمر، ثم أعبد مَنْ يمنح البرَّ والبحرَ ملجأْ
على ضفَّة الملح والعسل الأوَّلين، سأشرب خَرُّوبَ لَيْلِكِ
ثم أنامُ
على حنطةٍ تكسر الحقل، تكسر حتى الشهيقَ فيصدأْ

أراك، فأنجو من الموت. جسمك مرفأْ
فكيف تُشَرِّدني الأرضُ في الأرض
كيف ينام المنامُ

يطيرُ الحمامُ
يَحُطُّ الحمامُ

□ حبيبي، أخَافُ سكوتَ يديكْ
فَحُكَّ دمي كي تنام الفرسْ
حبيبي، تطيرُ إناثُ الطيور إليكْ
فخذني أنا زوجةً أو نَفَسْ
حبيبي، سأبقى ليكبر فُستُقُ صدري لديكْ
ويجتثُّني مِنْ خُطَاك الحَرَسْ
حبيبي، سأبكي عليكَ عليكَ عليكْ
لأنك سطحُ سمائي
وجسميَ أرضُكَ في الأرضِ
جسمي مقَامُ

يطيرُ الحمامُ

يَحُطُّ الحمامُ

رأيتُ على الجسر أندلُسَ الحب والحاسَّة السادسهْ.
على وردة يابسهْ
أعاد لها قلبَها
قال: يكلفني الحُبُّ ما لا أُحبُّ
يكلفني حُبّها.
ونام القمرْ
على خاتمٍ ينكسرْ
وطار الحمامُ

رأيتُ على الجسر أندلُسَ الحب والحاسَّة السادسهْ.
على دمعةٍ يائسهْ
أعادتْ له قلبَهُ
وقالت: يكلفني الحبُّ ما لا أُحبُّ
يكلفني حُبَّهُ
ونام القمرْ
على خاتمٍ ينكسرْ

وطار الحمامُ.
وحطّ على الجسر والعاشِقيْنِ الظلامُ

يطيرُ الحمامُ
يطيرُ الحمامُ

سنة أخرى ... فقط

أصدقائي،
مَنْ تبقّى منكمُ يكفي لكي أحيا سَنَهْ
سنةً أُخرى فقط،
سنةً تكفي لكي أعشق عشرين امرأةْ
وثلاثين مدينهْ،
سنةً واحدةً تكفي لكي أُعطيَ للفكرة جسمَ السوسنهْ
ـ ولكي تسكن أرضٌ ما فتاةً ما فنمضي نحو بحرٍ ما
وتعطيني على ركبتها مفتاحَ كُلِّ الأمكنهْ،
سَنَةً وَاحدةً تكفي لكي أحيا حياتي كُلّها
دُفعةً واحدةً
أو قُبْلَةً واحدةً
أو طَلْقةً واحدةً
تقضي على أسئلتي

وعلى لُغْز اختلاط الأزمنهْ

أصدقائي، لا تموتوا مثلما كنتم تموتونَ
رجاءً، لا تموتوا، انتظروني سنةً أُخرى
سنهْ
سنةً أُخرى فقط.
رُبَّما نُنْهِي حديثاً قد بَدَأْ
ورحيلاً قد بدأْ
ربما نستبدل الأفكارَ بالمشي على الشارعِ
أحراراً من الساعة والرايات،
هل خُنَّا أحدْ
لنسمِّي كُلَّ عصفورٍ بَلَدْ
ونسمِّي كُلّ أرضٍ، خارجَ الجرح، زَبَدْ؟
ونخافَ الدندنهْ
رُبَّما نحمي اللُّغهْ
من سياقٍ لم نكن نقصدُهُ
ونشيدٍ لم نكن ننشدُهُ
للكهنهْ ...

أصدقائي الواقفينْ
فوق تختي... وعلى خصر فتاةٍ لم أذُقْها بَعْدُ
لم أرفع صلاتي فوق ساقيها لربِّ الياسمينْ...
اِذهبوا عني قليلاً
فلنا حَقٌّ بأن نحتسيَ القهوةَ بالسُكَّر لا بالدمِ
أن نسمعَ أصواتَ يَدَيْنا وهما تستدرجان الحَجَل الباكي
إلينا، لا سُقُوطَ الأحصنهْ
ولنا حَقٌّ بأن نُحْصِي الشرايينَ التي تغلي
بريح الشهوات المزمنهْ
ولنا حَقٌّ بأن نشكر هذا الزَّغَبَ النامي
على البطن الحليبيِّ
وأن نكسر إيقاع الأغاني المؤمنهْ...

أصدقائي
لا تموتوا قبل أن تعتذروا من وردةٍ لم تبصروها
وبلادٍ لم تزوروها،
وأن تعتذروا من شهوةٍ لم تبلغوها
ونساءٍ لم يُعَلِّقْنَ على أعناقكم

أيقونةَ البحر
ووشمَ المئذنهْ،
لا تموتوا قبل أن نسأل ما لا يسألُ الباقي على الأرضِ:
لماذا تشبهُ الأرضُ السفرجلْ
ولماذا تشبهُ المرأةُ ما لا تشبه الأرضُ
وحرمانَ المحبين ... ونهراً من قرنفلْ؟
ولماذا عرفوني
عندما متُّ تماماً... عرفوني
ولماذا أنكروني
عندما جئتُ من الرحلة حَيّا؟
يا إلهي، جُثَّتي دَلّتْ عليّا
وأعادَتْهُمْ إليّا
فبنوها بينهم ... كالمدخنهْ!

أصدقائي
فَكّروا فيَّ قليلا
وأحِبُّوني قليلا
لا تموتوا مثلما كنتم تموتون، رجاء، لا تموتوا

انتظروني سَنَةً أُخرى
سنهْ
سنةً أُخرى فقطْ
لا تموتوا الآن، لا تنصرفوا عَنّي
أحبُّوني لكي نشرب هذي الكأسَ
كي نَعْلَمَ أنّ الموجَة البيضاءَ ليستْ اِمرأةْ
أو جزيرةْ،
ما الذي أفعله من بعدكم؟
ما الذي أفعله بعد الجنازات الأخيرةْ؟
ولماذا أعشق البحرَ الذي غَطّى المصلّينَ
وأعلى المئذنهْ؟
ولمن أمضي مساءَ السبت
مَنْ يفتح قلبي للقططْ
ولمن أمدَحُ هذا القمرَ الحامضَ فوقَ المتوسّطْ
ولمن أحملُ أشياءَ النساء العابرات الفاتنات
ولمن أتركُ هذا الضَّجَرَ اليوميَّ
ما معنى حياتي
عندما يُسندني ظلّي على حائط ظلّي حينما تنصرفون

من سيأتي بي إلى نفسي
ويرضيها بأن تبقى معي؟
لا تموتوا، لا تموتوا مثلما كنتم تموتون رجاءً
لا تَجُرُّوني من التُّفَّاحة ـ الأنثى
إلى سفْر المرائي
وطقوسِ العَبَرات المدمنهْ!

ليس قلبي لي لأرميهِ عليكُمْ كتحيَّهْ
ليس جسمي لي لكي أصنع تابوتاً جديداً ووصيَّهْ
ليس صوتي لي لكي أقطع هذا الشارعَ المرفوع فوق البندقيهْ
فارحموني، أصدقائي
وارحموا أمَّ الزغاريد التي تبحث عن زغرودة أُخرى
لميلاد المرايا من شظيّهْ
وارحموا الحيطانَ إذ تشتاقُ للأعشاب،
والكُتَّابَ في باب الوفيّات
إرحموا شعباً وعدناهُ بأنْ نُدْخِلَهُ الوردةَ من باب الرماد المُرّ،
لا تنصرفوا الآن كما ينصرف الشاعرُ في قُبَّعة الساحر

من يقطف ورد الشهداءِ؟
آنتظروا يا أصدقائي، وارحمونا ...
فلنا شُغْلٌ سوى التفتيش عن قبرٍ وعن مَرْثِيَّةٍ
لا تشبه الأُولى
وما أَصغرَ هذا الوردَ
ما أكبرَ هذا الدم
ما أجملَكم يا أصدقائي
عندما تغتصبون الأرض في معجزة التكوين
أو تكتشفون النبع في صخر السفوح الممكنهْ!

أصدقائي
مَنْ تبقّى منكمُ يكفي لكي أحيا سَنَهْ
سنةً أُخرى فقط
سنةً تكفي لكي نمشي معا
نُسْدِلُ النهرَ على أكتافنا مثل الغَجَرْ
ونهدُّ الهيكلَ الباقي معا
حجراً تحت حَجَرْ

ونُعِيد الروحَ من غربتها
عندما نمضي معا
عندما نُعْلِنُ إِضراباً صغيراً عن عبادات الصُّوَرْ

فإذا أنتم ذهبتمْ أصدقائي الآن عني
وإذا أنتم ذهبتمْ
وأقمتمْ في سديم الجمجمهْ
لن أناديكم وأرثيكمْ
ولن أكتب عنكم كَلِمَهْ.

فأنا لا أستطيع الآنَ أن أرثي أحدْ
بلداً في جَسَدِ
أو جسداً في طلقةٍ
أو عاملاً في مصنعِ الموت المُوَحَّدْ
لا أحَدْ
لا أحَدْ ...
وليكن هذا النشيدْ

خاتَمَ الدمع عليكم كُلِّكُمْ يا أصدقائي الخَوَنَهْ
ورثاءً جاهزاً من أجلكم!
ولذلكْ ...
لا تموتوا أصدقائي، لا تموتوا الآنَ
لا وردةَ أغلى من دمٍ في هذه الصحراء
لا وقتَ لكم
لا تموتوا مثلما كنتم تموتون، رجاءً، لا تموتوا
انتظروني سنةً أخرى
سَنَهْ،
من تبقّى منكم يكفي لكي أحيا سنهْ
سنةً أُخرى فقط
سنةً تكفي لكي أعشق عشرين امرأةْ
وثلاثين مدينهْ
سنةً تكفي لكي أمضي إلى أُمّي الحزينهْ
وأناديها: لِدِيني من جديد
لأرى الوردةَ من أَوَّلها
وأَحبَّ الحبَّ من أَوَّله
حتى نهايات النشيد

سنةً أخرى فقط
سنةً تكفي لكي أحيا حياتي كُلَّها
دفعةً واحدةً
أو قبلةً واحدةً
أو طلقةً واحدةً تقضي على أسئلتي
سنةً أخرى فقط
سنةً أخرى
سنهْ ...

قصيدة بيـروت

تُفَّاحةٌ للبحر، نرجسةُ الرخام،
فراشةٌ حجريّةٌ بيروتُ. شكلُ الروح في المرآة،
وَصْفُ المرأة الأولى، ورائحة الغمام.
بيروتُ من تَعَبٍ ومن ذَهَبٍ، وأندلس وشام.
فضَّةٌ، زَبَدٌ، وصايا الأرض في ريش الحمام.
وفاةُ سنبلة. تشرُّدُ نجمةٍ بيني وبين حبيبتي بيروتُ.
لَم أسمع دمي من قبلُ ينطقُ باسم عاشقةٍ تنام على دمي..
وتنام...

مِنْ مَطَرٍ على البحر اكتشفنا الإِسم، من طعم الخريف
وبرتقال القادمين من الجنوب، كأنَّنا أسلافُنا نأتي إلى بيروتَ
كي نأتي إلى بيروتَ...
من مَطَرٍ بَنَيْنا كوخنا، والريحُ لا تجري فلا نجري، كأنَّ الريح

مسمارٌ على الصلصال، تحفر قبونا فننام مثل النمل في القبو الصغير
كأننا كنا نُغَنِّي خلسةً:

بيروتُ خيمتُنا
بيروتُ نَجْمتُنا

سبايا نحن في هذا الزمان الرخو
أَسْلَمَنا الغزاةُ إلى أهالينا
فما كدنا نعضُّ الأرضَ حتى انقضَّ حامينا
على الأعراس والذكرى فوزَّعنا أغانينا على الحُرّاس.
مِنْ ملكٍ على عرشٍ
إلى ملك على نعشٍ
سبايا نحن في هذا الزمان الرخو
لَمْ نعثر على شَبَهٍ نهائيٍّ سوى دمنا
ولم نعثر على ما يجعلُ السلطانَ شعبيّا
ولم نعثر على ما يجعل السَّجانَ وديّا
ولم نعثر على شيء يَدُلُّ على هويتنا
سوى دمنا الذي يتسلَّق الجدران...
نُنشدُ خلسةً:

بيروتُ خيمتُنا
بيروتُ نجمتُنا

... ونافذةٌ تطلُّ على رصاص البحرِ
يسرقنا جميعاً شارعٌ ومُوَشَّحٌ
بيروتُ شكلُ الظلِّ
أجملُ من قصيدتها وأسهلُ من كلام الناس
تُغرينا بألف بدايةٍ مفتوحة وبأبجدياتٍ جديدة:

بيروتُ خيمتُنا الوحيدة
بيروتُ نجمتُنا الوحيدة

هل تمدَّدنا على صفصافها لنقيس أجساداً محاها البحر عن أجسادنا.
جئنا إلى بيروت من أسمائنا الأولى
نفتِّشُ عن نهايات الجنوب وعن وعاء القلبِ ...
سال القلبُ سال ...
وهل تمدَّدنا على الأَطلال كي نَزِنَ الشمال بقامة الأغلال؟
مال الظلّ مال عليَّ، كسَّرني وبعثرني

وطال الظلُّ طالَ ...

ليَسْرُوَ الشجرُ الذي يسرو ليحملنا من الأعناق

عنقوداً من القتلى بلا سببِ ...

وجئنا من بلادٍ لا بلاد لها

وجئنا من يد الفصحى ومن تَعبِ ...

خرابٌ هذه الأرض التي تمتدُّ من قصر الأمير إلى زنازننا

ومن أحلامنا الأولى إلى ... حطبِ

فأعطينا جداراً كي نرى أُفقاً ونافذةً من اللهبِ.

وأعطينا جداراً كي نُعلِّق فوقه سدُومَ

التي انقسمتْ إلى عشرين مملكةً

لبيع النفط ... والعربي

وأعطينا جداراً واحداً

لنصيح في شبه الجزيرةْ:

بيروت خيمتُنا الأخيرةْ

بيروت نجمتُنا الأخيرةْ

□

أُفُقٌ رصاصيٌّ تناثر في الأُفق

طُرُقٌ من الصدف المجوَّف... لا طُرُقْ
ومن المحيط إلى الجحيم
من الجحيم إلى الخليج
ومن اليمين إلى اليمين إلى الوسطْ
شاهدتُ مشنقةً فقط
شاهدتُ مشنقةً بحبلٍ
واحدٍ
من أجل مليونيْ عُنُقْ!

□

بيروتُ! من أين الطريقُ إلى نوافذ قُرْطُبهْ
أنا لا أُهاجرُ مَرتَّين
ولا أُحبُّك مرتين
ولا أرى في البحر غيرَ البحر...
لكنّي أُحوِّمُ حول أحلامي
وأدعو الأرض جمجمةً لروحي المتعبهْ
وأُريد أن أمشي
لأمشي

ثم أسقط في الطريق
إلى نوافذ قرطبهْ

□

بيروتُ شاهدةٌ على قلبي
وأرحلُ عن شوارعها وعنِّي
عالقاً بقصيدةٍ لا تنتهي
وأقولُ: ناري لا تموتُ ...
على البنايات الحمامُ
على بقاياها السلام ...
أطوي المدينةَ مثلما أطوي الكتابْ
وأحملُ الأرضَ الصغيرةَ مثل كيسٍ من سحابْ
أصحو وأبحثُ في ملابس جُثّتي عنّي
فنضحك: نحن ما زلنا على قيد الحياةِ
وسائرِ الحُكَّام
شكراً للجريدة لم تقل أني سقطتُ هناك سهواً...
أفتَحُ الطُّرُقَ الصغيرة للهواء وخطوتي والأصدقاءِ العابرين
وتاجر الخبز الخبيث، وصورة البحر الجديدة

شكراً لبيروت الضباب
شكراً لبيروت الخراب ...
تكسَّرتْ روحي، سأرمي جُثّتي لتصيبني الغزواتُ ثانيةً
ويُسْلِمَني الغزاةُ إلى القصيدة ...
أحمل اللغة المطيعة كالسحابةِ
فوق أرصفة القراءة والكتابةِ:
«إن هذا البحر يترك عندنا آذانه وعيونه»
ويعود نحو البحر بحريّا

□

... وأحمل أرض كنعانَ التي اختلف الغزاةُ على مقابرها
وما اختلف الرواةُ على الذي اختلف الغزاةُ عليهِ
من حجرٍ ستنشأ دولةُ الغيتو
ومن حجرٍ سننشئ دولةَ العُشّاقِ
أرتجلُ الوداع
وتغرقُ المدنُ الصغيرةُ في عباراتٍ مشابهة
وينمو الجرحُ فوق الرمح أو يتناوبان عليَّ
حتى ينتهي هذا النشيد ...
وأهبط الدَّرَجَ الذي لا ينتهي بالقبو والأعراس

أصعدُ مرةً أُخرى على الدرج الذي لا ينتهي بقصيدةٍ
أهذي قليلاً كي يكون الصحوُ والجلاّدُ...
أصرخُ: أيها الميلادُ عَذِّبْني لأصرخ أيها الميلادُ...
منْ أجل التداعي أمتطي درب الشآم
لعل لي رؤيا
وأخجلُ من صدى الأجراس وهو يجيئني صدَأً
وأَصرخُ في أثينا: كيف تنهارين فينا؟
ثُمَّ أهمسُ في خيام البدو:
وجهي ليس حنطيّاً تماماً والعروقُ مليئةٌ بالقمح...
أَسأل آخر الإسلام:
هل في البدء كان النفطُ
أم في البدء كان السخط؟
أهذي، رُبَّما أبدو غريباً عن بني قومي
فقد يفرنقعُ الشعراءُ عن لغتي قليلاً
كي أُنظِّفها من الماضي ومنهم ..
لم أجد جدوى من الكلمات إلّا رغبة الكلمات
في تغيير صاحبها ...

□

وداعاً للذي سنراهُ
للفجر الذي سيشُقُّنا عمّا قليلْ
لمدينةٍ ستعيدُنا لمدينةٍ
لتطول رحلتُنا وحكمتُنا
وداعاً للسيوف وللنخيلْ
لحمامةٍ ستطير من قلبين محروقين بالماضي
إلى سقفٍ من القرميدْ ...
هل مَرَّ المحاربُ من هُنا
كقذيفةٍ في الحرب؟
هل كسرتْ شظاياهُ كؤوسَ الشاي في المقهى؟
أرى مُدُناً من الورق المسلَّح بالملوك وبدلة الكاكي؛
أرى مُدُناً تتوِّج فاتحيها
والشرقُ عكس الغرب أحياناً
وشرقُ الغرب أحياناً
وصورتُه وسلعته ...
أرى مُدُناً تتوِّجُ فاتحيها
وتصدِّرُ الشهداء كي تستورد الويسكي
وأحدثَ منجزات الجنس والتعذيبِ ...

هل مَرَّ المحاربُ من هنا
كقذيفةٍ في الحرب؟
هل كسرتْ شظاياهُ كؤوسَ الشاي في المقهى؟
أَرى مُدُناً تعلِّقُ عاشقيها
فوق أَغصان الحديدْ
وتشرِّدُ الأسماء عند الفجر...
... عند الفجر يأتي سادنُ الصنَمِ الوحيدْ
ماذا نودّع غيرَ هذا السجن؟
ماذا يخسر السجناء؟
نمشي نحو أُغنية بعيدة
نمشي إلى الحرية الأولى
فنلمس فتنةَ الدنيا لأوَّل مرة في العمر...
هذا الفجر أزرقُ
والهواءُ يُرَى ويؤكلُ مثل حَبِّ التين
نصعدُ
واحداً
وثلاثةً
مائة

وألفا
باسم شعب نائم في هذه الساعاتِ
عند الفجر عند الفجر، نختتمُ القَصيدة
ونرتِّب الفوضى على درجات هذا الفجر
بوركت الحياةُ
وبورك الأحياءُ
فوق الأرض
لا تحت الطغاة
تحيا الحياة!
تحيا الحياة!

□

قَمَرٌ على بْعَلْبَكْ
ودمٌ على بيروتْ
يا حلوُ، من صَبَّكْ
فرساً من الياقوتْ!
قل لي، ومن كَبَّكْ
نهرين في تابوتْ!

يا ليت لي قلبكْ
لأَموتَ حين أموتْ

□

... من مبنى بلا معنى إلى معنى بلا مبنى وجدنا الحربَ...
هل بيروتُ مرآة لنكسرها وندخل في الشظايا
أم مرايا نحن يكسرنا الهواءُ؟
تعال يا جنديُّ حَدِّثني عن الشرطيّ:
هل أوصلتَ أزهاري إلى الشُّبَّاك؟
هل بلَّغتَ صمتي للذين أُحبُّهم ولأول الشهداء؟
هل قتلاكَ ماتوا فيكَ من أجلي وأجل البحر...
أم هجموا عليَّ وجرَّدوني من يد امرأةٍ
تُعدُّ الشاي لي والنّاي للمتحاربينَ؟
وهل تغيَّرت الكنيسةُ بعدما خلعوا على المطران زِيّاً عسكرياً؟
أم تغيّرت الفريسةُ؟
هل تغيرت الكنيسةُ
أمْ تغيَّرْنا؟

شوارعُ حولنا تلتفُّ

خذ بيروت من بيروت، وزِّعها على المدنِ
النتيجةُ: فسحةٌ للقبو
ضع بيروت في بيروت، واسحبها من المدنِ
النتيجةُ: حانةٌ للهو.
... نمشي بين قنبلتين
ـ هل نعتادُ هذا الموت؟
ـ نعتاد الحياة وشهوةً لا تنتهي
ـ هل تعرف القتلى جميعاً؟
ـ أعرف العُشَّاق من نظراتهم
وأرى عليها القاتلات الراضيات بسحرهن وكيدهن

... وننحني لتمرَّ قنبلةٌ؟
نتابعُ ذكريات الحرب في أيامها الأولى
ـ تُرى، ذهبتْ قصيدتُنا سدى؟
ـ لا ... لا أظُنُّ
ـ إذن، لماذا تسبقُ الحربُ القصيدةَ
ـ نطلبُ الإيقاع من حجر فلا يأتي
وللشعراء آلهة قديمة

... وتمرُّ قنبلةٌ، فندخل حانةً في فندق الكومودور

ـ يعجبني كثيراً صمتُ رامبو
أو رسائلُه التي نطقتْ بها إفريقيا
ـ وخسرتُ كافافي
ـ لماذا؟
ـ قال لي: لا تترك الإسكندرية باحثاً عن غيرها
ـ ووجدتُ كافكا تحت جلدي نائماً
وملائماً لعباءة الكابوس، والبوليس فينا
ـ إِرفعوا عنِّي يديّ
ـ ماذا ترى في الأفق؟
ـ أفقاً آخراً
ـ هل تعرف القتلى جميعاً؟
ـ والذين سيُولدون ...
سيولدون
تحت الشجرْ
وسيولدون
تحت المطرْ
وسيولدون
من الحجرْ

وسيولدون
من الشظايا
يولدون
من المرايا
يولدون
من الزوايا
وسيُولدون
من الهزائم
يولدون
من الخواتم
يولدون
من البراعم
وسيولدون
من البداية
يولدون
من الحكاية
يولدون
بلا نهايةْ

وسيولدون، ويكبرون، ويُقتلون،
ويولدون، ويولدون، ويولدون

□

فسّر ما يلي:
بيروت (بحر - حرب - حبر - ربح)

البحرُ: أبيض أو رصاصيٌّ، وفي إبريل أخضرُ،
أزرق، لكنه يحمرُّ في كلِ الشهور إذا غضبْ
والبحر: مال على دمي
ليكون صورةَ مَنْ أُحِبّْ

الحربُ: تهدمُ مسرحيتنا لنلعب دون نصّ أو كتابْ
والحرب: ذاكرةُ البدائيين والمتحضرين
والحرب: أولها دماء
والحرب: آخرها هواء
والحرب: تثقب ظلّنا لتمرَّ من بابٍ لبابْ

الحِبْرُ: للفصحى، وللضباط، والمتفرجين على أغانينا
وللمستسلمين لمنظر البحر الحزين
الحبر: نَمْلٌ أسودٌ، أو سيِّدٌ
والحبرُ: برزخُنا الأمين

والربحُ: مُشْتَقٌّ من الحرب التي لا تنتهي
منذ ارتدتْ أجسادُنا المحراثَ
منذ الرحلة الأولى إلى صيد الظباء
حتى بزوغ الاشتراكيين في آسيا وفي إفريقيا!
والربح: يحكمنا
يُشَرِّدنا عن الأدوات والكلمات
يسرقُ لحمنا
ويبيعُه

بيروت ـ أسواقٌ على البحرِ
اقتصادٌ يهدم الإنتاجَ
كي يبني المطاعم والفنادقَ ...

دولةٌ في شارعٍ أو شُقَّةٍ
مقهى يدور كزهرة العبَّاد نحو الشمس
وَصْفٌ للرحيل وللجمال الحُرّ
فردوسُ الدقائق
مقعدٌ في ريش عُصفورٍ
جبال تنحني للبحر
بحرٌ صاعدٌ نحو الجبال
غزالةٌ مذبوحةٌ بجناح دوريّ
وشعبٌ لا يحبُّ الظلّ
بيروتُ ـ الشوارعُ في سُفُنْ
بيروت ـ ميناء لتجميع المُدُنْ

□

دارتْ علينا واستدارتْ. أدبرتْ واستدبرتْ
هل غيمةٌ أُخرى تخون الناظرين إليك يا بيروت؟
هندسةٌ تلائمُ شهوة الفئة الجديدة
طحلبِ الأيام بين المدِّ والجزر
النفاياتِ التي طارت من الطبقات نحو العرش...

هندسة التحلُّل والتشكُّل
واختلاط السائرين على الرصيف عشيَّة الزلزال...
دارتْ واستدارتْ
هندسيَّتها خطوطُ العالم الآتي إلى السوق الجديدة
يُشترى ويُباع. يعلو ثم يهبط مثل أسعار الدولار
وأُونصةِ الذهب التي تعلو وتهبط وفق أسعار الدم الشرقيّ
لا ... بيروتُ بوصلةُ المحارب ...
نأخذُ الأولاد نحو البحر كي يثقوا بنا...
مَلِكٌ هو الملك الجديد ...
وصوتُ فيروزَ الموزَّعُ بالتساوي بين طائفتين
يرشِدنا إلى ما يجعل الأعداء عائلةً
ولبنانَ انتظاراً بين مرحلتين من تاريخنا الدمويِّ

□

ـ هل ضاق الطريقُ
ومن خُطاك الدربُ يبدأ يا رفيق؟
ـ مُحاصرٌ بالبحر والكتب المقدسة
ـ انتهينا؟

ـ لا. سنصمد مثل آثار القدامى
مثل جمجمةٍ على الأيام نصمدُ
كالهواء ونظرة الشهداء نصمدُ ...
يخلطان الليل بالمتراس. ينتظران ما لا يعرفان
يخبّئان العالم العربيَّ في مِزَقٍ تُسمَّى وحدةً ...
يتقاسمان الليل:
ـ ليلى لا تُصَدِّقني
ولكني أُصَدِّقُ حَلْمتيها حين تنتفضان ...
أغرتني بمشيتها الرشيقة:
أيطلا ظبي، وساقُ غزالةٍ، وجناح شحرور، وومضةُ شمعدان
كُلّما عانقتُها طلبتْ رصاصاً طائشاً
ـ ملك هو الملك الجديد
إلى متى نلهو بهذا الموت؟
ـ لا أدري، ولكنّا سنحرس شاعراً في المهرجان
ـ لأيِّ حزبٍ ينتمي؟
ـ حزب الدفاع عن البنوك الأجنبية واقتحام البرلمان
ـ إلى متى تتكاثر الأحزابُ، والطبقاتُ قلْتْ يا رفيق الليل؟
ـ لا أدري،

ولكن ربما أقضي عليك، وربما تقضي عليَّ
إذا اختلفنا حول تفسير الأنوثة...
ـ إنها الجمرُ الذي يأتي من الساقين
يحرقنا
ـ هي الصدر الذي يتنفّس الأمواج
يغرقنا
ـ هي العينان حين تضيِّعان بداية الدنيا
ـ هي العُنُقُ الذي يُشرَب
ـ هي الشفتان حين تناديان الكوكب المالح
ـ هي الغامضْ
ـ هي الواضحْ
ـ سأقتلك. المسدَّسُ جاهزٌ. مَلِكٌ هو المَلِكُ،
المُسدَّس جاهزٌ.
بيروتُ شكلُ الشكل
هندسةُ الخراب ...

□

الأربعاء. السبت. بائعةُ الخواتم
حاجز التفتيش. صيَّاد. غنائم

لغة وفوضى. ليلة الاثنين.
قد صعدوا السلالم
وتناولوا أرزاقهم. من ليس منّا
فهو من عَرَبٍ وعاربة. سوائم.
يوم الثلاثاء. الخميس. الأربعاء.
وتأبطوا تسعين جيتاراً وغنُّوا
حول مائدة الشواء الآدمي.

□

قَمَرٌ على بعلبكْ
ودمٌ على بيروتْ
يا حلو، من صَبَّكْ
فرساً من الياقوتْ
قل لي، ومن كَبَّكْ
نهرين في تابوتْ
يا ليت لي قلبكْ
لأموت حين أموتْ ...

□

... أحرقنا مراكبنا. وعلَّقنا كواكبنا على الأسوار.

نحن الواقفين على خطوط النار نعلن ما يلي:

بيروت تُفَّاحَهْ

والقلبُ لا يضحكْ

وحصارنا واحهْ

في عالمٍ يهلكْ

سنرقِّصُ الساحهْ

ونزوِّجُ الليلكْ

أحرقنا مراكبنا. وعلَّقنا كواكبنا على الأسوار

لم نبحث عن الأجداد في شَجَر الخرائط

لم نسافر خارج الخبز النقيِّ وثوبنا الطينيِّ

لم نرسل إلى صَدَف البحيرات القديمة صورة الآباء

لم نولد لنسأل: كيف تَمَّ الانتقالُ الفذُّ مما ليس عضوياً

إلى العضويِّ؟

لم نولد لنسأل ...

قد وُلدنا كيفما اتفق

انتشرنا كالنمال على الحصيرة

ثم أصبحنا خيولاً تسحبُ العربات...

نحن الواقفين على خطوط النار
أحرقنا زوارقنا، وعانقنا بنادقنا
سنوقظ هذه الأرض التي استندت إلى دَمنا
سنوقظها، ونُخرجُ من خلاياها ضحايانا
سنغسل شعرهم بدموعنا البيضاء
نسكبُ فوق أيديهم حليبَ الروح كي يستيقظوا
ونرشُّ فوق جفونهم أصواتنا:
قوموا ارجعوا للبيت يا أحبابنا
عودوا إلى الريح التي اقتلعت جنوب الأرض من أضلاعنا
عودوا إلى البحر الذي لا يذكر الموتى ولا الأحياء
عودوا مرة أخرى
فلم نذهب وراء خطاكُمُ عبثاً
مراكبنا هنا احترقت
وليس سواكمُ أرضٌ ندافع عن تعرُّجها وحنطتها
سندفع عنكمُ النسيان، نحمِيكُمْ
بأسلحةٍ صككناها لكم من عَظْم أيديكمْ
نسيّجكُمْ بجمجمةٍ لَكُمْ
وبركبةٍ زَلَقَتْ

فليس سواكُمْ أرضاً نسمِّرُ فوقها أقدامنا ...
عودوا لنحميكُمْ ...
«ولو أنَّا على حَجَرٍ ذُبحنا»
لن نغادر ساحة الصمت التي سَوَّتْ أياديكُمْ
سنفديها ونفديكُمْ
مراكبنا هنا احترقتْ
وخَيَّمنا على الريح التي اختنقتْ هنا فيكُمْ
ولو صعدتْ جيوشُ الأرض هذا الحائط البشريَّ
لن نرتدَّ عن جغرافيا دمكم.
مراكبنا هنا احترقتْ
ومنكم ... مِنْ ذراعٍ لن تعانقنا
سنبني جسرنا فيكُمْ
شَوَتْنا الشمسُ
أدمتنا عظام صدوركم
حَفَّتْ مفاصلنا منافِيكُمْ
«ولو أنَّا على حَجَرٍ ذُبحنا»
لن نقول «نعم»
فمن دمنا إلى دمنا حدودُ الأرض

من دمنا إلى دمنا
سماءُ عيونكم وحقولُ أيديكُمْ
نناديكُمْ
فيرتدُّ الصدى بَلَداً
نناديكُمْ
فيرتدُّ الصدى جَسَداً
من الأَسمنت
نحن الواقفين على خطوطِ النار نعلن ما يلي:
لن نترك الخندقْ
حتى يمرَّ الليلْ
بيروتُ للمطلقْ
وعيونُنا للرملْ
في البدء لم نُخْلقْ
في البدء كان القولْ
والآن في الخندقْ
ظهرتْ سماتُ الحملْ

□

تُفَّاحةٌ في البحر، إمرأةُ الدم المعجون بالأقواس،

شطرنج الكلامْ،
بقيَّةُ الروحِ، استغاثاتُ الندى،
قَمَرٌ تحطَّم فوق مصطبة الظلامْ
بيروتُ. والياقوتُ حين يصيح من وهج على ريش الحمام
حُلُمٌ سنحملُهُ. ونحلمه متى شئنا. نعلّقهُ على أعناقنا
بيروتُ زنبقةُ الحطامْ
وقُبلةٌ أولى. مديحُ الزنزلخت. معاطف للبحر والقتلى
سطوحٌ للكواكب والخيامْ
قصيدةُ الحجر. ارتطامٌ بين قُبَّرتين تختبئان في صدرٍ...
سماءٌ مُرَّةٌ جلستْ على حَجَرٍ تفكِّرُ،
وردةٌ مسموعةٌ بيروتُ. صوتٌ فاصلٌ بين الضحية والحُسامْ.
وَلَدٌ أطاح بكل ألواح الوصايا
والمرايا
ثم ... نامْ.

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أغنية
- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

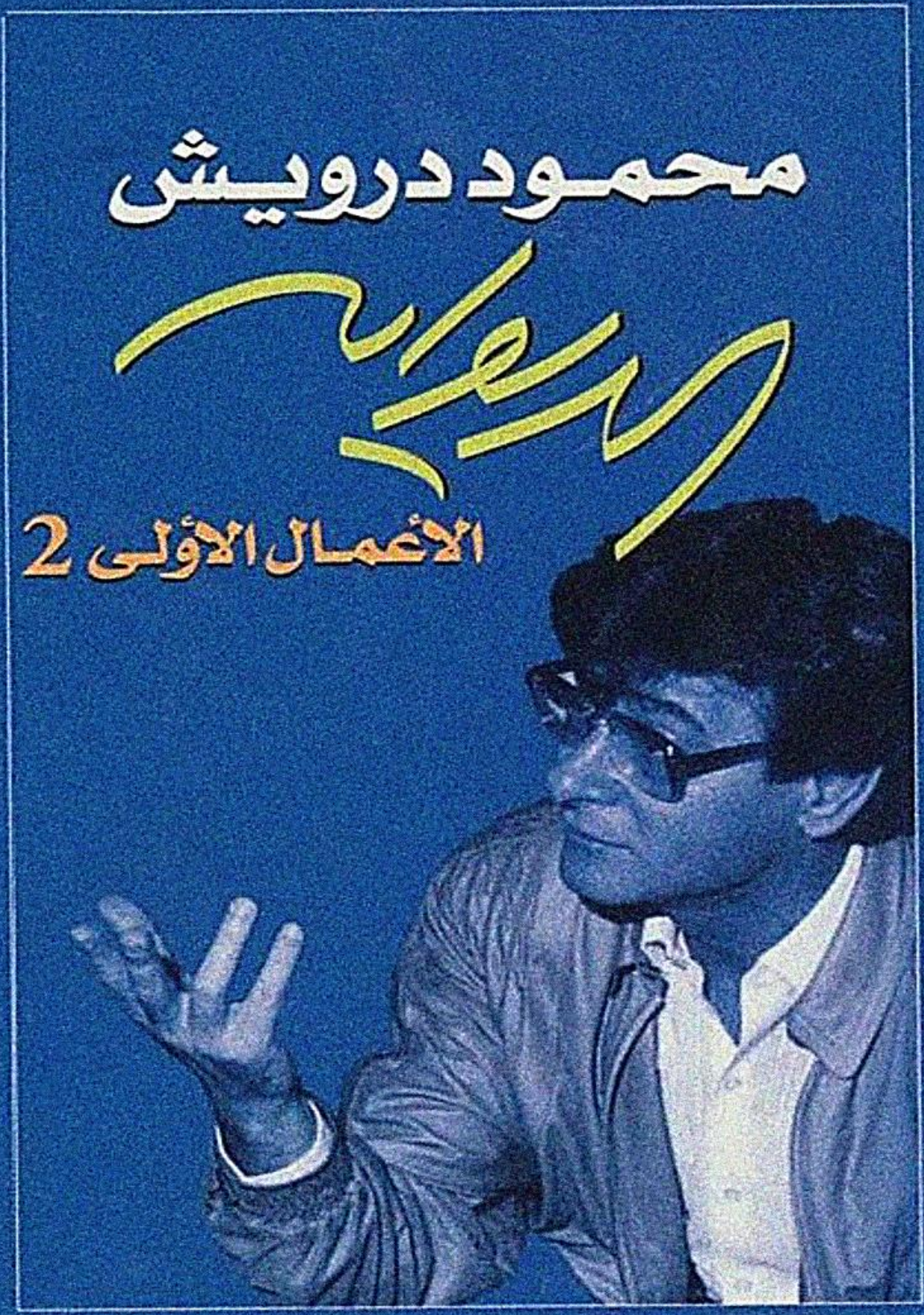
الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢



ISBN 9953-21-206-6
9 789953 212067

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL RAYYES BOOKS